النِّفَاق

سَرَطان الأمَم والشّعُوب والدُّول

بسم الله الرحمن الرحيم

النِّفاق

سرطان الأمم والشّعوب والدُّول

الشيخ جميل الربيعي

منشورات العطار

٢٤٥

ر ٢٩٦ الرّبيعي، جميل

النّفاق سرطان الأمم والشّعوب والدّول/ جميل الرّبيعي

ط١- ايران: منشورات العطّار، ٢٠٢٤

٣٣٧ص، ٢٠ سم

١. الإسلام، دفع مطاعن. أ. العنوان. ٢. النّفاق

المكتبة الوطنية/ الفهرسة أثناء النشر

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٩٣٠) لسنة (٢٠٢٤)

التّرقيم الدّوليّ (ISBN) 978-622-5659-95-7

هويّة الكتاب

عنوان الكتاب................ النّفاق سرطان الأمم والشّعوب والدّول

المؤلّف.. الشّيخ جميل الرّبيعيّ

دار النّشر.. منشورات العطّار

محلّ النّشر.. قم- إيران

الطّبعة... الأولى

سنة الطّبع... ١٤٤٦هـ/٢٠٢٤م

عدد النّسخ.. ١٠٠٠ نسخة

عدد الصّفحات..................................... ٣٣٧ صفحة

جميع حقوق النّشر محفوظة للمؤلّف

الإهداء:

لتزامن الانتهاء من إعداد الكتاب

مع شهادة قائد المقاومة الإسلاميّة..

سماحة المجاهد الكبير

الشّهيد العظيم

الدّاعية الفذّ

السّيّد حسن نصر الله

أهديه هذا الجهد المتواضع

راجياً من الله تعالى القبول

ومنه الشّفاعة

مقدّمة:

منذ زمنٍ طويلٍ، وأنا أفكّر في أن أكتب بحثاً عن النّفاق والمنافقين، وقرأتُ ما وقع بين يدي من بحوث قصيرة وموسّعة حول النّفاق.. ولم تتوقّف رغبتي في بحث هذا الموضوع الَّذي أخذ حيّزاً واسعاً في آيات الكتاب الكريم، إذ جاء ذكر المنافقين وما أحدثوه في ثلاث عشرة سورة، وجاءت لفظة (النّفاق) ومشتقّاتها أكثر من ثلاثين مرّة، وقد قيل: إنَّ أحداث النّفاق والمنافقين في القرآن الكريم استغرقت أكثر من ثلاثمائة آية؛ وهذا يدلُّ على أهمّيّة الموضوع وخطورته كما وضَّحْناه في التَّمهيد.

ويتبيَّن لنا من دراسة تاريخ النّفاق خطورته إذا عرفنا أنَّ الإسلام في تاريخه الطَّويل لم يتضرّر من الكفار والمشركين بمقدار ما تضرَّر من المنافقين؛ لأنَّ النّفاق مرضٌ عضالٌ يعيش في جسد الأمّة، وينخر بها من داخلها، عكس الكفر والشّرك، فهو عدوٌّ ظاهرٌ معروف يمكن تحاشيه ومحاربته؛ أما مشكلة النّفاق فهو عدوٌّ داخليٌّ؛ ولذلك عجز عن علاجه حتّى الأنبياء والمرسلين وأوصياؤهم، ورحم الله الإمام الخميني الَّذي أشار إلى هذا الوباء الخطير في بعض أحاديثه، بأنَّ مشكلة المنافقين من أكبر المشاكل الَّتي تواجه الإسلام، قال قُدِّسَ سِرُّهُ: «التَّعامل مع هؤلاء صعبٌ

جداًّ. مشكلة المنافقين لم يستطع حتى الرّسول الأكرم معالجاتها، والإمام عليّ أيضا ابتُلِيَ بهؤلاء، ولم يتسنَّ له الحل، فمعالجة هذه المشكلة صعبة»[1].

ولذلك وصفْتُ النّفاق في العنوان بأنَّه (سرطان)، ذلك المرض الَّذي أعيا الأطبّاء منذ اكتشافه وإلى اليوم؛ لأنَّه إذا حلَّ في بدن إنسان أهلكه، وحتّى إن نجا منه فإنَّه يبقى يعاني من آثاره وأخطاره.

إنَّ كلّ ما يمكن أن نعمله تجاه المنافقين أن نعرفهم في صورتهم الحقيقية؛ لنستطيع على أقل التَّقادير التّحامي من شرورهم باعتزالهم أو عزلهم من خلال التَّحذير منهم، والتَّعريف بمخاطرهم على حاضر الإنسانيّة ومستقبلها في الدنيا والآخرة..

وقد جاء بحثنا هذا في تمهيد مختصر لبيان مخاطرهم، ثمَّ فصول ثمانية متفاوتة المقدار، تلتها خاتمة.

ففي الفصل الأوّل تحدّثنا عن تعريف النّفاق لغة واصطلاحاً وعن أسبابه النَّفسيّة والفكريّة.

وفي الفصل الثّاني بيّنا دعائم النّفاق انطلاقاً من حديث الإمام علي عليه السلام: «والنّفاق على أربع دعائم..».

ثمَّ عرضتُ في الفصل الثّالث بشكل تفصيلي صفات المنافقين في ست عشرة صفة مستنبطة من النصوص الشريفة في الكتاب والسنة.

---

(١) صحيفة الإمام: ١٩٨/١١.

وفي الفصل الرّابع: ذكرتُ بعض قبائحهم، وطبيعة نسيجهم مع تباين ألوانهم.

وفي الفصل الخامس بيّنتُ أساليب جهادهم والغلظة عليهم انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾(١)، مع بيان المواقف العمليّة الَّتي ينبغي اتّخاذها لتحجيمهم وتقزيمهم والتوقّي من شرورهم.

أمّا الفصل السّادس: فقد تعرَّض لطبيعة نفوس المنافقين، وأنَّها لا تقبل الإصلاح إذا تجذّر فيها النّفاق، مع بيان أخبث الأساليب وأخطرها الَّتي اتّبعوها في إفساد الأديان والعقائد والأفكار السَّليمة.

والفصل السّابع، فقد تعرَّضنا فيه لأخبث أعمالهم كما نصَّ عليها حديث الإمام عليّ عليه السلام.

والفصل الثّامن: تعرَّض لتاريخ حركة النّفاق في عصر النّبوّة، وما قاموا به من محاولات لعرقلة سير حركة الإسلام.

ثمّ تحدّثنا في ختام الكتاب عمّا يعانونه من عذاب دنيويّ، وما سيلاقونه من عذاب أبديّ سرمديّ: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾(٢).

وأخيراً أسأل الله تعالى أن يتقبّل مني هذا البحث المتواضع، وأن

---

(١) التّوبة: ٧٣.

(٢) النّساء: ١٤٥.

يجعله لي ذخراً ﴿**يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ * إِلاّ مَنْ أَتَى الله بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[1].

المؤلّف

النَّجف الأشرف

٤/ربيع الأول/١٤٤٦هـ

٧/أيلول/ ٢٠٢٤م

---

(١) الشّعراء: ٨٨-٨٩.

تمهيد في مخاطر النّفاق:

ممّا لا شك فيه أنَّ للنفاق آثاراً سلبيّة مدمّرة تهدّ الكيان البشري فرداً وعائلةً ومجتمعاً بل ودولةً، وفي جميع جوانب الحياة: الفكريّة والسّياسية والأخلاقيّة والاجتماعيّة، فهو العدوّ الدّاخليّ الَّذي يفتك بالمجتمع من داخله، ويفعل فعل السّرطان الَّذي يمتدّ خفية إلى كلّ خليّة في الجسم، بل يمتدّ إلى كلّ جزء جزء، ومفردة مفردة بالتَّدريج، ولا يترك جانباً إلا ويعمل على إفساده من داخله دون أن يشعر المريض به أحياناً، ويستمرُّ على ذلك حتّى يأتي على آخره، فلا يلتفت إلا وقد هَدَّ أُسسَهُ، وحَطَّم بنيته الدّاخليّة، وأسقط عروشه واقتلع جذوره، وتركه خراباً مدمّراً لا يرجى له شفاء.

هذا أثر السّرطان في جسم الإنسان وتحطيمه للجانب المادّيّ، ولكن هناك فرقاً كبيراً بين آثار السّرطان على الجسم، وآثار النّفاق على الكيان الإنسانيّ الفرديّ والاجتماعيّ، فممّا لا شكَّ فيه أنَّ أخطار النّفاق على المجتمع البشري أشدُّ خطورةً من السّرطان على الجسم، وأكثر فتكاً؛ ولا سيّما إذا امتدّت جذوره إلى الجانب العقائديّ والفكريّ فقد أصبح الإنسان على شفا جرف هار؛ لأنَّ العقيدة هي العمود الفقريّ الَّذي تقوم عليه حياة الإنسان، بل هي البوصلة الَّتي توجّه مسيره في الحياة،

وتضعه على الجادة، وتأخذ بيده؛ ليحدّد دوره في الكون والحياة والإنسان، فلا يكون مسيرُه سليماً إلا إذا كانت العقيدة صحيحة سليمة ثابتة مستقرّة على خط التَّوحيد الإلهيّ، بنهج صحيح، ورؤية واضحة، ومعرفة شاملة، تُعرّفه علّة وجوده وعلّة إيجاده في هذه الحياة، وتحصّنه من خطر الانحراف والانزلاق في دهاليز النّفاق، وإذا لم تتحقّق الحصانة الرّصينة فكريّاً وأخلاقيّاً للإنسان، فإنَّه سيكون في معرض الأخطار المدمّرة.

إنَّ النّفاق إذا امتدَّ إلى عقيدة الإنسان بأيّ شكل من الأشكال فإنَّه سيفسدها، ويجعل معتنقها متقلّباً متزلزلاً يتلوّن تلوّن الحرباء لا يستقرّ على حال، ولا يهدأ له بال، وهذا النّوع من النّفاق هو الأخطر، بل منبعه الَّذي يمتدّ إلى كلّ جنبة من جنبات الحياة الإنسانيّة لأنَّ الإنسان إذا فسد اعتقاده فسد كلّ كيانه، وقد وصف هذا النّوع بـ (النّفاق الأكبر)، «وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن ما يناقض ذلك كلّه أو بعضه. وهذا هو النّفاق الَّذي كان على عهد رسول الله ﷺ ونزل القرآن بذمّ أهله وتكفيرهم، وأخبر أنّ أهله في الدّرك الأسفل من النّار»[1].

ومن هنا عدَّ القرآنُ الكريم النّفاقَ توأمَ الكفر؛ لأنَّه أصله الَّذي ينبع منه؛ ولذلك أمر الله نبيّه أن يجاهد الكُفّار والمنافقين بدرجة واحدة،

---

(١) موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم ﷺ: ٥٦٠٥/١١.

وأن يغلظ عليهما: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾(١).

بل هناك ما هو أشدّ وأنكى حين جعل الله مأواهم في الدَّرك الأسفل من النَّار: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾(٢).

وأظنّ أنَّه لا توجد عاقبة أسوأ من هذه العاقبة؛ ولذا عبّر بعض الباحثين عن هذا النّوع بـ(النّفاق الأكبر)؛ لأنَّ هذا النَّوع إذا تأصَّل واستحكم في النَّفس الإنسانيّة أصبح مصدراً لجميع المفاسد الاجتماعية وعلى مختلف المستويات، منه تنطلق وإليه ترجع؛ لتزوّده بكلّ عوامل الفساد والإفساد الَّتي تحاول أن تمتدّ في الكيان البشريّ؛ لتفتك به فرداً ومجتمعاً ودولةً.

أمّا **آثاره على الفرد**؛ فإنَّه يعطّل التَّكامل الإنسانيّ، ويمنع من إدراك الحقيقة الإنسانيّة بكلّ أشكالها، بل يوقفه عن السَّعي والصُّعود في مدرج الكمال، ويصبح سدّاً منيعاً في وجه كلّ سبيل من سبل الرَّشاد والفضيلة؛ ويجعله غير مبالٍ بكرامته وسمعته وشرفه، وبذلك يكون منحطّاً محتقراً عند الله، وعند النّاس، بل عند نفسه، وحينئذ يصبح سيّئ الظنّ، متشائماً، مضطرب الأعماق، يشعر بالذّلّة والصّغار؛ لأنَّه يعلم أنّه لا

---

(١) التّوبة: ٧٣.

(٢) النّساء: ١٤٥.

بُدَّ من أن تنكشف حقيقته يوماً ما، فتوجب له الفضيحة والعار أمام الأصحاب والأقران، هذا في الدُّنيا.

وأمّا في الآخرة؛ فإنَّ النّفاق يوجب الذّلّة والفضيحة والعار أمام الله ورسوله فضلاً عن العذاب الأبديّ الأليم الَّذي لا انقطاع له ولا انتهاء، فقد ورد في بعض الأحاديث الشَّريفة أنَّ المنافق يحشر بلسانين من نار، بل أصبح جوهر جسمه من النّار؛ ليكون الإحساس أقوى وآلم وأشدّ؛ فعن الإمام علي عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلتهبان ناراً، حتى يلهبا جسده، ثمّ يقال له: هذا الَّذي كان في الدُّنيا ذا وجهين، وذا لسانين، يعرف بذلك يوم القيامة»[1].

وقد تواترت الأحاديث الشَّريفة بذمّ ذي الوجهين، ووصفته بأنَّه شرُّ النّاس، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النّاس ذَا الْوَجْهَيْنِ، الَّذِي يَأْتِي هَؤُلاءِ بِوَجْهٍ، وَهَؤُلاءِ بِوَجْهٍ»[2].

وجميل ما وصف شاعر أهل البيت عليهم السلام دعبل الخزاعي هذا المرض الوبيء بقوله: [من الطّويل]

وذي حسدٍ يغتابني حين لا يرى ... مكاني ويثني صالحاً حين أسمعُ
ويضحك في وجهي إذا ما لقيته ... ويهمزني بالغيب سرّاً ويلسعُ

---

(١) كتاب الخصال: ٣٨؛ ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٢٦٩.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٥/٥٣٥، ح/٩٨٦٦.

ملأتُ عليه الأرض حتّى كأنَّما يضيق عليه رحبها حين أطلعُ[(١)]

وهكذا اتّضح لنا بجلاء ووضوح أنَّ للنّفاق على شخصيّة الفرد آثاراً سلبيةً نفسيّةً وأخلاقيّةً وسلوكيّةً، فعلى الصَّعيد النَّفسيّ تجعله قلقاً، مضطرباً متقلّباً، منهزماً، مهزوزاً من داخله لا يستقرّ على حال، ولا يهدأ له بال، فتراه يعيش العذاب والذّلّ والشُّعور بالنَّقص محكوماً لعقدة الحقارة، تتقاذفه الأوهام، وتلعب به الأهواء، لا يرى لنفسه قيمة، محتاراً ضائعاً متذبذباً؛ ولذا يحاول أن يسدّ هذا النَّقص، ويفلت من هذه الشّباك، فيظهر خلاف ما يبطن، وينطق بما ليس معتقداً به، ويدَّعي بما ليس فيه من صفات الجمال والكمال، كلّ ذلك لِتَلَبُّسه بثوب النّفاق، وعلى كل حال «إنَّ النّفاق بصورة عامّةٍ دليل على الضعف والحقارة الموجودة في باطن الشَّخص»[(٢)].

قال الإمام عليّ عليه السلام: «نِفَاقُ الْمَرْءِ مِنْ ذُلٍّ يَجِدُهُ فِي نَفْسِهِ»، وعلى ذلك يستقرّ كيانه؛ فـ«النِّفَاقُ مِنْ أَثَافِي الذُّلِّ»[(٣)].

وأمّا **النّاحية الأَخلاقَيّة؛** فَهي انعكَاس لما تبطنه النَّفس، وما تضمره السّريرة؛ ولذا تبرز الظَّواهر السّلبيّة على سلوكه مع نفسه، ومع النّاس، فتراه يتصنّع الكمال، ويتظاهر بالسّموّ، ويدّعي الخصال الحميدة،

(١) ديوان دعبل الخزاعيّ: ١٢٦.

(٢) الطّفل بين الوراثة والتّربية: ٣٠٣/٢.

(٣) الحديثان في تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٥٨، ح/١٠٤٨٥-١٠٤٨٦.

ويتجمّل لأجل ذلك تجمُّل الغواني[(١)]، حتّى تصبح تصرّفاته فجّة[(٢)] قبيحة تنفر منها النُّفوس الطّيّبة؛ لأنَّ ما في باطنه من قبح لا بُدَّ من أن يظهر على تصرّفاته مهما حاول إخفاءها، وقد قال الشّاعر: [من الطّويل]

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على النّاس تعلمِ

وقد أوضح أمير المؤمنين عليه السلام هذه الآثار على شخصيّة الفرد بقوله: «والمنافق إذا نظر لها، وإذا سكت سها، وإذا تكلّم لغا، وإذا استغنى طغا، وإذا أصابته شدّةٌ ضغا[(٣)]، فهو قريب السّخط، بعيد الرّضى، يسخطه على الله اليسير، ولا يرضيه الكثير، ينوي كثيراً من الشّرّ، ويعمل بطائفةٍ منه، ويتلهّف على ما فاته من الشّرّ كيف لم يعمل به»[(٤)].

ونتيجة ذلك كلّه لا يسقط المنافق عند نفسه وحسب، وإنّما يفقد قيمته الاجتماعيّة، فيعيش محتقراً منبوذاً من أقرب المقرّبين له؛ لأنّه فَقَدَ مصداقيّته الإنسانيّة حين خسر ثقته بنفسه، وثقة المحيطين به؛ ولذا يتجنّب النّاس صحبته ومجالسته؛ لكذبه وتصنّعه وتكلّفه وتملّقه بالمجاملات الباهتة الّتي تعكس حقيقته الباطنيّة مهما حاول إضمارها، فـ«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسانِهِ وَصَفَحَاتِ وَجْهِهِ»[(٥)].

---

(١) جمع غانية، وهي المومس بائعة الهوى.

(٢) الفجّ من كلّ شيء ما لم ينضج.

(٣) ضغا: أي تذلّل وضعف، قال الجوهريّ: «ضغا الثّعلب والسّنّور يضغو ضغواً وضغاء، أي صاح، وكذلك صوت كلّ ذليل مقهور»، الصّحاح: ٢٤٠٩/٦، (ضغا).

(٤) تحف العقول: ٢١٢.

(٥) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٢.

وما أدقّ وأجمل بيان صاحب (معارج نهج البلاغة) على هذا الحديث بقوله: «إنّ الاعتقاد الَّذي في صميم الفؤاد كالرطوبة الَّتي في أعراق الشّجرة وأصولها، فلا شكَّ أنَّه يظهر آثارها بالأوراق والأزهار على أغصانها»(١).

وأدقّ من ذلك بيان ابن ميثم البحرانيّ بقوله: «والمقصود ههنا بيان أنَّ الاعتقادات الَّتي يضمرها الإنسان ويحافظ عليها ويراعي سترها عن اطّلاع الغير عليها لمصالح متصوّرة ومقاصد اختيارية سواء كانت نافعة أو ضارّة، فإنَّها وإن بولغ في مراعاة حفظها واجتهد في عدم اطّلاع الغير عليها لا بُدَّ وأن تظهر»(٢).

وهكذا يصبح من تجذّر النّفاق في قلبه وضميره عنصراً فاسداً ومفسداً أينما يحلّ ينشر الفساد، فيرفض اجتماعيّاً مهما تملَّق وتصنَّع، ومهما تظاهر بالكمال والجمال، وإن أراد أحد أن يستفيد منه زاده رهقاً.

وما أجمل ما مثّل رسول الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ به المنافق؛ فقد روي عن أبي عبد الله عَلَيْهِالسَّلَامُ قال: «قَالَ رَسُولُ الله صَلَّىاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ: مَثَلُ الْمُنَافق مَثَلُ جِذْعِ النَّخْلِ، أَرَادَ صَاحِبُهُ أَنْ يَنْتَفِعَ به في بَعْضِ بنائه، فَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ في الْمَوْضِعِ الَّذي أَرَادَ، فَحَوَّلَهُ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ، فَلَمْ يَسْتَقِمْ لَهُ، فَكَانَ آخِرُ ذلكَ أَنْ أَحْرَقَهُ بِالنَّارِ»(٣).

(١) معارج نهج البلاغة: ٤٠٣.

(٢) شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ: ٢١١.

(٣) الكافي: ٤/١٦٢، ح/٢٨٧١.

ومثّله أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «مَثَلُ الْمُنَافِق كَالْحَنْظَلَة، الْخَضِرَة أَوْرَاقُهَا، الْمُرّ مَذَاقُهَا»(١).

وفي مثال ثالث لرسول الله صلى الله عليه وآله: «مَثَلُ الْمُنَافِق كَمَثَل الشَّاة الْعَائِرَة بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لا تَدْرِي أَهَذِهِ تَتْبَعُ، أَمْ هَذِه»(٢).

هذه الأمثلة كلّها وغيرها لبيان حقيقة النّفاق والتحضير من مخاطره المدمّرة، وهذه بعض آثار النّفاق على الفرد.

أمّا **آثاره الاجتماعيّة**؛ فهي الأخطر والأشدّ فتكاً وأكثر خراباً ودماراً، فما فشا النّفاق في مجتمعٍ إلا وانتشر فيه الفساد بأبشع صوره وأفظع حالاته، وسادت فيه الرّذائل والموبقات بأحطّ دركاته، وممّا لا شكَّ أنَّ مصدر هذه المفاسد جميعاً هم أهل النّفاق، فهم من خلال مكرهم وكيدهم وتخطيطهم الخفيّ ينشرون الرّذائل الأخلاقيّة، والمفاسد السّياسيّة والاقتصادية بأقوالهم وأفعالهم، فالكذب والبهتان والزّور والكيد والخداع والغدر... الخ، وجميع الرَّذائل ما هي إلا إفراز من إفرازات أعمال المنافقين وأقوالهم وتصرّفاتهم الَّتي يلوّثون فيها الأجواء الاجتماعية؛ والأفظع من ذلك هو سعيهم المتواصل للوصول إلى المواقع المتقدّمة في السُّلطة والتزلّف لعشّاق الكراسي، والتّرويج لهم

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٥٨، ح/١٠٤٨١.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٩٩/٩، ح/٥٠٧٩.

كذباً وزوراً، لتقوية مواقعهم؛ لتكون لهم حصة الأسد في تلك المواقع.

ومن خلال تتبّع الأحداث التّأريخيّة السّياسيّة يمكن القول: أنَّه ما تسلَّط ظالم على النّاس إلا ولأهل النّفاق دورٌ فاعلٌ في ذلك بصورة مباشرة أو غير مباشرة بتملّقهم وتقرّبهم إليهم، وتسكّعهم على أبواب الظّالمين، والتّرويج لهم تزلّفاً ومهادنةً وتذلّلاً؛ ولهذا وغيره كان للمنافقين دورٌ كبيرٌ في إيصال كثير من المجرمين والطُّغاة إلى مواقع السُّلطة المتقدّمة، وتثبّت مواقعهم وإسنادهم والعمل لانتشار الظُّلم، وسلب الحقوق، وهتك الحرمات، وانتشار التّفكّك الأسريّ والعدوات المذهبيّة والطّائفيّة من أبناء المجتمع الواحد، ونشر حالة التّطرّف والفرقة، وإثارة الفتن، وخلق الأزمات السّياسيّة أو المذهبية، ومحاولة إبعاد النّاس عن القيم الرّوحيّة والأخلاقية السّامية، وإبراز العناصر الفاسدة الَّتي تُحسِنُ التّسلّق للمناصب المتقدّمة بالتّملّق والكذب والوعود المعسولة خداعاً ومكراً وكيداً؛ ليتاح لهم التسلّط على رقاب الناس، وهكذا يواصلون عملهم الخبيث؛ ليعمّ الفساد، فيُقَرَّب الفاسدون، ويُبَعَد الصّالحون، وتفتقد الثّقة والمحبّة والتّعاون بين أبناء المجتمع بما يبذرونه من أفكار منحرفة، وبما يجسّدونه من مواقف ظالمة...

وما يعانيه مجتمعنا اليوم من فتن وأزمات ومحن ومصائب ما هو إلا نتيجة حركة المنافقين على طول خط التأريخ، ولا سيما في النصف الثّاني من القرن العشرين في حقبة تسلّط البعث الصَّليبيّ في عراق عليّ

والحسين ﰏ، وما أفرزته تلك الحقبة من خراب وتدمير فكريّ وأخلاقيّ واقتصاديّ واجتماعيّ بجهود جنود الشَّيطان الّذين بذلوا قصارى جهدهم في تثبيت مواقع المجرمين الّذين أذاقوا أبناء شعبنا الويل والثّبور، وأحلّوهم دار البوار...

وخلاصة الكلام: إنَّ من أهم آثار النّفاق الاجتماعية: بروز النزاعات والأزمات والمشاكل المختلفة، وانتشار العداوات والبغضاء، وقطع أواصر المحبّة والأخوّة والصَّداقة، وزعزعة شبكة العلاقات الاجتماعيّة في عموم المجتمع؛ لانتشار سوء الظّنّ في الوسط الاجتماعي، وهذا من أكثر ما يضعف روح التّفاعل والتآلف بين أفراد المجتمع الواحد، بل ربّما يعدم التّواصل والتّعاون، ويبرز القلق والفوضى والاضطراب، ويعرقل عملية الانضباط الاجتماعيّ؛ وتلك أخطار لا يستهان بها في جميع نواحي الحياة الاجتماعيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة.

الفصل الأوّل

معنى النّفاق وأسبابه

معنى النّفاق:

النّفاق اصطلاح استحدثه الإسلام، «لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به»[1]، وهو الدّخول في الإسلام من وجه، والخروج من وجه آخر.

والمنافق هو الَّذي يستر كفره، ويظهر إيمانه، يقال: نافق، ينافق، منافقة، ونفاقاً وهو مأخوذ من النافقاء[2]، أحد أنفاق اليربوع السَّبعة[3]، إذا طورد من واحد هرب إلى الآخر، وخرج منه، وهنا تشبيهٌ دقيق لبيان حِيَل المنافق فهو يهيّئ الخطط والحيل الماكرة، والحجج الباطلة؛ ليتذرّع بها حين يُحاصَر ويُحرج عند كشف أكاذيبه وخدعه.

واختلف في سبب هذه التّسمية إلى ثلاثة أقوال:

١- إنّه سُمّي منافقاً؛ لأنَّه يستر كفره، ويغيّبه، فشُبّه بالّذي يدخل النّفق، وهو السَّرَب، يستتر فيه.

---

(١) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٩٨/٥؛ لسان العرب: ٣٥٩/١٠؛ تاج العروس: ٤٦٣/١٣.

(٢) راجع: لسان العرب: ٣٥٩/١٠.

(٣) قال الجوهريّ: «النّافقاء: إحدى جحرة اليربوع يكتمها، ويظهر غيرها، وهو موضع يرقّقه، فإذا أُتِيَ من قبل (القاصعاء) ضرب النّافقاء برأسه فانتفق، أي خرج»، الصّحاح: ١٥٦٠/٤.

٢- إنّه نافَقَ كاليربوع، فشُبّه به؛ لأنّه يخرج من الإيمان من غير الوجه الَّذي دخل فيه.

٣- إنّه سُمّي به لإظهاره غير ما يضمر تشبيهاً باليربوع، فكذلك المنافق ظاهره إيمان، وباطنه كفر(١).

ثمّ إنَّ النّفاق حالة نفسيّة مرضيّة وأخلاقيّة، بل أكبر مرض نفسيّ على وجه الأرض يُنبئ عن جبن صاحبه، إذ لا يستطيع أن يواجه الحقيقة صراحة، وإنّما يحاول أن يتلبّس بها ظاهراً، ويتهرّب منها باختلاق المعاذير الواهية.. ويُعِدّ لذلك أساليب مختلفة مسبقاً؛ ليُخادع بها الوسط الاجتماعيّ أو السّياسيّ الَّذي يعيش فيه، ويتخلّص من مواجهة الحقائق الَّتي تحرجه؛ لعمى قلبه، وفساد نيّته، وخبث سريرته، وسوء ضميره.. وهو يخشى من افتضاح أمره؛ ولهذا نراه يُعِدّ لكلّ سؤال جواباً، ولكلّ إشكالٍ حلاً، ولكلّ محاصرةٍ مهرباً؛ لأنّه موقنٌ أنّه يضمر الشّرّ حقيقةً، ويظهر الخير تزلّفاً وتصنّعاً ورياءً، ويعلم أنَّ مثل هذا الأمر لا بُدَّ من أن ينكشف للنّاس إن آجلاً أو عاجلاً، وحينئذٍ يفتضح أمره، وتنكشف حقيقته، وتهتك أستاره، ويسقط عند من كان يخادعهم، ويفقد قيمته الاجتماعيّة الَّتي سعى من أجلها؛ لينال السّمعة والشُّهرة، وما يستتبعها من مكاسب مادّيّة أو معنويّة.

وعلى كلّ حال، فالنّفاق «صورة للجبن والانزواء، والفزع والهلع،

---

(١) راجع: تاج العروس: ١٣/٤٦٣.

في ساعة الشّدّة؛ والانتفاش وسلاطة اللّسان عند الرَّخاء؛ والشّحّ على الخير والضّنّ ببذل أي جهد فيه، والجزع والاضطراب عند توهّم الخطر من بعيد»[١].

وقد شغل بحث النّفاق، وذمّ المنافقين مساحة واسعة من نصوص القرآن والسنة، فقد تحدّث الكتاب الكريم عن النّفاق والمنافقين في سورة البقرة، وآل عمران، والنّساء، والتّوبة، والأحزاب، والفتح، والحديد وغيرها من السّور، وأفرد له سورة قائمة بذاتها، بل قيل: «قد استغرقت أحداث النّفاق والمنافقين في القرآن الكريم أكثر من ثلاثمائة آية»[٢]، وهذا يدلّ على خطورة هذا المرض العضال والصّفة القبيحة على حركة الرّسالة.

ويمكن القول: إنَّ ما تعرَّض له الإسلام من مخاطر وأزمات منذ انطلاقته في الجزيرة العربية وإلى اليوم أضعاف ما تعرّض له من الكافرين والمشركين بكثير، وصدق ابن حزم حين قال بعد أن أورد صفة المنافق ومنها الكذب: «ما هلكت الدول ولا هلكت الممالك، ولا سفكت الدّماء ظلماً، ولا هتكت الأستار بغير النّمائم والكذب»[٣].

ومن هنا يتّضح لنا أنَّ خطر النّفاق أشدُّ من خطر الكفر والشّرك على الإسلام والمسلمين، بل على الأمم والشُّعوب؛ لأنَّ الكافر عدوٌّ

(١) في ظلال القرآن: ٥٥٦/٦.

(٢) لغة المنافقين في القرآن: ١٣.

(٣) رسائل ابن حزم الأندلسيّ: ١٧٥/١-١٧٦.

صريحٌ يمكن مقاومته والتّغلّب عليه، وأمّا المنافق فهو العدوّ الدّاخليّ الَّذي ينخر في كيان الأُمّة من داخلها، فهو عدوٌّ بثوب صديق، يحابيك ظاهراً، ويضمر لك العداء باطناً، ويُعدّ العدّة لِيَنقَضّ عليك حينما تسنح له الفرص، ولهذا قيل: «إنَّ خائناً واحداً في الحميّة(١) أشدّ خطراً من ألف عدوّ في الخارج»(٢).

وتأسيساً على ذلك لا بُدَّ من دراسة هذه الظّاهرة من حيث أسبابها، وعللها، وصفات المنافقين، وأساليبهم، وأساليب التّحرّز من كيدهم وخدعهم وغدرهم.

أسباب النّفاق وعلله:

في نفس الإنسان طموحات واسعة يتطلّع من خلالها إلى الرّقيّ والتّقدّم والظّهور بمظهر الكمال والسّموّ الإنسانيّ..

إلا أنَّ الوصول إلى تلك الأهداف يختلف باختلاف الفهم والوعي لحقيقة الكمال، فمن يرى الكمال في جمع الثَّروة الواسعة والمال الكثير تراه يقصر جهده فيه، ومن يرى الكمال في العلم والمعرفة يثابر ويجدّ ليله ونهاره لكسب المعرفة، وهكذا من يرى الكمال في التّسلّط والحكم وغير ذلك من الأهداف.

وتختلف أساليب تحقيق الأهداف المنشودة من فرد إلى فرد،

---

(١) المكان الَّذي يحتمي به الإنسان من الأعداء.

(٢) عقيدة المسيح الدّجّال: ٤٨، وقد نقله من تفسير متّى: ٢/٣١٩.

ومن جماعة إلى أخرى؛ فمن كان يتّسم بعلوّ الهمّة، وقوّة العزيمة، ونقاء الضَّمير، وصفاء السَّريرة، والهدفيّة الشَّريفة البنّاءة تراه يسلك المسالك الشَّريفة الواضحة النَّيِّرة في تحقيق أهدافه، فإن حقَّقَ ما يصبو إليه اطمأنَّ وركن إليه، وإن لم يتوصّل لا يسقط في بؤرة (المكيافيلية) المنحطّة؛ لأنَّ شرف الوسيلة من شرف الغاية، والهدف والعكس صحيح.

والمنافق كغيره من النّاس يتطلّع إلى الوصول إلى غايات معلومة إليه، إلا أنَّه لما كان هابط الهمّة، وواهي العزيمة، وجبان القلب، وخبيث السَّريرة، وسيّئ النّيّة تراه يسلك الأساليب الخفية القذرة-الَّتي يأبى شرف الإنسانيّة عن التّلوّث فيها، ولو درَّت عليه كل خزائن الأرض- لتحقيق أهدافه... فهو يتّسم بالغموض والكتمان والسّرّيّة، يُظهر عكس ما يبطن، يبدي الصّلاح، ويخفي الفساد، ويبتدع الأساليب الخسيسة كالخداع، والغدر، والمكر، والتّحايل، والدّهاء، ويبتدع شتى ضروب الحيل؛ ليحقّق مآربه بسرّيّة تامّة عن أعين الآخرين... وعلة ذلك أنَّه لا يمتلك الشَّجاعة الكافية، والصَّراحة التّامّة، فلا يستطيع أن يواجه الحقيقة؛ لأنَّ أهدافه دنيئة... والأنكى من ذلك أنه يعدّ هذه الأساليب ذكاء ودهاء، ويتصوّر أنَّها قدرة فائقة يتغلّب بها على خصومه.

إذن السَّبب الرَّئيس للنّفاق هو رذالة النَّفس وحقارتها وجبنها، وهبوط همّتها، وفساد النّيّة، وخَور العزيمة عن مواجهة الآخرين بصراحة، ومنبع ذلك هو الأمراض النَّفسيّة النّاتجة عن سوء التربية، أو من

أدران الذُّنوب، وسوء الأخلاق، أو فساد المحيط الاجتماعي... فإن النَّفس تمرض كما يمرض الجسد، ولكن أمراض النَّفس أصعب وأعسر؛ لأنَّها مخفيّة قد لا يشعر بها الإنسان، وأهمّ هذه الأمراض الحسد، والتّكبّر، والطمع، والجشع، ومحاولة الاستحواذ على الآخرين، والخضوع لتسويلات النَّفس الأمّارة بالسّوء... فأنت لا تجد إنساناً يتمتّع بصحّة نفسيّة جيّدة يمكن أن يسلك مسالك النّفاق أبداً؛ لأنَّ النَّفس السَّليمة من تلك الأمراض تأبى أن تنحدر إلى بؤر النّفاق.

ومن أسباب النّفاق اعتناق المبادئ الفاسدة الَّتي تبرّر الوسائل الخسيسة للوصول إلى الأهداف النبيلة، ولا سيّما الأهداف السّياسيّة التّسلّطيّة، فكثير من العقائد والمبادئ والمذاهب الفاسدة الَّتي ابتدعها البشر تبرّر لمعتنقيها سلوك أحطّ الطرق للوصول إلى أسمى المطالب، وخير شاهد على ذلك نظرية (مكيافيلي) الَّتي تبرّر أخسّ الوسائل؛ لتحقيق المراد حيث جاء فيها:

«إنّه من الخير لك أن تتظاهر بالتَّقوى، والأمانة، وحبّ الإنسانيّة، والدّين، والإخلاص، وأن تكون في الواقع كذلك، ولا ينبغي أن تكون منتبهاً بحيث إذا اضطررت للتّحوّل إلى الصّفات الأخرى كان ذلك بدون مشقّة».

وما نراه في عالمنا اليوم من أساليب سياسيّة تتّسم بالكذب والخداع والغدر والتَّبرير واللّفّ والدّوران؛ لأجل السَّيطرة، وامتصاص

خيرات الشُّعوب مع إبراز الوجه النّاصع والادّعاءات الجوفاء الَّتي تخفي وراءها أهدافاً دنيئة إلا صورة واضحة من صور النّفاق السياسي...

فعلى سبيل المثال: ترى كل طغاة العصور عندما يحتلّون بلداً معيّناً يبرزون الوجه النّيّر، ويطرحون الوعود الخلابة والمصطلحات البراقة كالحرّيّة، والدّيمقراطيّة، والتّقدّم، والازدهار، وتحرير الشّعوب من نير الظالمين، فإذا ما تسلَّطوا وأحكموا قبضتهم على ذلك البلد قلبوا له ظهر المجَنّ، وما إعلان نابليون حين احتلال مصر بأنَّه جاء محرّراً، ومنقذاً للإسلام من أيدي المماليك، إلا صورة من صور النّفاق السياسي، بل لم يكتفِ بذلك حتّى ادّعى بأنَّه اعتنق الإسلام، وأنَّه يعدّ الإسلام مبدأً سماويّاً عظيماً.

وأخبث أساليب النّفاق اليوم طرح المصطلحات المزخرفة الخادعة، وأقرب مثل لذلك مصطلح (الاستعمار) الَّذي يعطي معنى (الإعمار) كما استعملها القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿**هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا**﴾[1]، فما من دولة استعماريّة دخلت بلداً إلا وكالت له الوعود المعسولة، وواصلت الوعود للنّاس بإنشاء جنّة الله على الأرض.

وهكذا طُرِحَت مصطلحات ثقافيّة في عصر الاستكبار حتّى أصبحت متداولةً تتناقلها وسائل الإعلام على مختلف الأصعدة حتّى

(١) هود: ٦١.

ألفتها الأسماع، واعتادتها النُّفوس، ولم تعد تقرأ ما وراءها من خطط تحاك في دهاليز السّياسة، حتى أصبحنا نرى ونسمع في كلّ يوم العشرات من تلك الادّعاءات والدّعايات الخلابة كالحداثة، والعصريّة، والتقدّم، والحرّيّة، والازدهار، وتحرير الشُّعوب، والمطالبة بحقوق المرأة والعمل على إنقاذها، والمحافظة على حقوق الإنسان واحترامها، وتوازن القوى، ونشر الدّيمقراطيّة والعدالة، ومحاربة الرّجعيّة والتّخلّف الفكريّ والاقتصاديّ والسّياسيّ، ومحاربة الإرهاب... وهلمّ جرّا من مصطلحات لها أوّل وليس لها آخر، ويبتدع المزيد منها كلّما اقتضت الحاجة إليها.

كل ذلك يطرح بعد أن يطبخ على نار هادئة في ظلمات كواليس الغدر والمكر والدّهاء، وتُمهّد له الأجواء المناسبة، والمناخات الملائمة حتّى يألفها النّاس، ويعتادوها، وتصبح جزءً من ثقافتهم، فلا يشعرون بغربتها عن دينهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، وأعرافهم، وتلك هي عمليّة التَّطويع والتَّطبيع الَّتي تتمّ بتخطيط خفيّ محكم، ونفسٍ طويلٍ؛ لتحقيق أهداف بعيدة المدى تستهدف العمق النّفسيّ والفكريّ والأخلاقيّ؛ لكي لا تثار حفيظة الشُّعوب المحتلّة الَّتي يُراد السَّيطرة عليها سواء على المستوى الإعلاميّ أو المستوى العسكريّ... فـ«أصحاب معسكر النّفاق هم الّذين يعملون على تقطيع الأُمّة، وتصدير الطّاعون إلى كلّ وحدة صنف، وهم الّذين يستوردون ما ترقص عليه القردة»[١].

(١) عقيدة المسيح الدّجّال: ١٨٨.

والأعجب من ذلك أن يُخرج ذلك بإخراج فنّيّ من دهاليز السّياسة الَّتي تحكمها المصالح المجرّدة عن القيم الإنسانيّة والأخلاقيّة... لأنَّ السّياسيّ المحنَّك عندهم من يحسن المراوغة، والخداع، والكرّ، والفرّ، والغدر كما أكَّدوا ذلك بقولهم: «القائد الدّبلوماسيّ: قائد يمتاز بالمرونة، سعادته في أن يتلاعب بالأفراد والمواقف، مظهره لا يعكس باطنه، ولغته لا تعبّر عن أفكاره، بعيد النَّظر، واقعيّ وعمليّ لا يتردّد في أن يتعامل مع عدوّ الأمس، وأن يضحّي بصديق اليوم»(١).

وهنا يكمن الخطر عندما يصبح النّفاق منهجاً فكريّاً سياسيّاً يحاول الاستحواذ على مقدّرات الأُمَّة، وتفتيت وحدتها بأساليب مختلفة أهونها إثارة الفتن هنا وهناك، ونشر الإشاعات، والأوهام؛ لبلبلة الأفكار، وخلخلة الوضع الاجتماعيّ من خلال عمليات التَّخريب، ودسّ العملاء والجواسيس؛ لنشر الأفكار الهدّامة، وطرح مصطلحات جديدة جذّابة ظاهرها توحي بالخير والصَّلاح، وتخفي بين طيّاتها أخبث النَّوايا، وأقذر الغايات، وأحطّ الدوافع وهكذا...

وربما توصلوا إلى أهدافهم باستعمال الشّعارات الدّينيّة من خلال التَّبشير الدّينيّ الَّذي كان المقدّمة الأولى لاستعمار البلاد؛ فإنّ ما يسمّى «بالمبشّرين المسيحيّين كانوا في الحقيقة طلائع الاستعمار؛ أي: إنَّهم كانوا يمهّدون الطَّريق لدخول الاستعمار إلى البلاد لاستعمارها، فكانوا

---

(١) الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ: ٣١٥.

يدخلون باسم التَّبشير بالدّين المسيحيّ، فيشغلون النّاس بأوصاف عيسى المسيح وأمّه مريم العذراء عليهما السلام، وبعد مدة كان النّاس يحسّون أنَّهم أخذوا يفقدون ثرواتهم المادّيّة تحت ستار الثّروة الرّوحيّة، يقول أحد الأفارقة: يوم أن وطئت أقدام الأوربيّين بلادنا، كُنّا نملك الأرض، وكانوا يملكون الإنجيل، ولكن بعد مضي ٤٠- ٥٠ سنة رأينا إنجيلهم في أيدينا، وأرضنا في أيديهم، ذلكم هو النّفاق»[١].

وأشار الشهيد مطهري قدس سره إلى نكتة جميلة، وهي أن النّفاق من خصائص الإنسان دون غيره من الحيوانات باستثناء القليل منها كالثَّعلب والقطّ.

قال قدس سره: «... ولكن ما من حيوان بقادرٍ على التّصنّع مثل الإنسان، الَّذي يسبغ على تصنّعه ألواناً من التَّعابير الأدبيّة، كالمخاتلة، والمخادعة، والمداهنة، وكلّها ضروبٌ من النّفاق، أو يقال: إنَّ فلاناً يشارك الذّئب طعامه، ويشارك الراعي بكاءه...! إنّنا نرى أنّه.. كلّما تقدَّم الإنسان في مضمار التّمدّن، ازدادت قدرته على النّفاق، فلم يكن الإنسان قبل ألف سنة يعرف من النّفاق عُشر معشار ما يعرفه اليوم»[٢].

(١) علوم القرآن (التعرف على القرآن): ١٢٢/١.

(٢) المصدر نفسه: ١٢١/١.

الفصل الثّاني

دعائم النّفاق

في نفس الإنسان أهواء وغرائز تحرّكه، وربما تسيطر عليه، بل تستحوذ عليه، فلا تدعه يبصر غير ما يروم إشباعه لتلك الغرائز بأيّ وسيلة مهما كانت قذرة.

والنّفاق إحدى وسائل إشباع تلك الحالة النّفسيّة المنحطّة، ومنها تتشعب شعب كثيرة حتّى يمكن القول: إنَّ جميع الرَّذائل النَّفسيّة، والأخلاقيّة، والسّياسيّة، والاجتماعيّة، وجميع القبائح السّلوكيّة فكريّة أو أخلاقية تجتمع في المنافق... وما من رذيلة نفسية إلا وتجد لها جذراً نفاقياً؛ لأنَّ «النّفاق عنصر أساسي في تركيب كثير من الجرائم الخلقية الَّتي تتحرّك كالسوس في المجتمع كالغيبة والنَّميمة والوشاية وشهادة الزّور».

وأدقّ بيانٍ لحقيقة النّفاق وتشعّباته ودعائمه ما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث دقيق، حدَّد فيه دعائم النّفاق وأوضح فيه سمات المنافق والوسائل الَّتي يتّبعها؛ لتحقيق أهدافه، ومن خلال نظرة تأمّليّة سريعة لهذا النّصّ تتجلّى لنا جذور النّفاق وتفريعاته الَّتي بلغت عشرون رذيلة نفسيّةً، كلّ واحدة منها كافيةٌ لمسخ حقيقة الإنسان

وارتكاسه في أحطّ دركات الضَّلال والإضلال...

قال عليه السلام: «وَالنِّفَاقُ عَلَى أَرْبَعِ دَعَائِمَ: عَلَى الْهَوَى، والْهُوَيْنَا، والْحَفِيظَة، والطَّمَعِ.

فَالْهوَى عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْبَغْيِ والْعُدْوَانِ والشَّهْوَة والطُّغْيَانِ؛ فَمَنْ بَغَى كَثُرَتْ غَوَائِلُهُ، وتُخُلِّيَ مِنْهُ، وقُصِرَ عَلَيْهِ، ومَن اعْتَدَى لَمْ يُؤْمَنْ بَوَائِقُه، ولَمْ يَسْلَمْ قَلْبُه، ولَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ، ومَنْ لَمْ يَعْذِلْ نَفْسَهُ فِي الشَّهَوَاتِ خَاضَ فِي الْخَبِيثَاتِ، ومَنْ طَغَى ضَلَّ عَلَى عَمْدٍ بِلا حُجَّةٍ.

وَالْهُوَيْنَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْغِرَّةِ والأَمَلِ والْهَيْبَةِ والْمُمَاطَلَةِ، وذَلِكَ بِأَنَّ الْهَيْبَةَ تَرُدُّ عَنِ الْحَقِّ، والْمُمَاطَلَةَ تُفَرِّطُ فِي الْعَمَلِ حَتَّى يَقْدَمَ عَلَيْهِ الأَجَلُ، ولَوْلا الأَمَلُ عَلِمَ الإِنْسَانُ حَسَبَ مَا هُوَ فِيه، ولَوْ عَلِمَ حَسَبَ مَا هُوَ فِيه مَاتَ خُفَاتاً[١] مِنَ الْهَوْلِ والْوَجَلِ، والْغِرَّةَ تُقْصِرُ بِالْمَرْءِ عَنِ الْعَمَلِ.

والْحَفِيظَةُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْكِبْرِ والْفَخْرِ والْحَمِيَّةِ والْعَصَبِيَّةِ؛ فَمَنِ اسْتَكْبَرَ أَدْبَرَ عَنِ الْحَقِّ، ومَنْ فَخَرَ فَجَرَ، ومَنْ حَمِيَ أَصَرَّ عَلَى الذُّنُوبِ، ومَنْ أَخَذَتْه الْعَصَبِيَّةُ جَارَ، فَبِئْسَ الأَمْرُ أَمْرٌ بَيْنَ إِدْبَارٍ وفُجُورٍ وإِصْرَارٍ وجَوْرٍ عَلَى الصِّرَاطِ.

---

(١) الخُفات: الموت فجأة.

وَالطَّمَعُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: الْفَرَحِ والْمَرَحِ واللَّجَاجَةِ والتَّكَاثُرِ؛ فَالْفَرَحُ مَكْرُوه عِنْدَ الله، والْمَرَحُ خُيَلاءُ، واللَّجَاجَةُ بَلاءٌ لِمَنِ اضْطَرَّتْه إِلَى حَمْلِ الآثَامِ، والتَّكَاثُرُ لَهْوٌ ولَعِبٌ وشُغُلٌ واسْتِبْدَالُ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ.

فَذَلِكَ النِّفَاقُ ودَعَائِمُه وشُعَبُه، وَالله قَاهِرٌ فَوْقَ عِبَادِه تَعَالَى ذِكْرُه وجَلَّ وَجْهُه، وأَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَه، وانْبَسَطَتْ يَدَاه ووَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُه...»(١).

لنقف عند مفردات النّصّ الشَّريف؛ لتتّضح لنا أبعاد النّفاق وآثاره المدمّرة الّتي يتركها على الإنسانيّة، فقال عليه السلام: «والنّفاق»: وهي تلك الحالة المرضيّة الّتي تتمخّض عنها كلّ أمراض القلوب والنُّفوس، وتتمثّل في إظهار الإيمان، وإبطان الكفر، والتّظاهر بالصَّلاح، وإخفاء الفساد، وادّعاء الحق، وإضمار الباطل؛ وبعبارة أخرى: كلّ ازدواجيّة بين الظّاهر والباطن، وتباين بين القول والفعل والسلوك والمعتقد هو نفاق، إلا بعض الحالات الّتي تتعرّض فيها حياة الإنسان إلى مخاطر فوق طاقته؛ لأنَّ مَبنى كلمة (النّفاق) لغةً قائمٌ على التّستّر، والتّخفّي، والمخادعة، والاختلاف، والتّباين بين السّرّ والعلانية، وبين الظاهر والباطن، بل المدخل والمخرج.

ثمّ وضّح عليه السلام الأسس الّتي يتسرّب منها النّفاق، ويتمركز في

---

(١) الكافي: ٤/١٥٧-١٥٩، ح/٢٨٦٧.

النَّفس، وهي عبارة عن ميول طبيعيّة في النَّفس تنبعث منها، وفيها؛ لتحقّق بعض حاجاتها النَّفسيّة، وتخرجها عن سيطرة العقل والشّرع، وأوّل هذه الأسس هو:

الدَّعامة الأولى: الهوى:

«الهوى ميل النَّفس إلى الشَّهوة. ويُقال ذلك للنَّفس المائلة إلى الشَّهوة، وقيل سُمّي بذلك لأنَّه يَهْوي بصاحبه في الدُّنيا إلى كلّ داهية، وفي الآخرة إلى الهاوية»[١].

فالهوى سقوط من علوّ إلى سفل؛ لأنَّه يخرج الإنسان عن الحدود العقليّة والشَّرعيّة، ويسلّمه للأوهام والخيالات الَّتي لا تقف عند حدّ، وتوقعه في أفظع الجرائم، وتركسه في أقذر المستنقعات... وهو من أقوى العوامل الَّتي تصدّ الإنسان عن سلوك سبيل الحق، وتنسيه الآخرة، وتلبسه سرابيل النّفاق بأبشع صوره، وإلى هذا أشار القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة كما في قوله تعالى:

﴿فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً﴾[٢].

﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣].

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٧١٧.

(٢) النّساء: ١٣٥.

(٣) ص: ٢٦.

﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾[١].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾[٢].

كما استفاضت الأحاديث الشّريفة في التَّحذير من اتّباع الهوى، نذكر منها:

عن أمير المؤمنين عليه السلام: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ: اتِّبَاعُ الْهَوَى وطُولُ الأَمَلِ»[٣].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «احْذَرُوا أَهْوَاءَكُمْ كَمَا تَحْذَرُونَ أَعْدَاءَكُمْ، فَلَيْسَ شَيْءٌ أَعْدى لِلرِّجَالِ مِنِ اتِّبَاعِ أَهْوَائِهِمْ، وَحَصَائِدِ أَلْسِنَتِهِمْ»[٤].

وعنه عليه السلام: «لا تَدَعِ النَّفْسَ وَهَوَاهَا؛ فَإِنَّ هَوَاهَا في رَدَاهَا»[٥].

فلنقف على الشُّعَب-الَّتي ذكرها عليه السلام-المتفرّعة من الأهواء، وما يترتّب عليها من آثار خطيرة، وهي دليل على خطورة اتّباع الهوى، مُبيّناً ذلك بدقّة متناهية قال عليه السلام: «**فَالْهَوَى عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: عَلَى الْبَغْيِ...**».

البغي: هو الظُّلم، والأصل فيه مجاوزة الحدود العقليّة والشّرعيّة،

---

(١) الفرقان: ٤٣.

(٢) النّازعات: ٤٠-٤١.

(٣) نهج البلاغة: ٨٤ خطبة: ٢٨.

(٤) الكافي: ٣٤/٤، ح/٢٦٧٣.

(٥) المصدر نفسه: ٣٦/٤، ح/٢٦٧٦.

والسَّعي للفساد، والعدول عن الصّراط المستقيم، والفئة الباغية الخارجة عن طاعة الإمام[١]؛ فكلٌّ تجاوز عن حقوق الإنسانيّة، وظلم الآخرين والاستعلاء عليهم هو بغي.

وقد أوجزه الرّاغب الأصفهانيّ بقوله: «البَغْي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحرّى، تجاوزه أو لم يتجاوزه، فتارة يُعْتَبَرُ في القَدْر الَّذي هو الكمّيّة، وتارة يُعْتَبَرُ في الوصف الَّذي هو الكيفيّة، يقال: بَغَيْتَ الشّيء: إذا طلبتَ أكثر ما يجب، وابْتَغَيْتُ كذلك، قال عزّ وجلّ: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾[٣]»[٤].

ثمَّ أوضح عليه السلام خطورة البغي، وما يتمخّض عنه من إفرازات، نذكر منها أنَّه يسلب النّعمة، ويهلك الفرد والمجتمع[٥]...

وللبغي أخطار ذكرتها أحاديث السّنّة الشّريفة، قال عليه السلام: «فَمَنْ بَغَى كَثُرَتْ غَوَائِلُهُ»، والغوائل: جمع غائلة، وهي من الغلّ، وهي العداوة والحقد الكامن[٦]، وفي التّنزيل: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ﴾[٧].

---

(١) انظر: النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١٤٣/١؛ والمصباح المنير: ٥٧؛ المعجم الوسيط: ٦٤-٦٥.

(٢) التّوبة: ٤٨.

(٣) التّوبة: ٤٧.

(٤) مفردات ألفاظ القرآن: ٨٣

(٥) ينظر: تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٣٤٥.

(٦) ينظر: مجمع البحرين: ٤٣٧/٥.

(٧) الأعراف: ٤٣.

وهنا يشير إلى أنَّ غوائل القلوب كالغشّ، والعداوة، والضّغن، والحقد، والحسد، فإذا امتلأ القلب بهذه الرَّذائل النَّفسيّة، فإنَّه سيقود صاحبه إلى المهالك الَّتي لا نجاة منها إلا بالإيمان الصّادق، والتَّوبة النَّصوح، والعمل الصّالح للفوز برحمة الله تعالى، ومن هنا نقول: لا يمكن أن تتحقّق سعادة الإنسان في الدُّنيا والآخرة إلا بنزع هذه الأغلال من القلوب؛ كما جاء في التَّنزيل المبارك: ﴿**وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ**﴾.

فهنا «يصف تعالى في الآيتين حال المتّقين في سعادتهم بدخول الجنّة، اختصّ بالذّكر هذه الأمور من بين نِعَمِ الجنّة على كثرتها؛ فإنَّ العناية باقتضاء من المقام متعلّقة ببيان أنَّهم في سلام وأمن ممّا ابتلى به الغاوون من بطلان السَّعادة وذهاب السّيادة والكرامة، فذكر أنَّهم في أمن من قبل أنفسهم؛ لأنَّ الله نزع ما في صدورهم من غلّ، فلا يهمّ الواحد منهم بصاحبه سوء، بل هم إخوان على سرر متقابلين»(١).

وهكذا تتّضح لنا حالة عذاب الإنسان المقيّد بكلّ هذه الأغلال النّفسيّة، وبذلك يتّضح لنا أسباب المفارقات السّلوكيّة المختلفة في سلوك المنافقين من التلوّن والتّقلّب والقلق والاضطراب والإحساس بالحقارة، وعدم القدرة على التَّمييز بين الحقّ والباطل، حتّى تصبح الحقيقة مُرَّةً قاسيةً عليه، فلا يستطيع أن ينطق بها حتّى لو كانت في

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ١٧٣/١٢.

صالحه ولمنفعته؛ لأنَّ النّفاق يعمي البصيرة ويقلب المقاييس.

ثم قال عليه السلام: «وتُخُلِّيَ مِنْهُ، وقُصِرَ عَلَيْه»، أي تركه، جاء في القاموس المحيط: «خلّى الأمر، وتخلّى منه وعنه، وخالاه: تركه»(١).

وفي شرح أصول الكافي للمازندرانيّ: «كان فاعل (تخلّي) و(قصر) على البناء للمفعول راجع إلى (من) وضمير (منه) راجع إلى البغي، والتّخلّي: التّفرّغ، وفيه إشارة إلى أنَّ الباغي بعد تقريره قوانين البغي ووضعه إيّاها له ناصر في حياته وبعد موته، وعليه وزره، ومثل وزر ناصره إلى يوم القيامة»(٢).

وأظنّ والله العالم أنَّ المراد بها أنَّ الباغي بعد أن يتلوّث، ويرتكس بكلّ هذه القاذورات والأمراض القلبيّة حتّى أصبحت له طبعاً وعادة وسلوكاً يرفع الله تعالى عنه يد العناية والرّعاية والتّوفيق منه تعالى، ويوكله إلى نفسه، ويتركه يتخبّط في ظلمات الوهم والخيالات الفارغة، وهو «جَائِرٌ عَنْ قَصْدِ السَّبِيلِ، سَائِرٌ بِغَيْرِ دَلِيلٍ»(٣).

ولعلَّ هذا هو مدلول قوله تعالى: ﴿**نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾(٤)، وهذا هو تمام الخذلان والضّلال المبين والعذاب الأليم، «وليس من شكّ أنَّ من أوكله الله إلى نفسه لا يجد سبيلاً

(١) القاموس المحيط: ٣٠٤/٤؛ وينظر: لسان العرب: ٢٣٩/١٤.

(٢) شرح أصول الكافي: ٨٣/١٠.

(٣) نهج البلاغة: ١٧٨، خطبة: ١٠٢.

(٤) التّوبة: ٦٧.

إلا الضلال، والجور عن القصد، وهذا المعنى ينسجم مع قوله تعالى: ﴿وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِما كَسَبُوا﴾[١] كلّ الانسجام»[٢].

وليس هناك من ضلال وضياع وعذاب أكبر وأشدّ وأعنف من أن يوكل اللهُ تعالى الإنسانَ إلى نفسه؛ لأنّه يقطع ارتباط الإنسان برعاية تعالى وعنايته ويحرمه من فيوضاته تعالى، وحينئذٍ يصبح كجهاز انقطع عنه التّيّار، فأصبح جسماً وجثة لا حراك ولا روح فيه، وهذه سُنّة الله تعالى في عباده.

وعلى العكس من هذا أنَّ من سلك طريق الهدى بوعي، وصدق، وإخلاص، وخلوص لله تعالى فاز بعناية الله وهدايته وتوفيقه، بل ولايته، أمّا من سلك طريق الضَّلال وارتكس في المعاصي والآثام فإنَّه يكون في معرض حرمان الله له، فلا يهديه سبيل الرَّشاد، وهذا هو عين الضَّلال والإضلال والخذلان والحرمان من الألطاف الإلهيّة؛ ولذا ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام: «وإنَّ منْ أَبْغَض الرِّجَال إلى الله تَعَالَى لَعَبْداً وَكَلَه اللهُ إلى نَفْسه، جَائرٌ عَنْ قَصْد السَّبيل، سَائرٌ بغَيْر دَليل، إنْ دُعيَ إلى حَرْث الدُّنْيا عَملَ، وإنْ دُعيَ إلى حَرْث الآخرَة كَسلَ، كَأَنَّ مَا عَملَ لَه وَاجبٌ عَلَيْه، وكَأَنَّ مَا وَنَى فيه سَاقطٌ عَنْه»[٣].

هذه هي عاقبة الباغي، وإذا تأصَّلت هذه الحالة في نفسه،

---

(١) النّساء: ٨٨.

(٢) التفسير الكاشف: ٢/٤٠٠.

(٣) نهج البلاغة: ١٧٨، خطبة: ١٠٢.

وترسَّخت في قلبه، فإنَّه سيصبح عدوانيّاً متجاوزاً لحدود العقل والشَّرع، وبذلك يقع فيما هو أشدّ وأخطر، وهو الاعتداء على نفسه من حيث لا يعلم، وعلى النّاس، عدواناً مادّيّاً كالظُّلم قتلاً وضرباً واغتصاباً... أو معنويّاً كالحقد والحسد والبهتان والافتراء، وغيرها من أمراض القلوب، وبذلك يصبح عدوانيّاً مصداقاً ومفهوماً لا يأمن أحد شروره.

ولذلك قال عليه السلام: «**وَمَنِ اعْتَدَى لَمْ يُؤْمَنْ بَوَائِقُه**»، والبوائق جمع بائقة، وهي: «الدّاهية والشّرّ، وتقرب منها الغائلة»(١) الَّتي تنطوي على ظلم وغشّ، عن أبي حمزة: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: الْمُؤْمِنُ مَنْ آمَنَ جَارُهُ بَوَائِقَهُ، قُلْتُ: وَمَا بَوَائِقُهُ؟ قَالَ: ظُلْمُهُ وَغَشْمُهُ»(٢).

هذه البوائق والعلامات لها تأثير سلبيّ على الإنسان في نفسه وقلبه؛ ولذا قال عليه السلام: «وَلَمْ يَسْلَمْ قَلْبُهُ» «من الأمراض المُهلكة النّفسانيّة، أو من الميل إلى إيذاء الغير، «وَلَمْ يَمْلِكْ نَفْسَهُ عَنِ الشَّهَوَاتِ» من المعاصي والمقتنيات الَّتي هي مقتضى طباعها؛ لأنَّ زجر النَّفس عنها موقوف على خصلة ربّانيّة وملكة روحانيّة، وهي [نفس المنافق] عارية عنها، «وَمَنْ لَمْ يَعْدِلْ نَفْسَه فِي الشَّهَوَاتِ خَاضَ فِي الْخَبِيثَاتِ» أي الخصال الذَّميمة، والأَفعال الرّدّيّة الَّتي يعود ضررها إليه، وإلى غيره، وذلك ظاهر؛ لأنَّ الجور في الشَّهوات، وترك العدل فيها يوجب الخوض فيما ذكر، «وَمَنْ

---

(١) كتاب الوافي: ٥/٥٩٤.

(٢) الكافي: ٤/٧٦٠، ح/٣٧٦٧، والغشم بمعنى: الظّلم والجور.

طَغَى ضَلَّ عَلَى عَمْد بلا حُجَّة»؛ لأنَّ منشأ الضَّلال هو الطُّغيان لما كان عمداً كان الضلال على عمد، وأمّا أنَّه بلا حجة فهو ظاهر؛ لأنَّ الضّالّ لا حجة له»[١].

الدَّعامة الثّانية: الهوينا:

قال عليه السلام: «**وَالْهُوَيْنَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب...**».

الهوينا لغةً: من (الهون) وهو: «الرّفق واللّين والتّثبّت»[٢].

«والهوينا تصغير الهونا، تأنيث الأهون، وهي: الفتنة الصُّغرى الَّتي تجري إلى الكبرى، والفتن تترتّب كبراها على صغراها، والمؤمن يترك الصُّغرى فضلاً عن الكبرى»[٣].

وقيل: «المراد هنا: التّهاون في أمر الدّين وترك الاهتمام فيه»[٤].

وأكبر الظّنّ أنَّه عليه السلام يشير إلى بعض الحالات الَّتي يتعرّض الإنسان لها بحيث توقعه في اللَّهو، وعدم التوجّه؛ لغفلة قد تنسيه رقابة الله لعباده؛ ولذا قال: «**وَالْهُوَيْنَا عَلَى أَرْبَعِ شُعَب: عَلَى الْغِرَّة والأَمَلِ والْهَيْبَة والْمُمَاطَلَة**»، وهذه الصّفات الأربع حين تصبح طبعاً وعادةً وسلوكاً تُرْكسه في اللَّهو والانشغال عن أوامر الله تعالى ونواهيه، وتستوعب جميع

---

(١) المازندراني، شرح أصول الكافي: ٨٣/١٠.

(٢) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٨٤/٥.

(٣) شرح أصول الكافي: ٨٢/١٠.

(٤) مرآة العقول: ١٥٦/١١.

جونب حياته، لا يفكّر بسواها، وربما إذا انتبه في حالات معينة يحاول أن يبرّرها بمبرّر شرعيّ أو أخلاقيّ، ويُخَرِجها تخريجاً يخدع نفسه به، وهذا هو الأخطر والأشدّ..

ولنتأمل قليلاً في هذه الخلال النّفسيّة..

فـ(الغرّة) بكسر الخاء هي الغفلة، أي غفلة المرء عن دينه وعاقبة أمره، وهي كما أوضح عليه السلام أنّها توقف المرء عن العمل؛ لأنَّ العمل مشروط بالمعرفة، واليقظة، والتذكّر؛ فإذا لم يكن الإنسان عارفاً يقظاً فطناً مستحضراً ما يجب عليه لا يمكن أن يعمل بما أمره الله، وينتهي عما نهاه، ثمّ إنَّ الغفلة من أخطر الأمراض والحالات الَّتي يتعرّض لها الإنسان حتّى تصل إلى حدّ تضعه في مصافّ الأنعام، بل أضلّ منها والعياذ بالله، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ**﴾[١].

إذنَ الغفلةَ تعطّل العقلَ والقلب، وتخدّر الحواس، وتبلّد الشُّعور، ولا أظنُّ أنَّ هناك خطراً يتعرّض له الإنسان أشدّ وأكبر من ذلك، بل عبّرت عنها أحاديث السّنّة الشريفة بعشرات المخاطر الَّتي أشارت إليها، بأنَّها أضرّ الأعداء، وشيمة النّوكى (الحمقى)، وعنوان النّحوس، وتُدْني من البوار[٢].

---

(١) مرآة العقول: ١٥٦/١١.

(٢) ينظر: ميزان الحكمة: ٣٠٢٦/٧-٣٠٣٥.

والشُّعبة الأخرى من شُعَب الهوينا هي (**الأمل**)، والمقصود به طول الأمل الَّذي إذا استغرق فيه الإنسان استوعب حياته كاملة، ولا سيّما طاقته الفكريّة والأخلاقيّة، وجميع جوانبه الأخرى، وأخطر ما فيه أنَّه يُنْسي الآخرة؛ «لأنَّه يوجب شغل الفكر فيما يؤمّله ويرجوه، وفي كيفيّة تحصيله وضبطه بعد حصوله وكيفيّة العمل به، ويورث سهو القلب عما هو أولى به من أمر معاده، ومن ذكر الله، وذكر ما بعد الموت من أحوال الآخرة، ومحو ما تصوَّر منها في الذّهن، وذلك معنى النّسيان لها الموجب للشّقاء الأبديّ فيها»(١).

ولذلك ترى أئمّة الهدى عليهم السلام يتعوّذون بالله، ويسألون أن يكفيهم هذا البلاء المحبوب للنَّفس كما جاء في دعاء الإمام السّجّاد عليه السلام: «**وَاكْفِنا طُولَ الأَمَلِ، وقَصِّرْهُ عَنّا بِصِدْقِ الْعَمَلِ**»(٢).

ومع التَّحذير من الاستغراق في طول الأمل جعل الله الأمل- وليس طوله- وسيلةً لراحة الإنسان واطمئنانه، ولذا قال عليه السلام: «وَلَوْلا الأَمَلُ عَلِمَ الإنْسَانُ حَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ، وَلَوْ عَلِمَ حَسَبَ مَا هُوَ فِيهِ مَاتَ خُفَاتاً مِنَ الْهَوْلِ وَالْوَجَلِ» أي فجأة من الهول والوجل..

وخلاصة الكلام أنَّ طول الأمل إذا استغرق به الإنسان قد يصبح عاملاً فعالاً في سقوطه في بؤرة النّفاق.

---

(١) شرح أصول الكافي: ٣٩٥/١١.

(٢) الصحيفة السجادية الكاملة: ١٥٣، دعاء: ٤٠.

والشّعبة الثّالثة للهوينا هي (**الهيبة**) مصدر هاب، وهي قد تحدث في نفس الإنسان نتيجة الخوف، أو الحذر، أو الاحترام، أو الإكرام، وإذا سيطرت هذه الحالات أو إحداها على الإنسان قد تصيبه الدّهشة والارتباك، فلا يستطيع أن يواجه الباطل بالحقّ؛ ولأجل أن يتجاوز هذه الحال قد يتراجع عمّا آمن به، وأراد الإفصاح عنه من الحق، فيداهن على حساب الحقّ، فيظهر عكس ما يبطن؛ لأجل تجاوز الإحراج، فيقع في مستنقع النّفاق، فلا يستطيع أن يبرز الحقيقة أو يدافع عنها؛ ولذلك قال عليه السلام: «وذلك أنَّ الهيبة تردّ عن الحقّ».

والشُّعبة الرّابعة للهوينا هي (**المماطلة**)، وهي التَّسويف والوعد بالوفاء مرّة بعد أخرى دون تنفيذ ما وعد به، وهنا يقصد به التَّسويف بالالتزام بأحكام الله تعالى، والانتهاء عن نواهيه من خلال الاستجابة لشهوات النَّفس وأهوائها وميولها، والوعد بالتّوبة والالتزام، والمداهنة مع الأهواء؛ والعجب العجاب أنَّ الأعمّ الأغلب يعلم بأنَّ النَّفس «كثيرة العلل، طويلة الأمل»[1]؛ ولأجل الخضوع والاستجابة لنزواتها يستمرّ الإنسان على ذلك حتّى قد تصبح المماطلة والتّسويف عادةً وطبعاً، وهنا يعيش المداهنُ حالتين: له ظاهر حسن، وباطن ملوّث مضطرب، وتنشطر شخصيّته، فيسيء التّصرّف والعمل، فيخرج عن الصّراط السّويّ، وقد يندم على ما وقع فيه، ويعيش القلق، وكأنَّه ينافق مع نفسه، فيعيش الإفراط

(١) انظر الصحيفة السجادية دعاء الشاكين.

حيناً والتَّفريط مرّة أخرى؛ ولذلك قال عليه السلام: «والْمُمَاطَلَةَ تُفَرِّطُ فِي الْعَمَلِ حَتَّى يَقْدَمَ عَلَيْه الأَجَلُ»، وكأنَّه يقول: إنَّ الَّذي تصبح المماطلة عادة عنده يحاول أن يجد لها المبرّرات لحساب أهوائه، وسوف يستمرّ على ذلك إلى أن يحلّ أجله، ويرحل عن الدُّنيا مثقلاً بآثام النّفاق مع الذّات، وتبرير ذلك- والعياذ بالله- لأجل إشباع الشَّهوات النّفسيّة، فتكون النَّتيجة بالتّالي السُّقوط في هوة النّفاق.

هذه هي شُعَب (الهوينا) الأربعة، وكلّها توحي بالتّهاون، والتّراجع، والقلق، والاضطراب، والتّردّد، والتّرجرج، والتّماوج كرمال الصَّحراء الَّتي تنقلها العواصف من مكان إلى آخر، ولا تستقرّ في مكان، وتلك هي حال المنافق في كلّ يوم يظهر بوجه، وفي كلّ حين يتلوَّن بلون، ويتقلّب من حال إلى حال، خداع، وتذبذب، ومكر، وكذب، واحتيال، وتبرير، وقلق، واضطراب...

الدَّعامة الثّالثة: الحفيظة:

والشُّعبة الرَّئيسة الأخرى هي (**الحفيظة**)، وهي لغة الغضب، ويتشعَّب منها، إذا استولت على الإنسان أربع شعب:

أوّلها (**الكبر**)، ولا شكَّ أنَّ الكبر من أسوأ الصّفات، وأقبح الحالات، وهي الَّتي تنبئ عن إحساس بالحقارة، والنَّقص فما تكبّر، أو تجبَّر أحدٌ إلا لشعوره بذلّة يجدها في نفسه، فيحاول أن يسدّ هذا الفراغ

النَّفسيّ، ويتعالى على غيره؛ ليعوّض ما يشعر به من نقص وذلّة وحقارة، وما أروع ما نطق به أمير المؤمنين عليه السلام: «نِفَاقُ الْمَرْءِ مِنْ ذُلٍّ يَجِدُهُ فِي نَفْسِه»[١].

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «مَا مِنْ رَجُلٍ تَكَبَّرَ أَوْ تَجَبَّرَ إلا لِذِلَّةٍ وَجَدَهَا فِي نَفْسِه»[٢]، أي دناءة وخساسة[٣]..

والمقصود بـ(**الكبر**) هنا بطر الحق، وهو أن يجعل ما جعله الله حقّاً من عقائد وأحكام وأخلاق باطلاً، وفي حديث آخر في معنى الكبر عن عبد الأعلى بن أعين قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: إِنَّ أَعْظَمَ الْكِبْرِ غَمْصُ الْخَلْقِ، وَسَفَهُ الْحَقِّ». قَالَ: «قُلْتُ: وَمَا غَمْصُ الْخَلْقِ، وَسَفَهُ الْحَقِّ؟ قَالَ: يَجْهَلُ الْحَقَّ، وَيَطْعَنُ عَلَى أَهْلِه؛ فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ نَازَعَ اللَّهَ- عَزَّ وَجَلَّ- رِدَاءَه»[٤].

وقيل: «هو أن يتجبّر عند الحقّ، فلا يراه حقّاً»، وقيل: «هو أن يتكبّر عن الحقّ، فلا يقبله»[٥].

وخلاصة الكلام: الكبر ينتج النّفاق؛ لأنّه يصد عن الحق كما جاء في النّصّ الشَّريف لأمير المؤمنين عليه السلام: «فَمَنِ اسْتَكْبَرَ أَدْبَرَ عَنِ الْحَقِّ»،

(١) الحديثان في تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٥٨، ح/١٠٤٨٥-١٠٤٨٦.

(٢) الكافي: ٧٦١/٣، ح/٢٥٧٧.

(٣) روضة المتقين في شرح من لا يحضره الفقيه: ١٢٣/١٢.

(٤) الكافي: ٧٥٦/٣، ح/٢٥٦٨.

(٥) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١٣٥/١.

والسّرّ في ذلك أنَّ المستكبر يترفّع على الآخرين ويحتقرهم، ويتعاظم بادّعاء العلوّ والشَّرف والرّفعة، ويبطن في نفسه الذّلّة والحقارة والضّعة والخسّة؛ في الوقت الَّذي يتظاهر بالرّفعة والعلوّ؛ ليسدّ ما يشعر به من نقص يبطنه في داخله، ويعلم بأنَّه متلبّس به، وهذه صورةٌ عجيبةٌ من عجائب المنافقين.

والشّعبة الثانية من شعب الحفيظة هي (**الفخر**)، وهو «ادّعاء العظم والكبر والشَّرف»[1]، والمباهاة بالمكارم والمناقب من حَسب ونَسَب ومنصب ومال وعلم... وغير ذلك[2]، وبالتّالي التَّفاخر هو التَّعاظم والتّعالي على الآخرين، وهو عملٌ مبغوضٌ عقلاً وشرعاً، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّ اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[3]؛ لأنَّ التَّفاخر هذا يخرجه عن حدود العقل والشَّرع؛ بل قد يوقعه في الفجور، فيرتكب المعاصي والذُّنوب الَّتي يتجاوز فيها على حدود الله وأحكامه، وهذا أيضاً عاملٌ من عوامل ارتكاس الإنسان في النّفاق؛ ولذا قال عليه السلام في بيان ذلك: «وَمَنْ فَخَرَ فَجَرَ»، «أي كذب ومال عن الصّدق، أو أذنب ووقع في المعاصي والمحارم، مع كونه معصيةً مستلزمة لمعاصٍ أخر غير محصورة»[4].

---

(١) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٤١٨/٣.

(٢) ينظر: المصباح المنير: ٤٦٤.

(٣) لقمان: ١٨.

(٤) شرح أصول الكافي: ٨٥/١٠.

والشُّعبة الثّالثة من شعب الحفيظة هي (**الحَمِيَّة**)، وهي حال تتولّد من (الأنفة والغيرة) المفرطة الَّتي تدعو إلى المدافعة، والتّعصّب، والمحاماة، وهي من توابع الكبر، والفرق بينها وبين التّعصّب أنَّ الحميّة للنَّفس، والعصبيّة للأقارب، أو الحميّة للأهل، والعصبيّة للأقارب، وقد وصف القرآن الكريم الحماسة لذلك، وتحكم العصبيّة والقوّة، وعدم الانضباط بحميّة الجاهليّة(١)، عندما يكون التّناصر في الحقّ والحميّة المعتدلة لأجله، فهي أمر محمود عليه في جميع أحواله.

والشّعبة الرّابعة من شُعَبِ الحفيظة هي (**العصبيّة**)، وهي حالة إصرار وتزمّت تدعو الرَّجُلَ إلى نصرة عصبته، والتألّب معهم على من يناوئهم، سواء كانوا ظالمين أو مظلومين، وفي الحديث: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَاتَلَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ، وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ»(٢)، وفي حديث آخر عن العصبيّة «الّذي يعين قومه على الظُّلم»(٣).

فالمتعصّب هو الَّذي يعين قومه على غيرهم ظلماً وعدواناً.

والعصبيّة مذمومةٌ عقلاً وشرعاً سواء كانت للقوميّة، أو العشيرة، أو الوطن، وحتّى للدّين والمذهب؛ لأنَّها تعبّر عن تحجُّر عقليّ، وضيق أفق، وجمود فكريّ؛ ولذا قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «مَنْ تَعَصَّبَ أَوْ تُعُصِّبَ

---

(١) قال الأزهريّ: «فلان ذو حميّة إذا كان ذا غضبٍ وأَنَفَةٍ» تهذيب اللّغة: ٢٧٤/٥.

(٢) سنن أبي داود: ٢١٨٠/٤، ح/٥١٢١.

(٣) مسند أبي يعلي: ٤٧٧/١٣.

لَهُ، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَ[(١)] الإِيمَانِ مِنْ عُنُقِه»[(٢)].

وفي حديث آخر عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ عليه السلام قَالَ: «قَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وآله مَنْ كَانَ فِي قَلْبِه حَبَّةٌ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبِيَّةٍ بَعَثَه اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَعْرَابِ الْجَاهِلِيَّةِ»[(٣)].

والمقصود بالعصبيّة هنا الإصرار على مواجهة تيارّ الحقّ؛ لأجل نصر تيّار شخصيّ أو فكريّ أو قوميّ مع بطلانه؛ لكونه شرّاً وظلماً، وليس من العصبيّة أن يحبّ الرَّجلُ قومه؛ فقد سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وآله: «يا رسول الله، أمن العصبيّة أن يحبّ الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبيّة أن يعين الرَّجل قومه على الظُّلم»[(٤)].

وخلاصة القول: إنَّ العصبيّة هي العنصر الأساس في معظم الأمراض النَّفسيّة كالتّكبّر والعجب والتّفاخر والإصرار والعناد والفخر والحقد على البريء، والصّدّ عن الحق؛ والأخطر من ذلك أنَّ العصبيّة هي السَّبب الأصلي لسقوط الإنسان في مستنقع النّفاق الَّذي هو منطلق الانحراف عن الصّراط السّوي؛ ولذا أعطى عليه السلام نتيجة العصبيّة والتّعصّب

---

(١) «الرّبقة في الأصل: عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها تمسكها، فاستعارها للإسلام، يعني ما يشدّ به المسلم نفسه من عرى الاسلام: أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه. وتجمع الربقة على رِبق، مثل كسرة وكسر. ويقال للحبل الذي تكون فيه الربقة: ربق، وتجمع على أرباق ورباق»، النّهاية في غريب الحديث والأثر: ١٩٠/٢.

(٢) الكافي: ٧٥٠/٣، ح/٢٥٥٤.

(٣) المصدر نفسه: ٧٥٠/٣، ح/٢٥٥٥.

(٤) سنن ابن ماجة: ١٣٠٢/٢، ح/٣٩٤٩.

بكلمة غاية في الدّقة والإيجاز، فقال: «وَمَنْ أَخَذَتْه الْعَصَبِيَّةُ جَارَ» أي من سيطرت العصبيّة عليه حاد وانحرف عن الصّراط، وظلم نفسه وظلم غيره، ثم إنَّه عليه السلام بيّن بؤس وشقاء المتلبسين بهذه الأمراض النفسية والأخلاقيّة، قائلاً: «**فَبِئْسَ الأَمْرُ أَمْرٌ بَيْنَ إِدْبَارٍ وفُجُورٍ وإِصْرَارٍ وجَوْرٍ عَلَى الصِّرَاطِ**».

الدَّعامة الرّابعة: الطّمع:

والشّعبة الرّابعة من شعب النّفاق هي (**الطّمع**)، وهو لغة ضد اليأس[1]، وهو يستبطن الأمل والرّجاء، «وأكثر ما يستعمل فيما يقرب حصوله»[2].

ومنبع الطَّمع في النَّفس الإنسانيّة غريزة حبّ التّملّك، وطلب المزيد من كلّ شيء تشعر أنَّه فيه كمالها، وإلى هذا المعنى أشار النّبيّ صلى الله عليه وآله بقوله: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التُّراب»[3].

وفي حديث آخر: «يهرم ابن آدم، ويبقى معه اثنان: الحرص وطول الأمل»[4].

(١) لسان العرب: ٢٣٩/٨.

(٢) المصباح المنير: ٣٧٨.

(٣) روضة الواعظين: ٣٧٧/٢، ح/١٣٧٧.

(٤) إرشاد القلوب: ٣٩/١.

إذن غريزة حبّ التّملّك في تصاعد مع تقادم عمر الإنسان إلا أن تقاوم بالورع والتّقوى، والزّهد في زخارف الدّنيا.

ولعلّ كلّ الانحرافات الّتي تقع في حياة الإنسان نتيجة طمعه المتزايد؛ ولذلك نجد السُّنّة الشَّريفة أسهبت في التَّحذير من الإفراط في الطَّمع؛ لأنَّ مخاطره كبيرة على مستقبل الإنسان في الدُّنيا والآخرة، ونحن نذكر بعض هذه المخاطر كما نصَّت عليه أحاديث أهل بيت العصمة والطَّهارة عليهم السلام؛ فقد جاء فيها أنَّ الطمع يذهب الحكمة من قلوب العلماء فضلاً عن عوام النّاس، وأنَّ قليل الطَّمع يفسد كثير الورع، وأنَّه من أشدّ المفسدات للرّجال، وأنَّه من أخطر المزالق الَّتي لا تثبت عليه أقدام العلماء، وأنَّه أصل الشَّره، والشّقاء ثمرته، وأنَّه من أبرز سمات المنافقين حيث يتوصّلون إلى الطَّمع باليأس، وهو مفتاح الذّلّ، ومُخْتَلس العقل، واختلاف المروءات، وتدنيس العرض، والذّهاب بالعلم، وهو فقر الحاضر، ومنهل الهلكة، ورِقّ مؤبد، وحامله مسترقّ لا طريق له إلى العتق، في الدنيا دناءة، وفي الآخرة ذلٌّ وخزي وعذاب.. هذا غيض من فيض مما ورد من عبارات ونصوص في السّنّة الشّريفة محذّرة من الوقوع في ربقة الطمع واستشعاره، فقد «أزرى بنفسه من استشعر الطَّمع»(١).

ولنرجع إلى حديث أمير المؤمنين عليه السلام موضوع بحثنا؛ لنقف على

---

(١) هذه العبارات مقتطعة من الأحاديث الشّريفة، وللاطّلاع على المزيد ينظر: ميزان الحكمة باب الطمع: ٢٢٩٦/٦-٢٣٠١.

ما يتفرّع مع الطَّمع من حالات نفسية غير محبّذة، ولا مَرْضية: «وَالطَّمَعُ عَلَى أَرْبَعِ شُعَبٍ: الْفَرَحِ والْمَرَحِ واللَّجَاجَةِ والتَّكَاثُرِ».

هذه الحالات الأربعة إذا استحكمت في نفس الإنسان، فسيكون لها آثارٌ سلبيّة على نفس الإنسان، قد تخرجه عن اتّزانه ووقاره، وقد تعطّل تفكيره في عواقب أمره، فلنتأمّل في كلّ منها، ولنرى كيف تؤدّي بالإنسان إلى الوقوع في مهالك النّفاق.

أمّا (**الفرح**) فهو نقيض الحزن وهو السرور، وقيل هو صفة يجدها الفرحان في قلبه، ويحتمل أن معنى الفرح المقصود في هذا الحديث هو البطر، وهو: الطّغيان وشدّة المرح والكبرياء عند حلول النّعمة، ويختلف معناه من حالة إلى أخرى، فبطر النعمة كفرها وعدم شكرها، وبطر الحق إنكاره، وبطر الشيء كرهه من غير أن يكون مستحقّ الكراهة، والأخطر من ذلك أنَّ هذا قد يوقع الإنسان في إنكار أفضال المنعم، أو على الأقلّ نسيانها، وهذا قد يجرّه إلى نسبة النعم الإلهيّة لنفسه، ونسيان المنعم الحقيقيّ عليه، فيسقط في بؤرة العجب، والغرور، والأنانيّة المقيتة فيه، وتَحَكّم الذّاتيّة في فكره وسلوكه كما وقع لقارون حين ذَكَّره قومُه بنعم الله: ﴿**لا تَفْرَحْ إنَّ اللهَ لا يُحبُّ الْفَرحين**﴾، فأجابهم بغرور وإعجاب وتعالٍ وعنجهيّة[1]: ﴿**إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي**﴾[2].

(١) العنهجيّة: هي الكبر والعظمة والجفاء، ينظر المعجم الوسيط: ٦٣٠.

(٢) القصص: ٧٦-٧٨.

وتلك طبيعة الإنسان إذا ملكته النّعم المادّيّة، واستحوذت على عقله وقلبه، نَسيَ المنعم عليه، وتباهى بما تحت يده من مال أو عقار أو سلطان، وتعالى به على الأخرين الّذين لا يملكون ما يملك، ﴿**ثُمَّ إِذا خَوَّلْناه نِعْمَةً مِنَّا قالَ: إِنَّما أُوتِيتُه عَلى عِلْمٍ**﴾[١].

ولعلَّ هذا المعنى هو المقصود بقوله تعالى: ﴿**لا تَفْرَحْ إِنَّ الله لا يُحبُّ الْفَرِحينَ**﴾، قال الزّجّاج: «ولا تفرح ههنا- والله أعلم- أي لا تفرح بكثرة المال في الدُّنيا؛ لأنَّ الّذي يفرح بالمال ويصرفه في غير أمر الآخرة مذمومٌ فيه»[٢].

قال ابن سيده: «وقيل: لا تَفْرَحْ، لا تأشَرْ. والمعنَيان مُتَقارِبان؛ لأنَّه إذا سُرَّ ربما أشرَ»[٣].

ويؤيّد هذا المعنى الحديث الوارد عن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «أَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى مُوسى عليه السلام: يَا مُوسى، لا تَفْرَحْ بكَثْرَة الْمَال، وَلا تَدَعْ ذكْرِي عَلى كُلِّ حَالٍ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الْمَالِ تُنْسِي الذُّنُوبَ، وَإِنَّ تَرْكَ ذِكْرِي يُقْسِي الْقُلُوبَ»[٤].

ومن هنا نقول: أنَّ المؤمن الحقيقيّ بالله واليوم الآخر يفرح بما رزقه الله من معرفة تقرّبه إليه، وبما عمل من صالحات، وبما قدم من

---

(١) الزّمر: ٤٩.

(٢) معاني القرآن وإعرابه: ١٥٥/٤.

(٣) المحكم والمحيط الأعظم: ٣١١/٣.

(٤) الكافي: ٣٦٣/٤، ح/٣١٩١.

حسنات، وبما طبق على نفسه من أحكام الله، وبما تَخَلَّق به من أخلاق الله، فهذا هو الفرح المحمود الَّذي يُحيي به حقّاً، ويميت به باطلاً، وإلى هذا المعنى أشار رسول الله ﷺ في جوابه لرجل سأله عن حقيقة الإيمان بقوله: «إِذَا سَرَّتْكَ حَسَنَتُكَ، وَسَاءَتْكَ سَيِّئَتُكَ فَأَنْتَ مُؤْمِنٌ»(١).

وأمّا الفرح المذموم فهو عكس ذلك، أي الفرح بزخارف الدُّنيا وإغراءاتها، والانخداع ببريقها، واللّهاث وراء آمالها، وما أروع وصية أمير المؤمنين عليه السلام في كتابه لابن عبّاس: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَفْرَحُ بالشَّيْءِ الَّذي لَمْ يَكُنْ لِيَفُوتَهُ، ويَحْزَنُ عَلَى الشَّيْءِ الَّذي لَمْ يَكُنْ لِيُصيبَهُ، فَلا يَكُنْ أَفْضَلَ مَا نِلْتَ في نَفْسكَ منْ دُنْيَاكَ بلُوغُ لَذَّة أَوْ شفاءُ غَيْظ، ولَكنْ إطْفَاءُ بَاطل أو إحْيَاءُ حَقّ. ولْيَكُنْ سُرُورُكَ بمَا قَدَّمْتَ، وأَسَفُكَ عَلَى مَا خَلَّفْتَ، وهَمُّكَ فيمَا بَعْدَ الْمَوْت»(٢).

وأمّا (**المرح**)، فهو «شدَّة الفَرَحِ والنّشاط حتّى يجاوزَ قَدْرَه؛ وقد أَمْرَحَه غيره، والاسم المراحُ، بكسر الميم؛ وقيل: المَرَحُ التَّبختر والاختيالُ. وفي التَّنزيل: ﴿**ولا تَمْشِ في الأَرض مَرَحاً**﴾ أَي متبختراً مختالاً؛ وقيل: المَرَحُ الأَشَرُ والبَطَرُ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿**بمَا كُنْتُمْ تَفْرَحونَ في الأَرْضِ بغَيْرِ الْحَقِّ وبمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ**﴾»(٣).

وفي مَجمَع البيان حَول الآية الأخيرة: «قَيَّد الفرح، وأطلق المرح؛

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٤٩٧/٣٦، ح/٢٢١٦٦.

(٢) نهج البلاغة: ٤٧٧، كتاب: ٦٦.

(٣) لسان العرب: ٥٩١/٢.

لأنَّ الفرح قد يكون بحقّ فيحمد عليه، وقد يكون بالباطل فيذمّ عليه. والمرح لا يكون إلا باطلاً»[١].

وأمّا (**اللّجاجة**) لغة من «(لَجَّ) في الأمر لجّاً من باب تعب، ولجاجة: إذا لازم الشيء وواظبه، من باب ضرب لغة، فهو لجوج ولجوجة والهاء للمبالغة»[٢].

وقيل: اللّجاجة الإلحاح والإصرار، وطلب الشَّيء بشدّة وعناد لأمر الخصام تعصّباً لا للحقّ والتّمادي في الخصومة؛ «وذلك أنّ الإنسان قد يطلب شيئاً والرّأي الحقّ هو التأنّي في طلبه والتّثبّت فيه. فيحمله طبعه على اللّجاجة فيه حتّى يكون ذلك سبباً لفواته»[٣].

وقال ابن أبي الحديد: اللّجاجة «هو خُلُقٌ يتركّب من خلقين: أحدهما الكبر، والآخر الجهل بعواقب الأمور، وأكثر ما يعتري الولاة لما يأخذهم من العزّة بالإثم»[٤].

وفي أحاديث أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام كثير من الذّمّ لهذه الصّفة بأشد العبارات، ولا سيّما على لسان أمير المؤمنين عليه السلام، نقتطف بعض العبارات الَّتي وردت في ذمّ هذه الخليقة السّيّئة؛ لنعرف مدى ضررها فهي شؤمٌ، وبذرٌ للشّرّ وجماعه، وسجيّة الهلكى، وأكثر الأشياء

(١) مجمع البيان: ٤٥٧/٨.

(٢) مجمع البحرين: ٣٢٧/٢.

(٣) ابن ميثم البحرانيّ، شرح نهج البلاغة: ٣٣٩/٥.

(٤) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٤١٢/١٨.

مضرّة في العاجل والآجل، وهي بئس الشّيم؛ لأنَّ اللّجاجة تسلّ الرّأي[١]، وتفسده، وتُشين النَّفس، وتنتج الحرب وتثيرها، وتوغر القلوب، وتعرض المرء للبلاء، وتورثه ما لا حاجة[٢]...

هذه بعض المفاسد والأضرار لخَليقة اللّجاجة، ولا شكَّ أنَّ الإنسان حين يسقط في بؤرة هذه المفاسد سوف ينتهي به المطاف إلى السُّقوط في مستنقع النّفاق والعياذ بالله.

والشُّعبة الرّابعة من شعب الطّمع هي(**التَّكاثر**)، وهي لغة التّفاخر بكثرة المناقب، يقال: تكاثر القوم إذا تَعادَوا ما لهم من المناقب[٣].

وإنّما تنتج هذه الخلّةُ النّفاقَ؛ لأنَّ المتكاثر حين يظهر مناقبه وكراماته قد يستعلي ويستكبر على الآخرين من حيث يشعر أو لا يشعر، ويخفي ما يَعْلمه في نفسه من نواقص وعيوب وسيّئات، فيصبح ظاهرُهُ جميلاً، وباطنُهُ قبيحاً، أو قُلْ: يظهر الجمال، ويبطن القبح، وهذه صورة من صور النّفاق.

ومنطق التَّكاثر والتَّفاخر ينبع من حالة نفسيّة يعيشها المتكاثر لشعوره بذلّة وحقارة داخليّة يحاول أن يسدّها لشعوره بالضّعف والنَّقص،

(١) «أي تأخذه وتذهب به، وذلك أنَّ الإنسان قد يلجّ في طلب الشّيء مع أنَّ الرّأي في تحصيله التّأنّي، فيكون اللّجاج فيه سبباً مفوتاً للرّأي الأصلح فيه، وهو مفوت للمطلوب المرغوب غالباً»، مجمع البحرين: ٣٢٧/٢.

(٢) انظر: تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٦٣.

(٣) مجمع البيان: ٤٣١/١٠.

يقول الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «النِّفَاقُ مِنْ أَثَافِي الذُّلّ[(١)]»[(٢)].

ثمّ إنّ التّكاثر والتّفاخر والمباهاة سواء كان في الجوانب المادّيّة أو المعنويّة، وهو ينبئ عن الجهل، وعدم اليقين والرسوخ العلمي في أصول العقيدة الإلهيّة كما في قوله تعالى: ﴿**كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ**﴾[(٣)].

ولنعم ما وصف الفخر الرّازيّ في تفسيره: «في الآية تهديدٌ عظيمٌ للعلماء؛ فإنّها دلّت على أنّه لو حصل اليقين بما في التّكاثر والتّفاخر من الآفة لتركوا التّكاثر والتّفاخر، وهذا يقتضي أن من لم يترك التّكاثر والتّفاخر لا يكون اليقين حاصلاً له، فالويل للعالم الذي لا يكون عاملاً ثم الويل له»[(٤)].

ويتعاظم خطر آفة المفاخرة والمكاثرة إذا استحكمت في القلب وتصاعد فيها حبّ السّمعة والشّهرة والظّهور، ودخل عالم الإعلام؛ لأنّه يتولّد منه آفات أكبر وأخطر لا تقف عند حدّ؛ لأنّ لتلك الحالة «مع العبد علاقتين: علاقة مع القلب، وهو حبّه لها، وحظّه منها، وانصراف همّه إليها، حتّى يصير قلبه كالعبد أو المحبّ المستهتر بالدّنيا، ويدخل في هذه

---

(١) الأثافي جمع الأثفية، وهي الحجارة الّتي تنصب وتوضع عليه القدر، يعني أنّها من أسباب ثبوت الذّلّ.

(٢) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٥٨، ح/١٠٤٨٦.

(٣) التّكاثر: ٥.

(٤) التّفسير الكبير: ٧٩/٣٢.

العلاقة جميع صفات القلب المتعلّقة بالدّنيا كالكبر والغلّ والحسد والرّياء والسُّمعة وسوء الظنّ والمداهنة وحبّ الثناء وحبّ التّكاثر والتّفاخر، فهذه هي الدّنيا الباطنة»[١].

كلّ هذه العوامل لها تأثير فعّالٌ في نشوء روح النّفاق وانبعاثها، وبعد أن ذكر عليه السلام شُعَب الطَّمع الأربع، وما تفرّع عنها من إفرازات مرضيّة أوجز آثار كلّ منها، قائلاً: «**فَالْفَرَحُ مَكْرُوه عنْدَ الله، والْمرَحُ خُيَلاءُ، واللَّجَاجَةُ بَلاءٌ لمَن اضْطَرَّتْه إلى حَمْل الآثَام، والتَّكَاثُرُ لَهْوٌ ولَعِبٌ وشُغُلٌ واسْتبْدَالُ الَّذي هُوَ أَدْنَى بالَّذي هُوَ خَيْرٌ**».

وفي ختام الحديث الشَّريف أكَّد عليه السلام أنَّ العرض الَّذي قدمه في بيان حقيقة النّفاق وشعبه وفروعه وآثاره وعواقبه هو العرض الواقعيّ الجوهريّ لحقيقة النّفاق قائلاً: «**فَذَلكَ النّفاق ودَعَائمُه وشُعَبُه، والله قَاهرٌ فَوْقَ عبَاده تَعَالَى ذكْرُه وجَلَّ وَجْهُه، وأَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَه، وانْبَسَطَتْ يَدَاه ووَسعَتْ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَتُه**».

(١) المحجّة البيضاء: ٢٨/٦.

الفصل الثّالث

من صفات المنافقين

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً * وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً * الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً * إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً * مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ

عَلَيكمْ سُلْطَاناً مُبيناً * إنَّ الْمُنَافقينَ في الدَّرْك الأسْفَل منَ النَّار ولَنْ تَجدَ لَهُمْ نَصيراً * إلا الّذين تَابُوا وأَصْلَحُوا واعْتَصَمُوا بالله وأَخْلَصُوا دينَهُمْ لله فَأُولَئك مع الْمُؤْمنين وسَوْفَ يؤْت الله الْمُؤْمنين أَجْراً عَظيماً * ما يفْعَلُ الله بعَذَابكمْ إنْ شَكرْتُمْ وآمَنْتُمْ وكانَ الله شَاكراً عَليماً﴾[1].

في هذه الآيات العشرة جاءت بعض صفات المنافقين واضحة بيّنة، وأكثرها صفات عمليّة سلوكيّة تتجسّد في فكرهم وسلوكهم وعواطفهم؛ ولقبح هذه الصّفات افتتحت بالبشارة على نحو السّخريّة باستعارة تهكّمية تستبطن صيغة التهديد استعملت فيها (بَشّرْ) موضع (أنذر) تهكّماً بهم[2]؛ لأنَّ كلمة البشارة غالباً ما تستعمل فيما يسرّ الإنسان ويفرحه على نحو الحقيقة لا المجاز، ولكن قيل: «إنّ البشارة تستعمل فيما يسرّ ويسوء استعمالاً حقيقيّاً، فلا استعارة حينئذ؛ لأنّ أصلها الإخبار بما يظهر أثره في بشرة الوجه، سواء كان انبساطاً أو انقباضاً»[3].

وخلاصة الكلام: «التَّبشير: الإخبار بما يظهر أثره على البَشرة، وهي ظاهر الجلد؛ لتغيّرها بأول خبر يَردُ عليك، والغالب أن يُسْتَعمل في السّرور مقيّداً بالخير المُبَشَّر به، وغير مقيَّد أيضاً، ولا يستعمل في الغمّ والشّرّ إلا

(١) النّساء: ١٣٧-١٤٧.

(٢) انظر: الكشّاف: ٥٧٧/١؛ التّفسير الكبير: ٢٤٦/١١؛ تفسير البحر المحيط: ٥٢٩/٣؛ روح المعاني: ١٧١/٥.

(٣) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣٥/١٠.

مقيّداً منصوصاً على الشّرّ المبشَّر به؛ قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[(١)].

لقد أوضح النّصّ الشريف صفات المنافقين، ونحن نستعرض أهمّ صفاتهم من القرآن الكريم على النّحو الآتي:

الصّفة الأولى: موالاة أعداء الله:

يتّخذ المنافقون الكافرين أولياء من دون المؤمنين بمجالستهم، وحبّهم، ومودّتهم، والتّعامل معهم، والانقطاع عن المؤمنين، وهذه السّمة تمثّل مرتبة سلوكية من مراتب النّفاق، ولا شكَّ أنَّ ذلك من عوامل ميلهم وألفتهم ومعاشرتهم للكافرين؛ لتشابه أنفسهم من حيث الرّغبة والحبّ والبغض، وهذا ما سينتهي بهم لأن يكونوا تابعين ومناصرين لهم ضدّ من يخالفهم في الفكر والسُّلوك؛ لأنَّ الولاية للكافرين تنبئ عن حبّ لهم، وبالتالي لا بُدَّ من أن تؤدّي إلى إعانتهم ومساعدتهم في تدبير أمورهم، والقيام بسدّ حاجتهم، والدّفاع عنهم ومناصرتهم من خلال المعايشة لهم؛ لأنَّ «الوليّ والمتولّي واقع وراء المتولّى عليه، والرّابطة بينهما تدبير الأمور والقيام به»[(٢)].

ولأجل ترسيخ الحصانة الإيمانيّة في نفوس المؤمنين وحمايتهم من السُّقوط في هوّة الكفر والنّفاق جاء النَّهي صريحاً عن مجالسة اليهود

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٢٣٨/١.

(٢) التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٢٥/١٣.

والنَّصارى المعادين لله ورسوله كما في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا تَتَّخذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْليَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْليَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ منْكُمْ فَإِنَّهُ منْهُمْ**﴾[١].

وقوله تعالى: ﴿**الله وَليُّ الَّذين آمَنُوا يُخرِجُهُمْ منَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ وَالَّذينَ كَفَرُوا أَوْليَاؤُهُم الطَّاغُوتُ**﴾[٢].

وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا لا تَتَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ الله عَلَيْهِمْ قَدْ يَئسُوا منَ الآخرَة**﴾[٣].

والسِّرّ في هذا النَّهي القاطع هو أنَّ من يجالسهم لعلّه يتأثّر بهم، فيتخلّق بأخلاقهم، ويتّصف بصفاتهم، ويتعوّد عاداتهم، ويشاركهم فيما يقولون ويعملون، وبالنَّتيجة يصبح مثلهم.

بهذا يتأكّد ما أفاده السيد السّبزواريّ بقوله: «وإنّما كانت موالاة الكافرين نفاقاً؛ لأنّ الحضور في مجالسهم يستلزم التخلّق بأخلاقهم وتصديق بعض ما يعتقدونه وما يتذاكرونه ممّا لا يرتضيه الله تعالى، فنسبته إلى الدّين ثمّ الرّضا بأفعالهم وأعمالهم هو الكفر؛ لأنّ فيه انفصالاً عن مجتمع المؤمنين وتجاوزاً عن ولايتهم وإعراضاً عن الدّين»[٤].

---

(١) المائدة: ٥١.

(٢) البقرة: ٢٥٧.

(٣) الممتحنة: ١٣.

(٤) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٣٦/١٠.

ويمكن القول أنَّ هذه الصّفة في المنافقين صفة نفسيّة سلوكيّة مكتسبة نتيجة ضغط الظّروف الاجتماعيّة أو السّياسيّة، أو من سوء التَّربية، فقد أكَّدت النّظريّات النَّفسيّة[1] أنَّ النّفاق ظاهرةٌ اجتماعيّةٌ ناتجة من القهر والتّسلّط الاجتماعي الَّذي يمارسه بعض الأفراد تجاه البعض الآخر، أو جماعة تجاه جماعة أخرى، أو السلطة تجاه أفرادها... والفرد حين لا يستطيع تحقيق أهدافه بصورة مشروعة اجتماعيّاً يسلك سلوكاً منحرفاً يؤدّي إلى تحقيق هدفه المنشود، ويتحقّق هذا من خلال التّملّق، والرّياء، والخداع، والتّحايل، والمكر، والمداهنة مع الآخرين الّذين يرتبط بعمل معهم؛ ولهذا فإنَّ المنافق يندفع إلى موالاة الكافرين بدافع كامن في نفسه عندما يأمن على نفسه من الرّقابة والمحاسبة، فتتجلّى هذه السّمة في نفسه إلى سلوك عملي يبرز فيه العداء لله ولرسوله وللمؤمنين، والحبّ والنُّصرة والتّقرّب من الكافرين.

وبلا شكّ ولاريب أنَّ هذه الصفة هي من أخطر الصّفات؛ لأنَّها تُخرج الإنسان من ولاية الله إلى ولاية أعدائه، ثم تؤدّي إلى نصرة أعداء الله ومعاداة أوليائه، وإنّما قلنا بشدّة خطرها؛ لأنَّها تمدّ جسور الكفر والنّفاق في الوسط الاجتماعيّ، وتوسّع دائرة وجودهم، ويتعاظم خطرهم بانتشار مفاسدهم الفكرية والأخلاقيّة.

---

(١) انظر بحث: النّفاق الاجتماعي وأثره على العلاقات الإنسانيّة (دراسة ميدانيّة)، أ.د. يوسف عناد زامل، مجلة واسط، العدد ١٤، سنة ٢٠١٨.

والسّرّ في اتّخاذ المنافقين للكافرين أولياء- فضلاً عن الميول النّفسيّة والتّشاكل في التّركيبة الذّاتيّة-، هو أنَّ المنافق دائماً يتحرّك حيثما يتوقّع تحقيق رغباته ومصالحه أينما وجدت، ومن أيّة جهة حصلت، ولمّا كان الكافرون في الأعمّ الأغلب يستغلّون الجوانب المادّيّة، ويبرزون قوّتهم أمام الآخرين؛ ليشعروهم بالقوّة والمنعة والصَّلابة، ولتجرّد المنافق من الدَّوافع المعنويّة الشَّريفة فإنَّه سينجذب اليهم؛ لتصوّره أنَّه سيحقّق بواسطتهم العزّة والمنعة، والقوّة.

ولعلَّ هذا ما أشارت إليه الآية الكريمة باستفهام استنكاريّ؛ لتقريعهم وتوبيخهم لاعتقادهم الفاسد ومطلبهم الدَّنيء هذا؛ لأنَّ العزّة والقوّة لا تحصل إلا لمن آمن بالله وأسلم إليه نفسه، فمهما امتلك الإنسان من سلطان أو مال أو جاه فهو أمر عرضيّ زائل لا يحقّق العزة والكرامة، يقول تعالى: ﴿**فَإِنَّ الْعِزَّةَ لله جَمِيعاً**﴾[1]، وكلمة (جميعاً) تفيد العموم بمعنى أنَّ القوّة والمنعة والسُّلطان كلّها بيد الله، وكلّ من توجّه إلى سواه ذُلَّ مهما كان، ومن كان، ﴿**من كانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلله الْعِزَّةُ جَمِيعاً**﴾[2]؛ العزّة لله ولدين الله بالذّات، وبهما يكون الإنسان عزيزاً، «وَكُلُّ عَزِيزٍ غَيْرَهُ ذَلِيلٌ»[3]؛ لأنَّ عزَّته تعالى ذاتيّة، والعزّة في غيره مستمدّة منه، ويسلبه إيّاها

---

(١) النّساء: ١٣٩.

(٢) فاطر: ١٠.

(٣) نهج البلاغة: ١١٥، خطبة: ٦٤.

متى شاء، ومن هنا شاع وذاع: «مَنِ اعْتَزَّ بغَيْرِ الله ذُلَّ»[١]؛ فـ«عزّة الحق لذاته إذ لا إله إلا هو، وعزّة رسوله بالله، وعزّة المؤمنين بالله وبرسوله»[٢]؛ «فعزة هؤلاء بإعزاز الله، فثبت للفرع ما ثبت للأصل»[٣].

وإذا تأصَّل النّفاق في النَّفس، والعياذ بالله فلا يمكن أن يقتنع المنافق ويرجع عن غيّه وكذبه ومكره وخداعه حتّى لو سمع تعاليم السّماء ممّن لا ﴿يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلا وَحْيٌ يُوحَى﴾[٤].

والدَّليل على ذلك مواقفهم مع رسول الله ﷺ حين بَلَّغَهم بخليفته ووصيّه من بعده، فقد وقفوا موقفاً سلبيّاً، واستنكروا عليه ﷺ استنكاراً شديداً، بل اتّهموه بالانحياز إلى ابن عمّه وأهل بيته، فقد روى جعفر بن محمد الخزاعي عن أبيه قال: «سمعتُ أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما قال النبي ﷺ ما قال في غدير خم، وصار بالأخبية[٥] مرَّ المقداد بجماعة منهم، وهم يقولون: والله إن كُنّا وقيصر لكُنّا في الخز والوشي والدّيباج والنّساجات، وأنا معه في الأخشنين نأكل الخشن ونلبس الخشن حتّى إذا دنا موته، وفنيت أيّامه، وحضر أجله أراد أن يولّيها عليّاً من بعده، أما والله ليعلمنّ! قال: فمضى المقداد وأخبر النّبيّ ﷺ به، فقال: الصلاة جامعة،

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٧٨، ح/١٠٩٨٤.

(٢) الفتوحات المكّيّة: ٢٠٧/٤.

(٣) التفسير الكاشف: ٢٨١/٦.

(٤) النّجم: ٣-٤.

(٥) الأخبية: الخيام.

قال: فقالوا قد رمانا المقداد، فقوموا نحلفه عليه، قال: فجاؤوا حتى جثوا بين يديه، فقالوا: بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، والَّذي أكرمك بالنبوّة ما قلنا ما بلغك، لا والذي اصطفاك على البشر قال: فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ**﴾[(١)]»[(٢)].

وفي موقف آخر حين عرض بعضهم على رسول الله ﷺ أن يعطي ثلث ماله إسناداً وإعانة له ﷺ حين قدمت الوفود عليه في المدينة، «فَلَمْ يَرُدَّ رَسُولُ اللَّه ﷺ عَلَيْهِمْ شَيْئاً، وكَانَ يَنْتَظِرُ مَا يَأْتِيه مِنْ رَبِّه، فَنَزَلَ جَبْرَئِيلُ عليه السلام، وقَالَ: ﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**﴾[(٣)]، ولَمْ يَقْبَلْ أَمْوَالَهُمْ. فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: مَا أَنْزَلَ اللَّهُ هذَا عَلَى مُحَمَّد، ومَا يُرِيدُ إِلا أَنْ يَرْفَعَ بِضَبْعِ ابْنِ عَمِّه، ويَحْمِلَ عَلَيْنَا أَهْلَ بَيْتِه، يَقُولُ أَمْسِ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ، والْيَوْمَ: ﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْه أَجْراً إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى**﴾»[(٤)].

وأكثرَ من هذا وأفحش، حين غضب الحارث بن عمرو الفهريّ، ووقف أمام رسول الله ﷺ متجاسراً ومتحدّياً مقام النّبوّة والرّسالة، فقال: «يا محمّد، أمرتنا عن الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّك رسول الله فقبلنا

---

(١) التّوبة: ٧٤.

(٢) تفسير العياشيّ: ٢/٩٩-١٠٠، ح/٩٠.

(٣) الشّورى: ٢٣.

(٤) الكافي: ٢/٢٨-٢٩، ح/٧٦٨.

منك، وأمرتنا أن نصلي خمساً فقبلنا منك، وأمرتنا بالزكاة فقبلنا، وأمرتنا أن نصوم شهراً فقبلنا، وأمرتنا بالحجّ فقبلنا، ثمّ لم ترضَ بهذا حتّى رفعت بضبعي ابن عمّك تفضّله علينا! وقلت: من كنت مولاه فعليّ مولاه، فهذا شيء منك أم من الله عزّ وجلّ؟»، فقال له النبيّ ﷺ: «والّذي لا إله إلاّ هو إن هذا من الله عزّ وجلّ»، فولّى الحارث بن النعمان وهو يريد راحلته وهو يقول: «اللّهمّ إن كان ما يقوله محمّد حقاً، فأمطر علينا حجارة من السَّماء أو ائتنا بعذابٍ أليم»! فما وصل إلى راحلته حتّى رماه الله عزّ وجلّ بحجر، فسقط على هامته وخرج من دبره، فقتله، وأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿**سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ**﴾[1]، الآيات[2].

والمواقف من هذا القبيل كثيرة نكتفي بما ذكرنا، وقد صرَّح أمير المؤمنين عليه السلام باستحالة حبّ المنافقين له ورضاهم بولايته، ولو منحهم أموال الدّنيا كلّها؛ ولذلك قال عليه السلام: «لَوْ ضَرَبْتُ خَيْشُومَ الْمُؤْمِنِ بِسَيْفِي هَذَا عَلَى أَنْ يُبْغِضَنِي مَا أَبْغَضَنِي، وَلَوْ صَبَبْتُ الدُّنْيَا بِجَمَّاتِهَا[3] عَلَى الْمُنَافِقِ

---

(١) المعارج: ١.

(٢) مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام وما نزل من القرآن في علي عليه السلام لابن مردويه: ٢٤٨؛ وروي هذا الحديث بطرق السّنّة والشّيعة نذكر منها: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثّعلبيّ: ٣٥/١٠؛ تنبيه الغافلين عن فضائل الطّالبيّين للمحسن بن كرامة: ١٧٦؛ خصائص الوحي المبين لابن البطريق: ٨٩؛ تذكرة الخواصّ لابن الجوزي: ٢٦٧/١؛ منهاج السّنّة النّبويّة لابن تيمية: ٣٣/٧؛ فرائد السّمطين للشّافعي: ٨٢/١؛ السّيرة الحلبيّة: ٣٣٧/٣؛ وما ذكرناه هو المصادر السنية فقط، وغيرها كثير، وأمّا المصادر الشّيعيّة، فأكثر من أن تحصى.

(٣) الجمّات: جمع جمّة، وهي المكان يجمع فيه الماء.

عَلَى أَنْ يُحبَّني مَا أَحَبَّني؛ وَذَلكَ أَنَّه قُضيَ فَانْقَضَى عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ الأُمّيِّ ﷺ أَنَّه قَالَ: لا يبْغضُكَ مُؤْمنٌ، ولا يُحبُّكَ مُنَافقٌ»(١).

وحديث (لا يحبك إلا مؤمن..) رواه السّنّة فضلاً عن الشّيعة؛ فقد روى أحمد بن حنبل في مسنده، قال: «عن زرّ بن حبيش، عن عليّ: قال: عهد إليَّ النّبيّ أنَّه لا يحبّك إلا مؤمنٌ، ولا يبغضك إلا منافقٌ»(٢).

وروى الطّبرانيّ عن ابن عبّاس: «عن ابن عبّاس قال: نظر النّبيّ ﷺ إلى عليّ، فقال: لا يحبّك إلا مؤمنٌ، ولا يبغضك إلا منافقٌ، من أحبَّك فقد أحبَّني، ومن أبغضك فقد أبغضني، وحبيبي حبيب الله، وبغيضي قبل بغيض الله، ويل لمن أبغضك بعدي»(٣).

قال الهيثميّ عن هذا الحديث: «رجاله ثقات»(٤).

وهذا التّأكيد على حبّ عليّ عليه السلام من رسول الله ﷺ لأجل تحصين المؤمنين وحمايتهم من الوقوع في شباك الكفر والنّفاق؛ لأنَّ حبَّ عليّ بمعرفة، ووعي، وصدق، وإخلاص لله حصانةٌ، وضمانةٌ، وصيانة من التّلوّث بخبائث النّفاق؛ فقد جعل الله حبَّه ميزاناً يوزن به إيمان الإنسان، وفرقاناً يميّز به المؤمن من المنافق، وما أجمل ما استدلّ به أحمد

---

(١) نهج البلاغة: ٤٩٤، قصار الحكم: ٤٠.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ١٣٦/٢، ح/٧٣١؛ وينظر: سنن التّرمذيّ: ٦٤٣/٥، ح/٣٧٤٦؛ السّنن الكبرى للنّسائيّ: ١٣٧/٥، ح/٨٤٨٧؛ تاريخ مدينة دمشق: ٢٧١/٤٢؛ وغيرهم كثير.

(٣) المعجم الأوسط: ٨٧/٥

(٤) مجمع الزّوائد: ١٣٣/٩.

بن حنبل على هذه الحقيقة حين سُئلَ: «يا أبا عبد الله، ما تقول في هذا الحديث الَّذي يروي أنَّ عليّاً قال: "أنا قسيم النّار"»، فقال: «وما تنكرون من ذا! أليس روينا أنَّ النبي ﷺ قال لعليّ: "لا يحبّك إلا مؤمن ولا يبغضك إلا منافق"»، قلنا: «بلى»، قال: «فأين المؤمن؟» قلنا: «في الجنّة»، قال: «وأين المنافق قلنا في النّار، قال: فعليٌّ قسيم النّار»(١).

وبما أنَّ عليّاً عليه السلام مع القرآن يدور معه حيثما دار منه ينطلق، وإليه يرجع، ولا يفترق عنه حتّى يردا على رسول الله ﷺ الحوض؛ أصبح علي طارداً للمنافقين جاذباً للمؤمنين.

ومن هنا جاء التأكيد في القرآن صريحاً بمنع مجالسة أعداء الله بعد ذكر صفة موالاة المنافقين لأعداء الدّين كما في قوله تعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً**﴾(٢).

فقوله تعالى: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ**﴾ تشير إلى قوله تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ**﴾(٣).

---

(١) طبقات الحنابلة لمحمّد بن أبي يعلي: ١/٣٢٠.

(٢) النّساء: ١٤٠.

(٣) الأنعام: ٦٨.

وقد أوضحت السُّنّة الشّريفة في تفسير هذه الآية أبعاداً تطبيقيّة واسعة لبيان الموقف من مجالسة الخائضين في آيات الله بغير علم ومعرفة، ففي تفسير القمّيّ بإسناده عن عبد الأعلى بن أعين، قال: «قال رسول الله ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يجلس في مجلس يُسبّ فيه إمامٌ، أو يغتاب فيه مسلمٌ، إنّ الله يقول في كتابه: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الّذين يَخُوضُونَ...﴾»[1].

وعن أبي جعفر الباقر عليه السلام: «لا تجالسوا أهل الخصومات؛ فإنّهم الّذين يخوضون في آيات الله»[2].

وقد استوحى السّيّد فضل الله رحمه الله من ذلك أنّ هذا المنع عن مجالسة الخائضين لا ينحصر بالأشخاص، بل يشمل «كلّ خطّ باطل، وموقف ضلال على مستوى قضايا الفكر والسّياسة والاجتماع، ونحو ذلك، ممّا يمثّل قضيّة الإسلام كلّه، والأمّة كلّها في صعيد النّظريّة والتّطبيق»[3].

كلّ ذلك لأنّ الجلوس مع أعداء الله تعالى والسّماع لهم والسّكوت عنهم يوقع الإنسان في «أولى مراتب النّفاق [وهي] أن يجلس المؤمن مجلساً يسمع فيه آيات الله يُكْفر بها، ويُسْتَهزأ بها، فيسكت ويتغاضى... يسمّي ذلك تسامحاً، أو يسمّيه دهاءً، أو يسمّيه سعة صدر وأفق، وإيماناً

(١) تفسير القمّيّ: ١/٣٠٠-٣٠١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٩٨/٧.

(٣) تفسير من وحي القرآن: ١٤٤/٦.

بحرّيّة الرَّأي!!! وهي هي الهزيمة الدّاخليّة تدبّ في أوصاله، وهو يموّه على نفسه في أوَّل الطَّريق، حياءً منه أن تأخذه نفسه متلبّساً بالضَّعف والهوان»(١).

والأخطر من ذلك جميعاً أنَّ المُجالِس لهم، والرّاضي بفعلهم سيكون مثلهم؛ لأنَّ الحضور معهم إقرارٌ بفعلهم ورضا به؛ ولهذا جاء النَّهي شديداً، وتعليلاً «للمنهي عنه، وفيه تقريع شديد وتحذير كبير ينزعج منه الحسّ، وبيان لعاقبة أمرهم إن لم ينتهوا عن مجالسة أعداء الله تعالى»(٢)، وهنا الطّامّة الكبرى؛ لأنَّ المؤمن إذا لم يقاطع تلك المجالس قد يسقط في مستنقع الكفر والنّفاق، والعياذ بالله، وهذا صريح في الوعيد الإلهي الحاسم لمنهج الكفر والنّفاق ﴿**إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً**﴾(٣)، وإنَّما كان موقع المنافقين في جهنّم في الدَّرك الأسفل؛ لأَنّهم جمعوا بين أخبث خصلتين وأقبحهما، وهما: الكفر والنّفاق.

الصّفة الثّانية: المصلحيّة والنّفعيّة:

من صفات المنافقين المصلحيَّة الدَّنيئة والنّفعية الخبيثة في استثمار الفرص والأحداث للمصالح الذّاتيّة، وهذه هي منتهى الانتهازيّة والَّتي

(١) في ظلال القرآن: ٢/٥٥٧.

(٢) مواهب الرّحمن في تفسير القرآن: ١٠/٣٩.

(٣) النّساء: ١٤٠.

تمثّل نوعاً من أنواع النّفاق إلا أنَّ الاختلاف بينهما «أنَّ الانتهازيّة هي نوعٌ من أنواع النّفاق إلا أنَّه يختلف في أنَّ الانتهازي لا يضمر من وراء تظاهره بالصَّلاح أو التّملّق إلا مصلحته الذّاتيّة في النَّفع المادّيّ القريب؛ لإشباع طموحه أو امتيازاته غير المشروعة، والإبقاء عليها. بينما يخفي المنافق في نفاقه ألواناً من التّآمر والأفكار المنحرفة في منهجية مدروسة، ويتغلغل بين صفوف المبدئّيين والمخلصين مُظْهِراً ولاءه وإيمانه مُتَحيّناً للفرص من أجل القضاء على الرّسالة وقيمها ومبادئها، فالمنافق يسير وفق خطّة مرسومة سلفاً، وقد وضعت جميع برامجها التَّفصيلية، وتناولت دقائق الأمور في محاولة من أجل القضاء على أصل المبدأ والعقيدة»[1].

وقد أوضح القرآن الكريم هذه الصّفة الخسيسة بشكل دقيق لا لبس فيه بقوله تعالى: ﴿**الّذين يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِن اللهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾[2].

فهنا تراهم في رصدٍ وانتظارٍ لنتيجة الأحداث الَّتي يفتعلونها؛ ليتعرّفوا لمن تكون الغلبة، ولمن تكون الكفّة الأرجح، وعند من تكون

(١) من مقال على الشَّبكة العنكبوتيّة بعنوان: النّفاق والانتهازية، محمَّد خالد الصبيحيّ.

(٢) النّساء: ١٤١.

اللُّقمة الأدسم؛ ليميلوا لهم ويخترقوا صفوفهم ليعبثوا بها ويفسدوها بما يحقّق لهم مصالحهم، فلا يهمّهم من ينتصر، ولماذا ينتصر، وإنّما الَّذي يهمّهم من يكون الأقوى والأغلب؛ ليندسّوا تحت عباءته، ويتسلّلوا في أوساطه، ويتسلّقوا مراتبه، وهذا ما قد سمعنا به سابقاً، ورأيناه بأمّ أعيننا لاحقاً، بل لمسناه لمس اليد في حالات الانقلابات العسكريّة، والاحتلالات الأجنبيّة، وتسلّط المجرمين، فهم مع جند الشَّيطان شياطين، بل يتفوّقون عليهم بالغدر والخيانة والإجرام، ومع جند الله أتقياء ورعون وعباد صالحون، فهم: «يتغيّرون في أقوالهم وأفعالهم من حال إلى حال بحسب تبدّل أهوائهم الفاسدة، فيلاقون كُلاً بوجهٍ ولسان غير الآخر»[(١)].

وهذا ما رأيناه حين احتلَّ الانكليز العراق سنة ١٩٢٠م، فقد اندفعوا معه وصفَّقوا له ومع حكوماته العميلة، وهكذا كانوا مع العبث والحماقات الشّيوعيّة، ومع الطُّغيان والإجرام البعثيّ ومع الاحتلال الأمريكيّ، وهذا ديدنهم كما كانوا في عهد النّبيّ صلى الله عليه وآله «يلقون المسلمين بوجه، ويلقون الكُفّار بوجه، ويمسكون العصا من وسطها، ويتلوون كالدّيدان والثّعابين»[(٢)]؛ كلّ ذلك ليكون لهم السَّبق في تأييد الظّالم الغاشم والقوى المؤيّدة له، لا حُبّاً له، وإنَّما للكسب المادّيّ، واحتلال المواقع المتقدّمة بأيّة وسيلة حصلت.

---

(١) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٢/١٧٦-١٧٧.

(٢) في ظلال القرآن: ٢/٥٥٨.

وهذا هو شأن المنافقين على طول خط التّاريخ منذ صدر الإسلام كما أوضح النَّصُّ الشَّريف: ﴿**الّذين يتربَّصون بكُمْ...**﴾؛ «فإنّها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه الذين قعدوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، فكان إذا ظفر رسول الله ﷺ بالكُفّار قالوا له: ﴿**أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ**﴾، وإذا ظفر الكُفّار، قالوا: ﴿**أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ**﴾ أن نعينكم ولم نعن عليكم! قال الله: ﴿**فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً**﴾»[1].

وهذه الصّورة القذرة المنحطّة الدَّنيئة الَّتي ينفر منها الحسّ السَّليم تتكرّر في كلّ زمان قديماً وحديثاً، وقد شاهدنا بالأمس القريب منافقي العصر من طُلاب الكراسي، ومريدي العلوّ والفساد كيف تقلَّبوا وتلوَّنوا تلوَّن الحرباء من الشّيوعيّة الملحدة إلى البعثيّة المجرمة الطّاغية إلى التّصنّع بالتّديّن الباهت التّافه، وهكذا دخلوا كلَّ مدخل لكي يشبعوا أهواءهم، ويرووا غرائزهم في حبّ التّسلّط والظُّهور، «وهكذا يتلوَّنَ كالدّيدان والثَّعابين. في قلوبهم السّمّ، وعلى ألسنتهم الدّهان! ولكنّهم بعدُ ضعاف؛ صورتهم زريّة شائهة تعافها نفوس المؤمنين»[2].

وأدقّ وصف لهذه الصّورة البشعة القبيحة الَّتي تتجلّى في النُّفوس الحقيرة، ما وصفه سيد الحكماء أمير المؤمنين عليه السلام حين قال:

(١) تفسير القمّيّ: ٢٢٩/١.

(٢) في ظلال القرآن: ٥٥٩/٢.

«وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النّفاق، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً...»[1].

وقد تقدَّم بيان ما ينطوي عليه هذا النّصّ الشَّريف من حقائق رائعة في تعريف مسالك أهل النّفاق.

فـ«أصحاب هذه الصّفات يتلوّنون ألواناً، ويتغيّرون في أقوالهم وأفعالهم من حالٍ إلى حال بحسب أغراضهم الفاسدة، وتتشعّب أقوالهم وأفعالهم بحسب تشعّب أغراضهم ويؤذون المؤمنين، كالمنافق إذ المنافق لا يلزم خلقاً واحداً، بل تارة يكون صادقاً، وتارة يكون كاذباً، وتارة يكون وفيّاً، وتارةً يكون غادراً، ومع الظالمين ظالم، ومع العادلين عادل»[2].

وهذه الحالة النّفاقيّة لا تنحصر في حدود فرد أو أفراد، بل تشمل جميع المجتمعات البشرية أفراداً ومجتمعات ودول باختلاف أعرافها وعاداتها وتقاليدها وثقافتها ومبادئها بصورة عامة، ولا تختصّ بزمن معيّن، بل قد تتواجد في كُلّ عصر وزمان، وتتلوّن بما تقتضيه ظروفه، وما ترسمه ثقافته، وخيرُ من بَيَّنَ بوضوح شمولية النّفاق السّياسيّ الدّوليّ الفقيه الكبير الشّيخ محمَّد جواد مغنية رحمه الله، ننقل كلامه بطوله لما فيه من بيان لحقيقة ما يجري اليوم في السّاحة العالميّة السّياسيّة من نفاق دوليّ

---

(١) نهج البلاغة: ٣٣٥، خطبة: ١٩٤.

(٢) المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٣٦٣/٩.

باسم حقوق الإنسان ونشر الدّيمقراطيّة، والعدالة، والتّحرّر، والدّفاع عن حقوق الشّعوب كذباً، وخداعاً، وزورا.. إذ قال:

«إنَّ النّفاق داءٌ اجتماعيّ، وُجِدَ مع المجتمعات الَّتي تضمّ القويّ والضَّعيف، والخاضع والمسيطر، وإنَّه يتطوّر معها جنباً إلى جنب في جميع المراحل، وإنَّه يتعقّد أكثر فأكثر كلّما زادت حياة الجماعة نموّاً في التَّعقيد.

وبهذا نجد التَّفسير الصَّحيح لشيوع النّفاق وتفاقمه في هذا العصر «المتقدّم» على كلّ صعيد.. يغزون البلاد الآمنة باسم حماية الأقلّيّات، ويقيمون القواعد العسكرية للعدوان بعنوان المحافظة على السّلم، ويلقون ألوف الأطنان من القنابل على المنشآت والنّساء والرّجال والأطفال بزعم القضاء على العنف والعدوان، وينهبون الأقوات والقدرات باسم التّجارة والتّعاون، وينتشرون للتّجسّس في شرق الأرض وغربها تحت راية التَّبشير في الدّين، وينشئون المكاتب لتدبير المؤامرات، وتحطيم إرادة الشّعوب بعنوان نوادي الثّقافة، ومكاتب الأنباء، ويتجمّع العملاء والخونة تحت راية الجمعيّات الخيريّة والمجالس المذهبيّة والحفلات الدّينيّة. أمّا التّجارب النّوويّة والأسلحة الكيماويّة الَّتي تهدّد العالم بكارثة شاملة، أمّا هذه فالقصد منها تطوير العلوم لخير الإنسان، ومصلحة الحضارة.. إلى غير ذلك من الجرائم التي ترتكب باسم العلم والدين والإنسانيّة.

ومن هنا شاع القلق والتّشاؤم في هذا العصر بين جميع الفئات،

واهتزَّت القيم والمبادئ، وضاعت الثّقة في كلّ شيء حتّى في رجال الدّين، والمنظّمات الخيريّة فضلاً عن السّياسيّين، وعن الصَّحافة صاحبة الجلالة الملعونة على حدّ ما قال بعض الصّحفيّين، وساد الإيمان بأنَّ ما من أحد إلا ويعمل لمصالحه ومطامعه، وأنَّ المصلحَ مخادعٌ، والمخلص مدلّسٌ.

ومن غريب الصّدف أنَّي بعد ما كتبت هذه الأسطر قرأتُ في مجلة «الحوادث البيروتيّة» تاريخ ١٩٧٢/٩/٢٢ ما نصّه بالحرف: «في الفترة بين كانون الثّاني وحزيران ألقت الطّائرات الأمريكيّة على لأوس وكمبوديا وفيتنام الشّماليّة والجنوبيّة ما زِنَتُهُ ١١٢ طن، ومع هذا أعلنت الولايات المتّحدة أنَّها ليست في حالة حرب مع أيّة دولة من هذه الدّول».

وبعد، فهل نطالب بالدَّليل إذا قلنا: إنَّ النّفاق من أمّهات الرَّذائل الاجتماعيّة الَّتي لا تحدّ ولا تعدّ، وإنَّه مزيجٌ من الخيانة والغدر، والكذب والمكر، والضَّلال والفساد، والظلم والاستبداد، وإنَّه أفسد المدنيّة الحديثة»[1].

الصّفة الثّالثة: المخادعة:

الخداع لغةً: الإخفاء، والإبهام، وتمويه الحقيقة وإبهامها وإظهار خلاف ما يخفيه، فهو غشٌّ وحيلة ومكر، قال الرّاغب الأصفهانيّ في

(١) في ظلال نهج البلاغة: ١٧٦/٣-١٧٧.

مفرداته: «الخِداع إنزال الغير عما هو بصدده بأمرٍ يبديه على خلاف ما يخفيه»(١).

وقال الشَّريف المرتضى: «الخديعة إظهار ما يوهم السّداد؛ ليتوصَّل به إلى مضرّة الغير أو نفعه من غير أن يفطن، ومخادعة اللهِ العبدَ: مجازاته بخداعه»(٢).

وقال ابن الأثير في نهايته: «أصل المكر: الخداع... ومنه حديث عليّ عليه السلام في مسجد الكوفة: «جانبه الأيسر مكر» قيل: كانت السوق إلى جانبه الأيسر، وفيها يقع المكر والخداع»(٣).

ومختصر القول: «الخدعة لغةً: مصدر خدع يخدع خدعاً وخديعةً، بمعنى إظهار الإنسان خلاف ما يُخفيه، وأيضاً الختل بالغير وإرادة المكروه به من حيث لا يعلم»(٤).

وقد استعمل فقهاءُ الإسلام المعنى اللّغوي للخُدعة، وما يتفرّع منها، ويعود إليها كـ:

الغدر: وهو نقض العهد وترك الوفاء به.

الغبن: وهو النّقص، وأصله إخفاء للجنس في المعاملة بإظهار الصّالح وإخفاء الفاسد، وهذا غالباً ما يكون في البيع، وهو أخصّ من

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٢٠١.

(٢) الرّسائل والمسائل: ٥/٤١٤-٤١٥.

(٣) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/٣٤٩.

(٤) موسوعة الفقه الإسلاميّ طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام: ٤١/١٢١.

الخدعة من جهة، وأعمّ منها من جهة أخرى.

الغشّ: وهو عدم إمحاض النّصح، وإظهار خلاف ما يضمره، وهو نوع من الخدعة.

الغِرور: وهو ما يسبّب الانخداع، وهو يعدّ قسماً من الخدعة وداخلاً فيها، وقيل منه ما ورد في دعاء كميل: «وخدعتني الدُّنيا بغرورها».

التَّدليس: وهو كتمان عيب الشّيء وإخفاؤه، وعدم تبيينه، ولا يختصّ بالبيع، بل يجري في كلّ شيء إذا لم يبيّن عيبه، فالمدالسة هي المخادعة، والتَّدليس نوع من الخدعة.

الحيلة: وهي الحذق في تدبير الأمور، وهو تقليب الفكر حتّى يهتدي إلى المقصود، وقيل إنَّ الحيلة ما يتوصّل به إلى حالة ما فيه خفْيَة، قال الرّاغب الأصفهانيّ: «وأكثر استعمالها فيما في تعاطيه خُبث، وقد تستعمل فيما فيه حكمة»، فهي قد يكون فيها خدع وقد لا يكون.

الخيانة: وهي نقيض الأمانة، بمعنى التّعدّي والتَّفريط في العهد والأمانة.

الغِيلة: ومعناها بالكسر الخديعة، يقال فلان قُتِلَ غِيلة إذا قتله من حيث لا يعلم، فهي نوع من الخدعة وداخلة فيها[1].

كلّ هذه الخصال السّيّئة متعلّقة بالخديعة، ولعلّه منها تنبع، وإليها

(١) انظر: موسوعة الفقه الإسلاميّ طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام: ١٢١/٤١-١٢٣.

ترجع، ومن هنا يتّضح لنا خطورة الخداع وعواقبه السّيّئة في مستقبل الإنسان الدّنيويّ والأخرويّ، وقد حذَّرت السُّنّة الشَّريفة من السُّقوط في هذه الهُوّة المهلكة، واستفاضت الأحاديث في ذمّها والتَّحذير منها، نذكر منها موضع حاجتنا:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كان مسلماً فلا يمكر ولا يخدع؛ فإنّي سمعتُ جبرائيل عليه السلام: إنَّ المكر والخديعة في النّار»[١].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في مرفوعة هشام بن سالم: «لولا أنَّ المكر والخديعة في النار لكنتُ أمكر النّاس»[٢].

وعن أبي عبد الله عليه السلام في رواية يحيى بن عبد الله بن الحسن: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يَجِيءُ كُلُّ غَادِرٍ بِإِمَامٍ[٣] يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَائِلاً شِدْقُهُ حَتّى يَدْخُلَ النَّارَ»[٤].

عَنِ الأَصْبَغِ بْنِ نُبَاتَةَ، قَالَ: «قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام ذَاتَ يَوْمٍ، وَهُوَ يَخْطُبُ عَلَى الْمِنْبَرِ بِالْكُوفَةِ: يا أَيُّهَا النَّاسُ، لَوْلا كَرَاهِيَةُ الْغَدْرِ، كُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، أَلا إِنَّ لِكُلِّ غَدْرَةٍ فَجْرَةً، وَلِكُلِّ فَجْرَةٍ كَفْرَةً، أَلا وَإِنَّ الْغَدْرَ

---

(١) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٢/ ٥٥.

(٢) الكافي: ٤/ ٣٧، ح/ ٢٦٧٧.

(٣) قال الفيض الكاشانيّ في بيان الحديث: «(يجيء كلّ غادر) يعني من أصناف الغادرين على اختلافهم في أنواع الغدر (بإمام) يعني مع إمام يكون تحت لوائه كما قال اللّٰه تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾، وإمام كلّ صنف من الغادرين من كان كاملاً في ذلك الصّنف من الغدر أو بادياً به» كتاب الوافي: ٥/ ٩٢٤.

(٤) الكافي: ٤/ ٣٩، ح/ ٢٦٨١.

وَالْفُجُورَ وَالْخِيَانَةَ فِي النَّارِ»[١].

وهكذا تتّضح لنا أخطار المخادعة على مختلف الصّعد الفكريّة، والتّربويّة والاجتماعيّة، والسّياسيّة، والاقتصاديّة، ومن خلالها نستطيع أن نعي أخطار النّفاق والمنافقين، فإذا كانت للمخادعة- وهي صفة واحدة من صفات المنافقين- هذه الأخطار كلّها، فما بالنا لو انضمت إليها الصفات الأخرى، والّتي جمعت جميع الرّذائل النفسية الّتي يمكن أن تتجلّى وتتجسّد في فكر المنافقين وسلوكهم.

وقد جاء ذكر المخادعة في آيتين كريمتين؛ ففي سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾[٢].

وفي سورة النّساء: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلَا قَلِيلاً**﴾[٣].

وقد أفاض المفسّرون في بيان حقيقة مخادعة المنافقين، ومعنى مخادعتهم لله ورسوله ولماذا يخادعون؟ وكيف يخدعون أنفسهم؟

وخلاصة ما طرحه أكثر المفسّرين أنَّ خداع المنافقين مبنيٌّ على التَّظاهر بالإيمان بالله ورسوله، وادّعاء التَّصديق بالعقائد الإسلاميّة،

---

(١) الكافي: ٤/٣٩-٤٠، ح/٢٦٨٢.

(٢) البقرة: ٩.

(٣) النّساء: ١٤٢.

والتّظاهر بالالتزام بها، والارتباط بالمؤمنين بألسنتهم، وإخفاء ما في قلوبهم من الرَّيب، والشّكّ، والتَّكذيب، والكفر؛ ومعروف في اللّغة العربيّة أنَّ من أظهر بلسانه خلاف ما في قلبه سُمّي (مخادعاً)، ولذا سمي المنافق مخادعاً.

وقد عرَّف أكثر الباحثين هذا النَّوع من النّفاق بـ(الأكبر)، وهو إضمار الكفر والتّظاهر بالإيمان، وهذا هو الكفر المحض بعينه، والمتّصف به في النّار، ولا يتوقّف خداع المنافقين عند الأقوال، والادّعاءات الجوفاء، بل تتعدّاه إلى التَّظاهر بالامتثال، والانقياد، والطّاعة لأوامر الله تعالى للَفت الأنظار إليهم؛ ولأجل كسب ثقة النّاس طلباً للسُّمعة والشُّهرة والظُّهور بمظهر المؤمن الورع التّقيّ، وهو يضمر عكس ذلك شكلاً ومضموناً، وهذا هو النّفاق الأصغر، ويعبّر عنه بـ(النّفاق العمليّ) وبه يحفظ المنافق دمه، ولعلَّ هذا معنى ما جاء في بعض أدعية الإمام السّجّاد عليه السلام: «فإنَّ قوماً آمنوا بألسنتهم؛ ليحقنوا به دماءهم، فأدركوا ما أمّلوا، وإنّا آمنّا بك بألسنتنا وقلوبنا لتعفو عنّا...»[١].

والمعنى نفسه رُويَ عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه سُئل رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله: «فيمَ النَّجَاةُ غداً؟» قَالَ: «إِنَّمَا النَّجَاةُ في أَنْ لا تُخَادعُوا اللَّهَ فَيَخْدَعَكُمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ يُخَادِعِ اللَّهَ يَخْدَعْهُ، ويَنْزِعْ مِنْهُ الإِيمَانَ وَنَفْسَهُ يَخْدَعُ، ولَوْ يَشْعُرُ»، قِيلَ لَهُ: «فَكَيْفَ يُخَادِعُ اللَّهَ؟» قَالَ: «يَعْمَلُ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يُرِيدُ

(١) مصباح المتهجّد: ٥٩٠.

به غَيْرَهُ»[١].

وفي حديث آخر قال: «أن لا يعمل العبد بطاعة الله يريد بها النّاس»[٢].

فبتعبير دقيق: «خداعهم لله وللمؤمنين إظهار الإيمان والمحبّة، واستبطان الكفر والعداوة، وخداع الله والمؤمنين إيّاهم مسالمتهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم بحقن الدّماء وحصن الأموال وغير ذلك، وادّخار العذاب الأليم والمآل الوخيم، وسوء المغبّة لهم، وخزيهم في الدُّنيا لافتضاحهم بإخباره تعالى وبالوحي عن حالهم»[٣].

ولمّا كان المنافقون مستغرقين في أوهامهم وخيالاتهم، فهم يظنّون أنَّ الله لا يعلم كثيراً ممّا يفكرون به ويدبّرونه، ويخطّطون له؛ ليمرّروا خططهم، ويحقّقوا أوهامهم دون أن يشعروا أنَّهم في المرصد الإلهيّ الَّذي لا يغادر صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها، وكأنَّهم مصداق لقوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ * وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[٤].

وهذا هو معنى ﴿**وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾، ومعنى ذلك كما قال الشّيخ

---

(١) ثواب الأعمال وعقاب الأعمال: ٢٥٥.

(٢) عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي: ٢١٤.

(٣) تفسير ابن عربي: ١٥/١-١٦.

(٤) فصّلت: ٢٣.

الطّبرسيّ: «أن يجازيهم على خداعهم، كما قلناه في قوله: ﴿**اللهُ يستهزئ بهم**﴾. وقيل: هو حكمه بحقن دمائهم مع علمه بباطنهم»[١].

وقال السّيّد مصطفى الخمينيّ: «إنَّ حقيقة الخدعة والمكر أخذه تعالى بتبعات أعمالهم وملكات أفعالهم من غير اطّلاعهم على أنَّ هذه الخدعة ترجع عليهم، وراجعة على أنفسهم»[٢].

«**فخديعة** الله تعالى في الحقيقة ليس إلا الجزاء»[٣].

وتدلّ على ذلك رواية الحسن بن عليّ بن فضال، في أسئلته للإمام الرّضا عليه السلام عن آيات عدّة منها قوله تعالى: ﴿**يُخادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خادِعُهُمْ**﴾، فقال عليه السلام: «إنَّ الله لا يسخر ولا يستهزئ، ولا يمكر ولا يخادع، ولكنّه تعالى يجازيهم جزاء السّخرية وجزاء الاستهزاء وجزاء المكر الخديعة، تعالى الله عمّا يقول الظّالمون علوّاً كبيراً»[٤].

وكيفما كان فنسبة المخادعة «إلى الله سبحانه إمّا على طريق الاستعارة والتَّمثيل لإفادة كمال شناعة جنايتهم، أي يعاملون معاملة الخادعين، وإمّا على طريقة المجاز العقليّ بأن ينسب إليه تعالى ما حقّه أن ينسب إلى الرّسول صلى الله عليه وآله إبانة لمكانته عنده تعالى كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الّذين يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ**

(١) مجمع البيان: ٣/٢٢١.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ٣/٣٠٤.

(٣) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ١٠/٧٠.

(٤) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١/١١٥.

أَيْدِيهِمْ﴾[١]»[٢].

والحقيقة أنَّ خداعهم هو التَّعبير الحقيقي إمّا عن جهلهم؛ لأنَّهم ظنّوا أنَّ الله لا يعلم كثيراً ممّا يعملون، وإمَّا عن كفرهم؛ لأنَّهم اعتقدوا أن بإمكانهم خداع الله تعالى.

لماذا يخادع المنافقون؟

إنَّ المنافقَ شخصٌ غامضٌ يستبطن: الخبث، والخسّة، والنّذالة، والحقارة، واللّؤم، والغشّ، والغدر، والكذب، والجبن.

بل يمكن القول: إنَّ شخصيّة المنافق تضمّ بين جنبيها كلّ قذارات الكفر والشّرك وزيادة؛ ولذا تراه يتلوّن تلوّن الحرباء، ويتصرّف تصرّف الفاجرة الَّتي تعرض نفسها في سوق العهارة بحسب أهواء المشترين، وهي لا تملك إلا هدفاً واحداً هو إشباع غرائزها وأهوائها، وتحقيق مصالحها الآنيّة أو المستقبليّة، وإيقاع فريستها في مستنقعها أو الغدر به، وهي كما قيل: «تعايش الذّئاب، وتبكي تحت أقدام الرّعاة»، فالسَّبب الأساسيّ من خداع المنافق كامن في نفسه، وهو الجبن، وهو آفةٌ نفسيّةٌ نتاجها الحرص، والعجز، والشّحّة، وضعف اليقين، ومنبعها الأصليّ سوء الظّنّ بالله تعالى كما جاء عن أمير المؤمنين عليه السلام قوله: «الْجُبْنُ وَالْحِرْصُ وَالْبُخْلُ غَرَائِزُ سَوْءٍ يَجْمَعُهَا سُوءُ الظَّنِّ بِاللَّهِ سُبْحَانَهُ»[٣].

---

(١) الفتح: ١٠.

(٢) تفسير أبي السّعود: ٤١/١.

(٣) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٢٩٢، ح/٦٥١٤.

وفي حديث آخر له عليه السلام: «ولا يغلبنّ عليك سوء الظّنّ بالله عزّ وجلَّ، فإنَّه لن يدع بينك وبين خليلك صلحاً»(١).

وجميل ما علَّقه الشَّيخ المحمودي على هذا النّصّ الشَّريف بقوله: «من اللَّوازم الَّتي لا تنفكّ عن سوء الظّنّ: الاضطراب وعدم الاستقرار على ما صدر منه من الرَّأي والعمل، فمن ساء ظنُّه مثله مثل الأطفال يبني فيعقبه بالهدم، ويعامل ثمّ يبطله بالفسخ، ويصادق فيبدلها بالمعاداة، ويعادي فتبدو له المحبّة، وهكذا في جميع أعماله»(٢).

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعوّذ من هذه الخصال السّيّئة- مع عصمته وكماله- قائلاً: «اللّهمّ، إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وضلع الدّين، وغلبة الرّجال»(٣).

وقوله صلى الله عليه وآله: «شَرُّ مَا فِي رَجُلٍ شُحٌّ هَالِعٌ، وَجُبْنٌ خَالِعٌ(٤)»(٥).

إذن الجبن وما يتفرّع منه من رذائل الخصال هو العلّة الأساسيّة في النّفاق، وأمّا الأسباب الَّتي يمكن أن نستوحيها من سلوكهم المتلوّن، وأخلاقيّتهم المتقلّبة، وأفكارهم المتناقضة، فيمكن إيجازها بنقاط:

---

(١) من لا يحضره الفقيه: ٣٨٥/٤.

(٢) نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة: ١٢٠/٧.

(٣) من لا يحضره الفقيه: ٣٣٥/١.

(٤) «الهالع: المخيف المفزع، والاسم منه الهلع، وهو أشدّ الجزع. وقوله عليه الصلاة والسلام: "أو جبن خالع" مجاز: أي يخلع قلب الجبان، وهذا على المبالغة» المجازات النبويّة: ٢٩٣.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣٨٥/١٣، ح/٨٠١٠

١- إنَّ المنافقين يظنّون أنَّهم حين يخادعون الله ورسوله والمؤمنين فيظهرون الجمال ويخفون القبح، سيحظون بتبجيل وتكريم وتعظيم من رسول الله ﷺ والمؤمنين، وبذلك سيحتلّون المواقع المتقدّمة من دولة الرّسالة، ولكنّهم خسئوا؛ فإنَّ ذلك لا يخفى على المؤمن الفطن اليقظ، فضلاً عن أكمل الإنسانيّة على الإطلاق.

٢- احتمل كثير من المفسرين أنَّ مراد المنافقين من الخداع الحصول على الأسرار السّياسيّة والعسكريّة الّتي وضعها رسول الله ﷺ لتقويم مسيرة الدَّعوة والدَّولة؛ لإفشائها لأعدائه من الكُفّار والمشركين؛ ليضعوا العراقيل أمامها وإفشالها.

٣- وبخداعهم يحاولون أن يدفعوا عن أنفسهم تطبيق أحكام الإسلام على الكُفّار والمشركين كالقتل والجزية؛ لقول رسول الله ﷺ: «لا أَزَالُ أُقَاتِلُ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، فَإِذَا قَالُوا: لا إِلَهَ إلا اللَّهُ، فَقَدْ عَصَمُوا مِنِّي أَمْوَالَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ إِلا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»(١).

وصدق القائل فيهم: [من الكامل]

أباحوا كلّ محظورٍ حرامٍ ... وردّوه لأنفسهم حلالا
وما انتسبوا إلى الإسلام إلا ... لصون دمائهم ألا تُسالا
فيأتون المناكرَ في نشاطٍ ... ويأتون الصّلاة وهم كُسالى(٢)

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٤٩٩/١٣، ح/٨١٦٣.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٥٣٥/٣.

ورحم الله العالم المصلح السّيّد محسن الأمين حين قال: [من الهزج]

أبعد الله أناساً قولهم كذب ومين
ألصقوا بالدّين ممّا قد أتوه كلّ شين
أظهروا للدّين حبّاً وهو حبّ الدَّرهمين
كلّ عصر في الورى فيه يزيد والحسين[١]

الصّفة الرّابعة: الطّمع في الحصول على الأموال والغنائم:

إنَّ أفضل مثال على هذه الصّفة عند المنافقين ما حدث لأبي سفيان حين رأى كثرة الغنائم بين يدي رسول الله ﷺ يوم حُنَين، قال الواقديّ: «جاء أبو سفيان بن حرب وبين يديه ﷺ الفضّة، فقال: يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالاً! فتبسَّم رسول الله ﷺ، وقال: أعطِني من هذا المال يا رسول الله! قال: يا بلال، زن لأبي سفيان أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. قال أبو سفيان: ابني يزيد أعطِه! قال رسول الله ﷺ: زنوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. قال أبو سفيان: ابني معاوية يا رسول الله! قال: زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل. قال أبو سفيان: إنَّك الكريم فداك أبي وأمي! ولقد حاربتُك فنعم المحارب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت، جزاك خيراً!»[٢].

---

(١) أعيان الشّيعة: ١٠/٣٧٣.

(٢) كتاب المغازي: ٢/٩٤٤-٩٤٥.

وإنَّما أعطى ﷺ هذا المال الوفير لهذا المنافق وغيره من أمثاله؛ ليقطع همزهم ولمزهم وسخطهم كما وصفهم تعالى بقوله: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾(١).

ولكي نؤكّد صحة ما نقول نذكر قصّة أحدهم الَّذي أعطاه رسول الله ﷺ أربع أباعر، فراح يعاتب رسول الله ﷺ بأشعار قالها، فلمّا وصلت لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ «لأمير المؤمنين عليه السلام: "قم- يا عليُّ- إليه فاقطع لسانه". قال: فقال العباس بن مرداس: فوالله لهذه الكلمة كانت أشدَّ عليَّ من يوم خثعم(٢)، حين أتونا في ديارنا. فأخذ بيدي علي بن أبي طالب فانطلق بي، ولو أرى أنَّ أحداً يخلّصني منه لدعوتُه، فقلتُ: يا عليّ، إنك لقاطع لساني؟ قال: "إنّي لممضٍ فيك ما أُمِرت". قال: ثم مضى بي، فقلت: يا علي إنك لقاطع لساني؟ قال: "إنّي لممضٍ فيك ما أُمِرت"، قال: فما زال بي حتى أدخلني الحظائر، فقال لي: "اعتد ما بين أربع إلى مائة". قال: قلتُ: بأبي أنتم وأمّي، ما أكرمكم وأحلمكم وأعلمكم!. قال: فقال: "إن رسول الله ﷺ أعطاك أربعاً وجعلك مع المهاجرين، فإن شئتَ

(١) التّوبة: ٥٨.

(٢) يوم خثعم: عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن خالد بن الوليد: أنَّ رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى ناس من خثعم، فاعتصموا بالسجود، فقتلهم، فوداهم رسول الله ﷺ بنصف الدّية، ثمَّ قال: أنا بريء من كلّ مسلم أقام مع المشركين لا تراءى ناراهما؛ المعجم الكبير للطّبرانيّ: ١١٤/٤؛ مجمع الزّوائد: ٢٥٣/٥.

فخذها، وإن شئت فخذ المائة وكن مع أهل المائة"، قال: قلت: أشر عليَّ، قال: "فإنّي آمرك أن تأخذ ما أعطاك وترضى". قلتُ: فإنّي أفعل»[١].

والأمثلة في ذلك كثيرة تبرهن أنَّ الهدف من خداع المنافقين هو طمعٌ في الحصول على الأموال والثّروات الواسعة، وهذا غير منحصر في عصر رسول الله ﷺ وإنَّما يتكرّر في كلّ زمان ومكان؛ لأنَّ «النّاس عبيد الدنيا والدّين لعق على ألسنتهم»[٢]، وشاهدنا على ذلك ما نراه اليوم من تهافت وتكالب لتحصيل الأموال بأساليب خسيسة تأباها النُّفوس الشَّريفة قد وصلت ببعضهم أن يتذلّل لقوى الكفر العالمي على حساب دينه ووطنه، بل على حساب شرفه وكرامته وعزّته كالعمالة، والجاسوسيّة، والخيانة، والغدر... وما إلى ذلك.

الصّفة الخامسة: انعدام التّوجّه الصّادق إلى الله تعالى في العبادات:

وهذا المعنى نستوحيه من وصفهم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللهَ إِلا قَلِيلاً**﴾[٣]، وقوله تعالى في سورة

(١) الإرشاد: ١/١٤٧-١٤٨.

(٢) تحف العقول: ٢٤٥.

(٣) النّساء: ١٤٢.

التّوبة: ﴿**وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسالى**﴾[١].

إنَّ المؤمن الصّادق حين يشرع بأداء فرائضه يتوجّه إليها بقوّة، ورغبة، ولهفة، وشوق، وتجرّد، وإخلاص؛ لأنَّه يعلم بأنه سيقف بين يدي خالقه ومدبّره بخضوع، وخشوع، وخشية، وخوف، ورجاء؛ ولمّا كان المنافقُ فاقداً للإيمان الحقيقيّ بالله تعالى؛ لهذا نراه إذا قام إلى الصَّلاة قام بتثاقل وتقاعس وتكاسل كأنَّه يؤدّي ضريبة ثقيلة عليه، مجبراً عليها، غير قانعٍ بأدائها، وإنّما يؤدّيها غصباً وجبراً واضطراراً؛ ليدفع عن نفسه الأضرار الَّتي يتوقّعها من المحيطين به، فهو في الحقيقة لا يصلّي لله بإيمان، وقناعة، ووعي، وإنَّما دفعاً للشّبهة عن نفسه، ورياءً للناس، فلا نصيبَ لله فيها، ولولا خوفه من نقد النّاس وعيبهم لما أدّاها، قال الرّازيّ: «لأنَّ هذا المعنى يدلّ على أنّه لا يصلّي طاعةً لأمر الله، وإنَّما يصلّي خوفاً من مذمّة النّاس»[٢].

والسّرّ في ذلك أنَّهم «غير موقنين بمعاد، ولا ثواب ولا عقاب، وإنَّما يعملون ما عملوا من الأعمال الظّاهرة بقاءً على أنفسهم، وحذاراً من المؤمنين»[٣].

وإلى هذا المعنى أشار رسول الله ﷺ في وصف صلاة المنافقين

---

(١) التّوبة: ٥٤.

(٢) التَّفسير الكبير: ٩٠/١٦.

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٥٠/٥.

في حديث أنس، قال: «إنَّ رَسُولَ اللَّه ﷺ قال: "تلْكَ صَلاةُ الْمُنَافقين يَقْعُدُ أَحَدُهُمْ حَتَّى إذَا كَانَتْ عَلَى قَرْنَ الشَّيْطَانِ أَوْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنقَرَ أَرْبَعا لا يَذْكُرُ اللَّهَ فيها إلا قليلاً»[١].

وفي رواية أخرى: «تلْكَ صَلَاةُ المُنَافق يَجْلسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعاً لا يَذْكُرُ اللَّهَ فيهَا إلا قَليلاً»[٢].

والسّرّ في تكاسل المنافقين عن الصّلاة «لأنهم لا نيّة لهم فيها ولا إيمان لهم بها ولا خشية ولا يعقلون معناها»[٣]؛ ولفقدان صلاتهم حرارة الإيمان، وشوق العرفان، جاءت فاترة باردة لا روح فيها، ولا معنى لها إلا حركات ظاهرية؛ لأَنَّهم يؤدونها رياءً وسمعة ومسايرة للناس واضطراراً، ولهذا كان ذكرهم لله قليلاً، ووصف بالقلة كما قال ابن عبّاس؛ لأَنَّهم يفعلونها رياءً وسمعة، ولو أرادوا بذلك القليل وجه الله تعالى لكان كثيراً، وقيل: إنَّما قَلَّ ذكر المنافقين؛ لأن الله لم يقبله، وكل ما قَبل الله فهو كثير، «وكيف يقلّ ما يُتَقبّل».

ولا يتوقّف رياؤهم وتصنّعهم عند الصَّلاة، بل هذا ديدنهم في بقيّة العبادات كالحقوق الماليّة، ﴿**وَلا يُنْفِقُونَ إلا وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾[٤]؛ «لأَنَّهم

(١) صحيح ابن حبّان: ٤٩٥/١، ح/٢٦٣.

(٢) سنن التّرمذيّ: ٣٠٢/١، ح/١٦٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ٥٨١/١.

(٤) التّوبة: ٥٤.

يعدّونه بمنزلة الإتلاف، ولا يعتقدون بفضل الإنفاق، فلا يرجون بفعله ثواباً، ولا يخافون بتركه عقاباً ﴿**فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ**﴾؛ فإنَّها وبالٌ عليهم واختبارٌ واستدراجٌ ليكمل بها عقولهم[1] عن الآخرة، فيأخذهم بغتةً كما قال: ﴿**إِنَّما يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِها فِي الْحَياةِ الدُّنْيا**﴾[2]»[3].

وهكذا هم لا ينفقون لغرض الطّاعة، بل رعاية للمصلحة الظّاهرة؛ وذلك أنَّهم كانوا يعدّون الإنفاق مغرماً وضَيْعة بينهم... والله تعالى ذمّ المنافقين بكراهتهم الإنفاق، «وهذا معنى قوله ﷺ: "أدّوا زكاة أموالكم طيّبة بها نفوسكم"؛ فإن أدّاها وهو كاره لذلك كان من علامات الكفر والنّفاق»[4].

الصّفة السّادسة: الحيرة والتّردّد والاضطراب والتّذبذب:

هذه الصّفة للمنافقين نستوحيها من قوله تعالى في وصف المنافقين: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذلِكَ لا إِلى هؤُلاءِ وَلا إِلى هؤُلاءِ**﴾.

وهي حالة تعبّر عن التّغير والتّقلّب والتّحوّل من حال إلى أخرى، ومن صورة إلى أخرى، يتلبّسون بكلّ ما يحاولون أن يغروا به الآخرين

---

(١) هكذا في المصدر، ولعلّه خطأ مطبعيّ، ويمكن أن يكون الأصحّ: غفلتهم.

(٢) التّوبة: ٥٥.

(٣) المازندرانيّ، شرح أصول الكافي: ٣٩/١٢.

(٤) التّفسير الكبير: ٩٠/١٦.

به، ويخادعونهم بحسب مصالحهم ومنافعهم، ولا يستقرّون على حالة، ولا يثبتون على أرضيّة صلبة، بل حياتهم متموّجة كرمال الصَّحراء، فكانوا كما وصفهم الإمام أبو الحسن عليه السلام: «لَيْسُوا منَ الْكَافِرِينَ، وَلَيْسُوا منَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسُوا منَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الإيمَانَ، وَيَصِيرُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ؛ لَعَنَهُمُ اللَّهُ»[1].

وفي رواية اخرى عن محمَّد بن الفضيل، عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام، قال: «كتبتُ إليه أسأله عن مسألة، فكتب إليَّ: إنَّ الله يقول: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ**﴾ إلى قوله: ﴿**سَبِيلاً**﴾ ليسوا من عترة رسول الله، وليسوا من المؤمنين، وليسوا من المسلمين يظهرون الإيمان ويسرّون الكفر والتَّكذيب، لعنهم الله»[2].

فهم ليسوا من الكافرين؛ لإظهارهم الشَّهادتين، وليسوا من المؤمنين والمسلمين لإنكار قلوبهم وعدم صدقهم وقناعتهم، وهذا هو شأن طُلاب الدُّنيا بأيّة وسيلة حصلت، ومن أيّة جهة صدرت؛ لأنَّ المهم عندهم تحصيل المنفعة، وإشباع بطونهم وفروجهم وملء جيوبهم.

إذن هؤلاء كما وصفهم بعض العلماء بأنَّهم متردّدون بين الكفر والإيمان، ليسوا بمؤمنين مخلصين، ولا مشركين مصرّحين بالشّرك، متردّدين متحيّرين في دينهم، لا يرجعون إلى اعتقاد صحّة شيء على

---

(١) الكافي: ٤/ ١٦٠، ح/٢٨٦٨.

(٢) حسين بن سعيد الكوفيّ، الزّهد: ٦٦-٦٧، ح/١٧٦.

صحّة فهم، لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع المشركين على جهالة، ولكنّهم حيارى بين ذلك، متردّدين متحيّرين بين الكفر والإيمان، ولذلك استحقّوا الطرد، والذّبّ، والاحتقار من جميع الأطراف[(١)].

وقيل: «مذبذبين مطرودين من هؤلاء، ومن هؤلاء، من الذّبّ الَّذي هو الطَّرد. وصف الله تعالى هؤلاء المنافقين بالحيرة في دينهم، وأنَّهم لا يرجعون إلى صحة فيه، لا مع المؤمنين على بصيرة، ولا مع الكُفّار على جهالة»[(٢)].

فحقيقة هؤلاء المنافقين أنَّهم «لا يخلصون في الانتساب إلى واحد من الفريقين لأنهم يطلبون المنفعة، ولا يدرون لمن تكون العاقبة، فهم يميلون إلى اليمين تارة وإلى الشّمال أخرى، فمتى ظهرت الغلبة التّامّة لأحد الفريقين ادَّعوا أنَّهم منه»[(٣)].

وخير توصيف للمنافقين ما ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «إِنَّمَا مَثَلُ الْمُنَافِقِ مَثَلُ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ[(٤)] بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، لا تَدْرِي أَيَّهُمَا تَتْبَعُ»[(٥)].

---

(١) انظر: المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته: ٥٤١/٢٠.

(٢) التّبيان في تفسير القرآن: ٣٦٦/٣.

(٣) تفسير المنار: ٤٧١/٥.

(٤) أي المتردّدة بين القطيعين، تنطح هذه الجهة مرّة وأخرى ثانية.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٦١/١٠، ح/٥٧٩٠.

الصّفة السّابعة: المنافقون شرٌّ مطلقٌ:

هنا صفة عمليّة تتجلّى في أفكارهم وسلوكهم، فمن خلال ما تقدّم اتّضح أنَّ المنافقين جمعوا بين الكفر والنّفاق والشّرك، بل اجتمعت فيهم جميع القبائح والقذارات حتّى صاروا مستنقع الشّرّ والسّوء والقبح والقذارة على الإطلاق، ومنبع الشّرور ومنطلقاتها على مختلف الصُّعد.

والدَّليل على ذلك ما ورد في السّنّة الشّريفة في وصف النّفاق والمنافقين، قال الإمام عليّ عليه السلام:

«النّفاق شين الأخلاق».

«النّفاق يفسد الإيمان».

«النّفاق أخو الشّرك».

«النّفاق توأم الكفر»[1].

فلو تأملنا في هذه النصوص القصيرة اللّفظ والعميقة المعنى والدّلالة لعرفنا أخطار النّفاق المدمّرة للمجتمع البشريّ على مختلف المستويات الفرديّة والاجتماعيّة، فهو يفسد الإيمان، ومعلوم أنَّ الإنسان إذا فسد إيمانه يصبح ريشة في مهبّ الرياح تلقي به في أيّة جهة هبَّت، لذلك سوف ينساق نحو هاوية الشّرك والكفر، وبالتّالي يصير المنافق أخطر من الكافر والمشرك؛ لأنَّه جمع بين الكفر والشّرك والنّفاق؛ ولهذا وصفت الأحاديث الشّريفة (المنافق) بأنَّه:

---

(١) تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم: ٤٥٨، ح/١٠٤٧٤-١٠٤٧٥-١٠٤٨٣-١٠٤٨٤.

«مكوّر مضرّ مرتاب».

«قوله جميل، وفعله الدّاء الدَّخيل».

«لسانه يَسُرّ، وقلبه يَضرّ».

«وقح غبيّ متملّق شقيّ».

«لنفسه مداهن، وعلى النّاس طاعن»(١).

وقال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنَّ الْمُنَافِقَ يَنْهى وَلا يَنْتَهِي، وَيَأْمُرُ بِمَا لا يَأْتِي، وَإِذَا قَامَ إِلَى الصَّلاة اعْتَرَضَ» قال أبو حمزة: «قُلْتُ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللَّه، وَمَا الاعْتِرَاضُ؟ قَالَ: «الالْتِفَاتُ؛ وَإِذَا رَكَعَ رَبَضَ(٢)؛ يُمْسِي وَهَمُّهُ الْعَشَاءُ وَهُوَ مُفْطِرٌ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ النَّوْمُ وَلَمْ يَسْهَرْ؛ إِنْ حَدَّثَكَ كَذَبَكَ، وَإِن ائْتَمَنْتَهُ خَانَكَ، وَإِنْ غِبْتَ اغْتَابَكَ، وَإِنْ وَعَدَكَ أَخْلَفَكَ»(٣).

والأَحَاديث في ذلك كَثيرةَ مستفيضة، وكلّها تؤكّد أنَّ شرَّ النّفاق مستطيرٌ على طول التّاريخ، بل إنَّ الأذى الَّذي تعرَّض له رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وخُلّص أصحابه من المنافقين أشدّ وأكثر من أذى الكُفّار والمشركين، واليهود والنصارى، وما تعرّضت له رسالة الله من عوائق وعقبات ومشاكل منهم لم تتعرّض له من أشد النّاس كفراً وشركاً

(١) المصدر نفسه: ٤٥٨، ح/١٠٤٨٨-١٠٤٨٩-١٠٤٩٠-١٠٤٩٢-١٠٤٩٣.

(٢) قال الفيض الكاشانيّ: «الربوض استقرار الغنم وشبهه على الأرض، وكأنَّ المراد أنَّه يسقط نفسه على الأرض من قبل أن يرفع رأسه من الركوع كإسقاط الغنم عند ربوضه»، كتاب الوافي: ٢٣٨/٤.

(٣) الكافي: ١٦١/٤-١٦٢، ح/٢٨٦٩.

وإلحاداً، فـ«المنافقون يشكّلون أخطر تجمّع معارض، لا على الإسلام فحسب، بل على كلّ رسالةٍ ثوريّة تقدّميّة، حيث يَنْفذون بين صفوف المسلمين، ويستغلّون كلّ فرصة للتّآمر... وهم أخطر أعداء الثّورة، لأنَّ مواقفهم غير واضحة، والأمّة الثّائرة لا تستطيع أن تعرفهم وتطردهم من صفوفها؛ لذلك يتغلغلون في صفوف النّاس المخلصين الطّيّبين، ويتسلّمون أحياناً المناصب الحسّاسة في المجتمع»(١)؛ ولذلك كان عذابهم في جهنّم يختلف عن عذاب سائر أنواع المخالفين لشريعة الله والعصاة لأوامر الله تعالى.

ورحم الله العلامة الطّباطبائيّ إذ قال: «وقد أوعدهم الله في كلامه أشدّ الوعيد؛ ففي الدُّنيا بالطَّبع على قلوبهم، وجعل الغشاوة على سمعهم وعلى أبصارهم وإذهاب نورهم، وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون، وفي الآخرة بجعلهم في الدَّرك الأسفل من النّار. وليس ذلك إلا لشدّة المصائب الّتي أصابت الاسلام والمسلمين من كيدهم ومكرهم وأنواع دسائسهم، فلم ينل المشركون واليهود والنَّصارى من دين الله ما نالوه، وناهيك فيهم قوله تعالى لنبيه ﷺ يشير إليهم: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ**﴾(٢)»(٣).

(١) انظر الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١/٨٨-٩١.

(٢) المنافقون: ٤.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ٢٠/٢٨٧-٢٨٨.

ورحم الله الإمام الخمينيّ الَّذي طالما أرسل الحسرات والآهات من أذى المنافقين على طول تأريخه الجهاديّ، قال: «إنَّهم مع من يتقدَّم وينتصر، هكذا هم المنافقون، وهذه هي صفة المنافقين أساساً حتّى في زمن رسول الله ﷺ كان الإسلام يعاني من المنافقين ما لا يعانيه من الكُفّار. الكُفّار كانوا واقفين بوجهه يحاربونه ويقاتلونه، فيتقدّمون أو يندحرون. ولكن ماذا يفعلون للمنافقين؟ المنافق الَّذي يأتي ويقول: إنّني للإسلام، وقد اعتنقت الإسلام، مثل إسلام أبي سفيان، ماذا يفعلون له؟ إنَّه يقول إنَّني مسلم، المسلم لا يمكن أن يُفْعَل له شيءٌ، ظاهره أنَّه جاء للإسلام ويصلّي جماعةً، ويجلس تحت منبر رسول الله، ويذرف الدموع، هذا لا يمكن فعل شيء له. اليوم أيضاً ابتُلِيَ المسلمون بهذه المجموعة من المنافقين، ومهمّة المسلمين إزاء هؤلاء المنافقين أصعب من مهمتهم إزاء محمَّد رضا؛ [لأنَّ] محمَّد رضا كان واقفاً يضرب ويقتل، وتكليف الشّعب حياله واضح، كان الشعب يسير لحربه؛ أمّا الجماعة الَّتي تتظاهر بالإسلام، وتدعو له في ظاهرها، وتنادي باسمه في ظاهرها، أقلامها وأقدامها على طريق الإسلام، لكنّهم يعارضون الإسلام خلف السّتار، هؤلاء ماذا يجب أن نفعل لهم؟ التعامل مع هؤلاء صعب جدّاً. مشكلة المنافقين لم يستطع حتى الرسول الأكرم معالجتها، والإمام عليّ أيضاً ابتُلِيَ بهؤلاء، ولم يتسنَّ له الحلّ، فمعالجة هذه المشكلة صعبة»[١].

(١) صحيفة الإمام: ١١/١٩٧-١٩٨.

ومن هنا يمكن القول: إنَّ أصابع النّفاق كانت داخلة في كلّ الكوارث والمصائب الَّتي تعرَّضت لها البشريّة على طول خطّ التّأريخ بل تلك الأصابع محرّكة لها من وراء الكواليس، وما ظهور الطواغيت عبر الدّهور إلا نتاج المنافقين وصناعتهم، إذ إنّنا إذا استقرأنا حياة الطواغيت الّذين أهلكوا الحرث والنَّسل، وأذاقوا البشريّة الأمرّين، وجرَّت من جرّاء ظلمهم بحور من الدماء، - أقول لو تأمَّلنا بدقّة في حياة هؤلاء- لوجدنا حول كلّ طاغية عصابة من المنافقين يلتفّون حوله، ويعيشون على فُتات[1] موائده، ويَثْرون من مِنَحه لهم، ويُزَيّنون لهم ظلم عباد الله، ويزوّدونه بالمعلومات والأساليب الَّتي يبطش بها، فهم عَصاهُ الَّتي يضرب بها، وسيفه الَّذي يذبح به، ورمحه الَّذي يطعن به، ولولا هؤلاء لما استطاع حاكم أن يطغى ويبطش برعيّته؛ وهذا المسلك الإجراميّ لنشر الظّلم بتسليط الطغاة، وتحكيم إرادتهم لاستعباد البشريّة أكَّد عليه صاحب (نظريّة الغاية تبرّر الوسيلة) ميكافيللي في وصيّته للأمير نيقولا، بل لجميع عُشّاق التّسلّط هذه النّظريّة الَّتي تنظر (لتوظيف المكر والازدواجيّة في الكفاءة السّياسيّة أو في السُّلوك العام)، فينصح الأمير بقوله:

«احتفظ بأكبر عدد من المنافقين إلى جوارك، بل شجّع المبتدئين منهم على أن يتمرّسوا على أفعال النّفاق والمداهنة؛ لأنَّهم بمثابة جيشك الدّاخليّ الَّذي يدافع عنك أمام الشَّعب باستماته.. سيباهون بحكمتك

(١) الفُتات بضمّ الفاء: ما تكسّر من الشّيء وتساقط، وهنا المقصود ما يتساقط من المائدة من الطَّعام.

حتى لو كنت أكبر الحمقى، ويدافعون عن أصلك الطّيّب حتّى لو كنت من الوضعاء، ويضعون ألف فلسفة لأقوالك التّافهة، وسيعملون بكلّ همّة على تبرير أحكامك، وسياساتك العشوائيّة، ويعظّمون ملكك، كلّما أمعنتَ في الظلم وبالغتَ في الجباية.. ثم ألقِ لهم بعض الامتيازات التّافهة الَّتي تشعرهم بتفوّقهم عن باقي الشعب... ولكن احذر، لا تتّخذ منهم خليلاً، أو مشيراً لك، ولا تأخذ منهم مشورة أبداً؛ لأنَّ مشورتهم خادعة، ومجالستهم ستجذبك فوراً إلى الوضاعة، وتجلب لك العار... ألقِ لهم الفُتَات باحتقار، ولا تُعلِّ من قدر أحدهم، اجعل لهم سقفاً لا يتخطّونه، وكن على يقين أنَّهم سيصبحون أكبر خطر يتهدّدك، وسيتحوّلون في لحظة إلى ألدّ أعدائك، إذا تهاوى مُلكُك أو ضعف سلطانك، أو ظهر مَن ينافسك بقوة على العرش... سيبيعونك في لحظة لمن يدفع أكثر، ويقدّمون فروض الولاء والطّاعة لمن يأتي من بعدك بدون لحظة أسف على رحيلك.. يجب عليك أيّها الأمير أن تتعلّم كيف تفرّق بين حقراء القوم وأعزّتهم...

والمنافقون هم أحقر البشر، وقد أوجدتهم الطَّبيعة، لخدمة الملك، كما أوجدت الكلاب لخدمة الراعي، وهم موجودون في كل الممالك والسَّلاطين، وحيثما يوجد الحاكم، وينامون على رصيف القصر»[(١)].

---

(١) من كتاب الأمير، كما هو منشور في كثير من المواقع الالكترونية على الشبكة العنكبوتية، وهو وصف دقيق، بل أروع وأدقّ ما وصف به المنافقون.

وهكذا نجد في بطانة كلّ طاغية «شيوع النّفاق والتّملّق من جانب الحاشية له، أو من جانب الطّاغية نفسه لمن يريد منهم قضاء حاجته»، ولا سيّما إذا كان في بطانة الطّاغية تُجّار الدّين من وُعّاظ السّلاطين الّذين تلبَّسوا بأزياء أهل العلم واتّخذوا العلم مهنةً يرتزقون بها أو من الشُّعراء الّذين في كلّ وادٍ يهيمون، واستطاع الطّاغية أن يشتري ضمائرهم، ويسخرهم؛ لتنفيذ مآربه، ليبرّروا أعماله للنّاس، ويصوّروا عظمته وجلالته، ويقلبوا الحق باطلاً والباطل حقّاً.

وبناءً على ذلك اعتاد الطغاة قبل أن يستولوا على زمام السُّلطة أن يقرّبوا المنافقين الّذين هم على استعداد؛ لتنفيذ كلّ مقاصدهم، وقد عبر القرآن الكريم عن هؤلاء بـ (الملأ)كما في قوله تعالى حين استشار فرعون بطانته: ﴿**وَقَالَ الْمَلأُ**[1] **مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ**﴾[2].

وهكَذا ننتهي إلى اَستخلاص حقيقة جوهريّة هي أنَّ الطُّغاة عموماً هم نتاج النّفاق والمنافقين الّذين يتزلّفون إليه، لينالوا رضاه، وليحتلّوا

---

(١) قال السّيّد ابن إدريس: «هذا حكاية ما قاله أشراف قوم فرعون: إنّ موسى ساحر عليم بالسّحر، وإنّما قيل للأشراف (الملأ) لأمرين: أحدهما: قال الزجاج: لأنّهم مليؤون بما يحتاج إليه منهم، الثّاني: لأنّه يملأ الصدور هيبتهم. وقوم فرعون هم الجماعة الّذين كانوا يقومون بأمره ومعاونته ونصرته، ولهذا لا يضاف القوم إلى الله، فلا يقال يا قوم الله، كما يقال يا عباد الله» موسوعة ابن إدريس الحلّي: ٥/٤.

(٢) الأعراف: ١٢٧.

المواقع المتقدّمة في حكومته، ويتسلّطوا بواسطته على رقاب النّاس، وعندما يحقّقون أهدافهم، ويصبحون رقماً مهمّاً في دولته يبذلون جهوداً مضاعفة لإبقاء سلطانه، وتقوية عرشه لا حبّاً له، إنّما حرصاً على ما حصلوا عليه، وطلباً للمزيد من عطاياه؛ ولهذه الأسباب وغيرها كان عذاب المنافقين كعذاب الكافرين، ﴿**إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً**﴾، بل كان عذاب المنافقين أشدّ وأنكى كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾، «أي في الطَّبقة السُّفلى منها وهو قعرها، ولها طبقات سبع تسمّى الأولى كما قيل: جهنّم، والثّانية: لظى، والثّالثة: الحطمة، والرّابعة: السَّعير، والخامسة: سقر، والسّادسة: الجحيم، والسّابعة: الهاوية»[1].

فالمنافقون ﴿**فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النّارِ**﴾، «أي في الطَّبق الأسفل من النّار، فإنَّ النّار طبقات ودركات، كما أنَّ الجنة درجات، فيكون المنافق في أسفل طبقة منها لقبح فعله، وقيل: إنَّ المنافقين في توابيت من حديد مغلّقة عليهم في النّار»[2].

وإنَّما كان المنافقون في الدَّرك الأسفل من النّار؛ لأنَّهم شرُّ أهلها بما جمعوا بين الكفر والنّفاق ومخادعة المؤمنين وغشّهم، فأرواحهم

---

(١) روح المعاني: ١٧٧/٥؛ وينظر: تفسير البحر المحيط: ٥٣٩/٣.

(٢) بحار الأنوار: ٢٤١/٨.

أسفل الأرواح، وأنفسهم أخسّ الأنفس... وغلب عليهم الجهل بحقيقة التَّوحيد، فهم مع إيمانهم يشركون معه غيره... فلمّا كان المنافقون أقذر النّاس أرواحاً وقلوباً كانوا أجدر النّاس بالدَّرك الأسفل من النّار[١].

ويختلف شر النّفاق من زمن إلى زمن آخر، فقد يمارس النّفاق بمصطلحات توحي للسّامع بالمصلحة العامة، وخدمة الجماهير والوطن والدّين والإنسانيّة، ولكن ما هي إلا شِباك لسلب الأموال، وتحقيق المصالح، وصيد العقول، وتدنيس النّفوس؛ ولذلك في كلّ يوم نرى ونسمع بحدوث مصائب وجرائم يندى لها جبين الإنسانيّة باسم (الدّبلوماسيّة)، والوسطيّة، والمرونة، وتسليك الأمور، وتمرير المصالح، والرّأي والرّأي الآخر، وهلمّ جرّا من مصطلحات تخفي في طيّاتها سموماً فكريّة وأخلاقيّة؛ لتنتج الكفر والغدر والفسوق، ولعلَّ هذا معنى ما رُوِيَ عن حذيفة أنَّه قال: «المنافقون الَّذين فيكم اليوم شرٌّ من المنافقين الَّذين كانوا على عهد النّبيّ ﷺ، قلنا: وكيف؟ قال: أُولئك كانوا يخفون نفاقهم وهؤلاء أعلنوه»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود قال: «المنافقون اليوم شرٌّ من المنافقين الَّذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ، وذاك بأنَّ أولئك استخفّوا به وأنَّ هؤلاء أعلنوه»[٣].

---

(١) انظر: تفسير المنار: ٤٧٤/٥.

(٢) الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ٦٧/٥؛ مجمع البيان: ٨٦/٥؛ بحار الأنوار: ٨/٢٨.

(٣) المعجم الأوسط: ١٣٤/٣.

الصّفة الثّامنة: الادّعاءات الجوفاء الفارغة:

يدّعي المنافقون ادّعاءات جوفاء فارغة عن المحتوى الحقيقيّ لما يدّعون فيهم؛ فمثلاً يدّعون الإيمان بالله واليوم الآخر، بينما هم في حقيقة أمرهم لا يؤمنون إلا بمنافعهم ومصالحهم، وإذا أردنا أن نقول بصحّة مدّعاهم فهو إيمانٌ لسانيٌّ يكذّبه سلوكهم الفعليّ، ودليل ذلك قوله تعالى في وصفهم: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ**﴾[1].

وأحسن الزّمخشريّ في بيان حقيقة ادّعاءاتهم بقوله: «كان قولهم: ﴿**آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ**﴾ خبثاً مضاعفاً، وكفراً موجّهاً؛ لأنَّ قولهم هذا لو صدر عنهم لا على وجه النّفاق وعقيدتهم عقيدتهم، فهو كفرٌ لا إيمان. فإذا قالوه على وجه النّفاق خديعة للمسلمين، واستهزاء بهم، وأَرَوهم أنَّهم مثلهم في الإيمان الحقيقيّ، كان خبثاً إلى خبث، وكفراً إلى كفر، وأيضاً فقد أوهموا في هذا المقال أنَّهم اختاروا الإيمان من جانبيه، واكتنفوه من قطريه، وأحاطوا بأوّله وآخره»[2].

وقال الآلوسيّ: «إنَّ تخصيص ذلك بالذّكر [قولهم: آمنا] للإيذان بأنَّهم يبطنون الكُفْرَ فيما لَيْسُوا فيه مُنافقينَ في الجُمْلَة، لأنَّ القَوْمَ في المَشْهُورِ كانُوا يَهُوداً، وهم مُخْلِصُونَ في أصْل الإيمان بالله واليَوْمِ الآخِرِ

(١) البقرة: ٨

(٢) الكشّاف: ٥٥/١.

عَلى ظَنّهمْ، ومعَ ذَلكَ كانُوا يُنافقُونَ في كَيْفيَّة الإيمان بهما، ويَرَوْنَ المُؤْمنينَ أنَّ إيمانَهم بهما مثْلُ إيمانهمْ، فَكَيْفَ فيما يَقْصدُونَ به النّفاق المَحْضَ، ولَيْسُوا مُؤْمنين به أصْلاً، كَنبُوَّة نَبيّنا ﷺ»[1].

وقال الفخر الرّازيّ: «إنّ قولهم للمؤمنين "آمنا" يجب أن يحمل على نقيض ما كانوا يظهرونه لشياطينهم، وإذا كانوا يظهرون لهم التَّكذيب بالقلب، فيجب أن يكون مرادهم فيما ذكروه للمؤمنين التَّصديق بالقلب»[2].

وقال الشيخ الطَّبرسيّ: «ثُمَّ نفى عنهم الإيمان، فقال: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾، وفي هذا تكذيبهم فيما أخبروا عن اعتقادهم من الإيمان والإقرار بالبعث، فبيَّن أن ما قالوه بلسانهم مخالف لما في قلوبهم، وهذا يدلُّ على فساد قول من يقول: الإيمان مجرد القول»[3].

وبغضّ النّظر عن أقوال المفسرين، فالأمر واضحٌ جليٌّ بأنَّ ادّعاء المنافقين للإيمان كذبٌ وخداعٌ وخبثٌ واستهزاءٌ، وممّا يؤكد ذلك ويبرهن عليه قوله تعالى في وصف سلوكهم العمليّ: **﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾**[4]، وبذلك تتجلّى حقيقتهم أنَّهم آمنوا بأفواههم، ولم تؤمن

(١) روح المعاني: ١٤٤/١.

(٢) التّفسير الكبير: ٦٩/٢.

(٣) مجمع البيان: ٩٩/١.

(٤) البقرة: ١٤.

قلوبهم أبداً، وكأنهم مصداق لدعاء الإمام زين العابدين عليه السلام: «فإنَّ قوماً آمنوا بألسنتهم؛ ليحقنوا به دماءهم، فأدركوا ما أمّلوا، وإنّا آمنّا بك بألسنتنا وقلوبنا لتعفو عنّا...»(١).

وأصرح منه قوله تعالى: ﴿**وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ**﴾، وهو أوضح دليل إلى «إنكار ما ادّعوه ونفيه، فسلك في ذلك طريق أدّى إلى الغرض المطلوب. وفيه من التّوكيد والمبالغة ما ليس في غيره، وهو إخراج ذواتهم وأنفسهم من أن تكون طائفةً من طوائف المؤمنين، لما عُلِمَ من حالهم المنافية لحال الدّاخلين في الإيمان»(٢).

وهكذا يتّضح «أنَّ المنافقين لا يعدّون أساساً في عداد المؤمنين لا في الماضي ولا في الحاضر، ولا في المستقبل؛ لأنَّ المستفاد من التَّعبير المذكور هو النَّفي المطلق، وإنَّ إطلاق النَّفي شاملٌ لجميع الأحوال»(٣).

هذا مثالٌ من أمثلة ادّعاءاتهم الوهميّة الكاذبة الّتي يريدون أن يخدعوا المؤمنين بها، فلم يخدعوا إلا أنفسهم، والمشكلة أنَّ المنافقين لم يشعروا بخداعهم؛ لتصنّعهم وتحايلهم وتعلّقهم بالخيالات والأوهام الّتي يتصوّرون أنَّهم من خلالها يستطيعون أن يمرّروا أكاذيبهم وألاعيبهم على الله تعالى وعباده: ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ**﴾، فلا شكَّ بفشل وخيبة من أراد أن

(١) مصباح المتهجّد: ٥٩٠.

(٢) الكشّاف: ١/٥٥.

(٣) تسنيم في تفسير القرآن: ٢/٢٩٧.

يُلبس الأوهام أثواب الحقيقة، والباطل ثوب الحقّ؛ لأنَّ المزيّف لو أُخْفِيَ وراء سبعة حجب كثيفة لا بُدَّ من أن ينكشف ويفتضح المتلبس به، فـ«مَا أَضْمَرَ أَحَدٌ شَيْئاً إِلا ظَهَرَ فِي فَلَتَاتِ لِسانِه وَصَفَحَاتِ وَجْهِه»[1].

قال الشّاعر: [من الطّويل]

ومهما تكن عند امرئ من خليقةٍ وإن خالها تخفى على النّاس تعلمِ

وقال آخر[2]: [من الكامل]

وفي عينيك ترجمةٌ أراها تدلّ على الضّغائن والحقودِ
وأخلاق عهدتُ اللّين فيها غدت وكأنّها زبر الحديدِ
وقد عاهدتني بخلاف هذا وقال الله: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾

إذن لا بُدَّ من أن تتكشّف الحقائق مهما تستّر الإنسان على ما يضمره في نفسه ما دام هناك شعور وإدراك متجدّد في القلوب، ومعلوم أنَّ «الشّعور: الإدراك بالحواس الخمسة، أُخِذَ ذلك من "مسّ الشّعر"، وإذا قيل: فلان لا يشعر، فذلك أبلغ في الذّمّ من أنّه لا يسمع ولا يبصر؛ لأنَّ حسّ اللّمس أعمّ من حسّ السّمع والبصر، ويقال: شعرت بكذا أي أدركت شيئاً دقيقاً... ومنه أُخِذَ "الشاعر" لإدراكه دقيق المعنى، ونَفْيُ ذلك نهاية الذّمّ؛ لأنَّ من لا يشعر بالبديهيّ المحسوس مرتبته أدنى مرتبة من البهائم، وفي هذا تهكّم بهم مع الدَّلالة على نفي العلم بالطَّريق

(١) نهج البلاغة: ٤٩٠، قصار الحكم: ٢٢.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣٧/١٨.

الأولى... والتّحقيق [في الشّعور] أنَّه إدراك ما خفي ودقَّ من حسّيّ وعقليّ... أي إدراك ما فيه من دقّة وخفاء»[١].

أمّا كيف لا يشعرون؟ ببيان أدقّ أجاب المفسّر الكبير السّيّد السَّبزواريّ في تفسيره بقوله: «لأنّ كثرة انهماكهم في الغيّ والضَّلالة أوجبت أنَّهم يرون باطلهم حقّاً، فنفى الله تبارك وتعالى نسبة الشّعور عنهم بكلمة (لا) الظّاهرة في نفي نسبة المدخول في مثل المقام، والدّالّ على الاستمرار، فالآية الشَّريفة في مقام توبيخ المنافقين والتَّشنيع عليهم حيث وصفهم بعدم الشُّعور والإدراك؛ ولعلَّ نفي الشُّعور عنهم مرَّتين تارة بقوله تعالى: ﴿**وَما يَشْعُرُونَ**﴾، وأخرى بقوله تعالى: ﴿**لا يَشْعُرُونَ**﴾ للإشارة إلى نفي أصل الشُّعور عنهم أوّلاً، ونفي أنَّهم لا يشعرون بذلك، فيكون من إثبات الجهل لعدم الشُّعور لهم»[٢].

ونقول فضلاً عمّا تقدّم في علة نفي الشّعور عنهم: إنَّ الإنسان حين يستغرق في أوهامه وخيالاته، ويبقى يلهث وراء أهوائه ورغباته حتّى تهيمن على جميع جوارحه وجوانحه، فلا يعد يرى غيرها، ولا يفكّر بسواها، حتّى يمسي مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ**

(١) لغة المنافقين في القرآن: ٣١.

(٢) مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن: ٩٣/١.

بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾(١)؛ ففي هذه الآية الكريمة بيانٌ تامٌّ واضح لِكَيفيّة تَعَطّل حواسّهم، بل بصائرهم، وعادوا لا يميّزون بين الحقّ والباطل؛ لفقدهم القدرة على التّشخيص فضلّوا يواصلون كذبهم، وغشّهم، وتدليسهم، وخدعهم... ومع ذلك يظنون أنَّهم يخدمون أنفسهم، وهم يخدعونها حتّى أصبحوا: **﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾**(٢)، فمن يكن كذلك كيف يشعر؟

ومن أمثلة ادّعاءاتهم: تشدّقهم بالصَّلاح والإصلاح في الوقت الَّذي يتحرّكون فيه على خطّ التَّخريب والإفساد، ولذا إذا **﴿قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾**؛ وذلك لأوهام يعيشونها، وتصوّرات خياليّة وهميّة تجعلهم يعتقدون أنَّهم ذو عقل متين وتدبير حكيم، وأنَّ المؤمنين بسطاء ساذجون، بل سفهاء لا يعرفون للحياة معنى، كما وصفهم تعالى: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاس قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ﴾**، وادّعاؤهم هذا جاء نتيجة غرور، وطيش، وخفّة عقل، وضعف رأي، وإحساس في دواخلهم بالصّغار والذّلّة؛ ولأجل أن يسدّوا هذا الفراغ في أنفسهم أخذوا يرمون المؤمنين بالسَّفه

---

(١) الأعراف: ١٧٩.

(٢) البقرة: ١٧١.

والضّعف والادّعاء بأنَّهم أعلى رتبة، وأغرز علماً، وأدقّ حكمة؛ فكيف يؤمنون كما آمن الآخرون؟!! فهم «يستنكفون عن قبول التَّعليم، وعن التَّقليد للغير، والتَّسليم لأمره، ولا يرضون بمشاركة النّاس ترفّعاً لمقامهم، ومقامهم أدنى من كلّ أحدٍ، ممّن يقبل التَّعليم والتَّأديب والإرشاد والتَّهذيب»[١].

كلّ هذا مترسخ في مستنقع أنفسهم الفاجرة، وقلوبهم السَّقيمة، وعقولهم الهزيلة؛ ولذا فهم لا يشعرون بذلك كلّه، والعلّة الأساسيّة في عدم شعورهم هو ارتكاسهم بجهلهم المركّب كما وصفهم الفيلسوف الإسلاميّ العظيم صدر المتألّهين بقوله: «اعلم أنّ هؤلاء المنافقين الَّذين ذكرهم الله كانوا من المنتسبين ظاهراً إلى العلم والصَّلاح مع وفور الجهل وقلّة الورع ورداءة الاعتقاد وسوء الخلق، وعند أنفسهم لغاية الحمق والسّفاهة، إنّهم من أهل الصَّلاح والإصلاح لنفسهم ولغيرهم ونظائرهم موجودون في كلّ زمان، مضادّون في أطوارهم وآرائهم لأهل الحقّ في كلّ أوان»[٢].

الصّفة التّاسعة: مرضى القلوب:

الْمَرَضُ: «هو الخروج عن الاعتدال الخاصّ بالإنسان، وذلك

---

(١) صدر المتألّهين، تفسير القرآن الكريم: ٤١٨/١.

(٢) تفسير القرآن الكريم: ٤١٥/١.

ضربان:

الأوّل: مَرَضٌ جسميٌّ، وهو المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ**﴾(١).

والثّاني: عبارةٌ عن الرّذائل كالجهل، والجبن، والبخل، والنّفاق، وغيرها من الرّذائل الخلقيّة نحو قوله: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَهُمُ اللهُ مَرَضاً**﴾(٢).

﴿**أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتابُوا**﴾(٣).

﴿**وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزادَتْهُمْ رِجْساً إِلَى رِجْسِهِمْ**﴾(٤).

وذلك نحو قوله: ﴿**وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيراً مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَاناً وَكُفْراً**﴾(٥).

ويُشبَّه النّفاق والكفر ونحوهما من الرَّذائل بالمرض، إما لكونها مانعةً عن إدراك الفضائل كالمرض المانع للبدن عن التّصرّف الكامل، وإما لكونها مانعةً عن تحصيل الحياة الأخرويّة المذكورة في قوله: ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوانُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ**﴾(٦)، وإمّا لميل النّفس بها

(١) النّور: ٦١، الفتح: ١٧.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) النّور: ٥٠.

(٤) التّوبة: ١٢٥.

(٥) المائدة: ٦٤، ٦٨.

(٦) العنكبوت: ٦٤.

إلى الاعتقادات الرّديئة مَيْلَ البدن المريض إلى الأشياء المضرّة»[١].

وأمّا اصطلاحاً؛ فإنَّ المقصود من مرض القلوب هو الانحراف الفكريّ أو الأخلاقيّ، ويتجلّى بالانحرافات السّلوكيّة الَّتي تظهر في مسيرة الإنسان من خلال تعامله مع نفسه أو مع غيره.

وبعبارة أخرى: هو زيغ وخروج عن الحدّ الوسط، وفقدان للتّوازن الطَّبيعيّ الَّذي يضع الإنسان على جادّة الاعتدال لسلوك منهج السَّعادة في الدُّنيا والآخرة، وهذا يتوقّف على سلامة الفكر، ونضوج العاطفة، واستقامة السّيرة ودليل ذلك التّنفّر والتّذمّر من رذائل الخصال، بل رفضها، والعمل على تزكية النَّفس منها؛ لأنَّ فعل الرَّذائل بجميع أنواعها يترك أثراً سلبيّاً على القلوب بتغطيتها وحجبها عن رؤية الحقّ، وهي كالصَّدأ الَّذي يصيب السَّيف ويزيل بريقه ورونقه، ويبقى ينخر فيه حتّى يفتّته، وكالدَّنس والتّراب الَّذي يتراكم على المرآة فيشوه صفحتها، ويحجب النّور عنها كذلك القلوب تتأثّر بأفعال الإنسان، فكلّ فعل قبيح يترك أثراً على القلب كما عبَّر عنه القرآن الكريم بالرَّين: ﴿**كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ**﴾[٢].

وفي آيات أخرى عبّر عنه بالطَّبع، كما في قوله تعالى: ﴿**لَوْ نَشَاءُ**

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٤٤.

(٢) المطففين: ١٤-١٥.

أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[١]، والطَّبع هو الوسخ الشَّديد، والصّدأ إذا كان على حدّ الثُّبوت، وعلى الصّفات الباطنيّة إذا كانت مثبتة في القلب تكويناً، أو بالتمرين، ويتحقّق الطَّبع بعد الكفر بالحقّ والاعتداء والتّكبّر في قبال الحقيقة، وإذا تحقّق الطبع أنتج سلب التَّوفيق وفقدان النّورانيّة[٢]، حتّى يصبح القلب فاقداً للقدرة على تلقّي العلم، وسماع الحقّ، وفقه الدّين، وهذا ما أكّده القرآن الكريم، يقول تعالى:

﴿وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَفْقَهُونَ﴾[٣].

﴿وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾[٤].

﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إِلا قَلِيلاً﴾[٥].

وفي قوله تعالى: بل طبع الله عليها (القلوب) بكفرهم، دليل وبرهان على أنَّ الطَّبع يتحقّق بفعل الإنسان المخالف لشريعة الله، وليس كما قد يتوهّم بعضهم أنَّ الله هو الَّذي يطبع عليها بشكل إجباريّ، كما قال ﷺ: «إنَّ القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد، قيل: يا رسول الله، وما

---

(١) الأعراف: ١٠٠.

(٢) انظر: التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٦٨/٧-٦٩.

(٣) التّوبة: ٨٧.

(٤) الأعراف: ١٠٠.

(٥) النّساء: ١٥٥.

جلاؤها؟ قال: قراءة القرآن، وذكر الموت»[١].

نعم، إنَّ الله يطبع عليها بفعلهم الَّذي ينبئ ويكشف ما في نفوسهم من قبائح، وقذارات، ولذلك في طائفة أخرى من الآيات تؤكد أن الطبع هذا يتحقق في قلوب الجاهلين، والمعتدين، والكافرين، والمتكبرين المتجبرين كما في قوله تعالى:

﴿كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ﴾[٢].

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾[٣].

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[٤].

﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[٥].

وفي آيات أخرى حول القلوب جاء مصطلح (الختم)، وهو قريب من معنى الطّبع، بل متّحد به مصداقاً لا مفهوماً[٦]، كما في قوله تعالى:

﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٧].

---

(١) عوالي اللآلي: ٢٧٩/١، ح/١١٣.

(٢) يونس: ٧٤.

(٣) الأعراف: ١٠١.

(٤) غافر: ٣٥.

(٥) الرّوم: ٥٩.

(٦) انظر: التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٦/٣.

(٧) البقرة: ٦.

﴿أَفَرَأَيْتَ مَن اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ﴾(١).

فالختم نظير الطَّبع(٢) إلا أنَّ هناك فرقاً بينهما كما ذهب أبو هلال العسكريّ إذ قال: «الفرق بين الطّبع والختم: أنَّ الطَّبع أثرٌ يثبت في المطبوع، ويلزمه فهو يفيد من معنى الثبات واللُّزوم ما لا يفيده الختم، ولهذا قيل: طُبع الدّرهم طبعاً، وهو الأثر الَّذي يؤثره فيه فلا يزول عنه، كذلك أيضاً قيل: طَبْع الإنسان؛ لأنَّه ثابت غير زائل، وقيل: طُبع فلان على هذا الخلق، إذا كان لا يزول عنه، وقال بعضهم: الطَّبع علامة تدل على كنه الشّيء»(٣).

وللذُّنوب آثار سلبيّة كثيرةٌ على قلب ابن آدم، وأخطرها الختم والطَّبع، كما ورد عن رسول الله ﷺ قوله: «"إنّ المؤمنَ إذا أذنب ذنباً كانت نُكْتةٌ سوداءُ في قلبه، فإن تاب ونَزع واستغفر، صَقَلت قلبه، فإن زاد زادت حتّى تُغْلق قلبه، فذلك "الرَّانُ" الذي قال الله جل ثناؤه: **﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾**"، فأخبر ﷺ أنّ الذُّنوب إذا تتابعت على القلوب أغلقتها، وإذا أغلقتها أتاها حينئذٍ الخَتْم من قبل الله

(١) الجاثية: ٢٣.

(٢) انظر: مجمع البيان: ١/٤٤.

(٣) الفروق اللّغويّة: ١١٥-١١٦.

عز وجلّ والطَّبع، فلا يكون للإيمان إليها مَسْلك، ولا للكفر منها مَخْلَص، فذلك هو الطَّبع. والختم الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ﴾، نظيرُ الطَّبع والختم على ما تدركه الأبصار من الأوعية والظروف، الَّتي لا يوصَل إلى ما فيها إلا بفضِّ ذلك عنها، ثم حلّها. فكذلك لا يصل الإيمان إلى قلوب من وَصَف الله أنَّه ختم على قلوبهم، إلا بعد فضّه خَاتمَه، وحلّه رباطَه عنها»(١).

إذن سلامة القلب تتوقّف على فعل الطّاعات، وترك المعاصي والمخالفات، والتّطهّر من رذائل الأخلاق، فقد قيل: «والرَّذائل كلّها أمراض القلوب؛ لأنَّها أسباب ضعفها وآفتها في أفعالها الخاصّة، وهلاكها في العاقبة»(٢)؛ فكلّما ارتكب الإنسان رذيلةً من الرَّذائل تركت على قلبه ريناً، وحُجبَ عنه نورٌ، وأصابت قلبه قسوةٌ، وبذلك يزيغ عن المنهج الحقّ، ويسلك طريق الضّلال، وهذا هو الأثر السّلبيّ الأخطر؛ لأنَّه يمرض القلب، وإذا مرض القلب ارتكس الإنسان في مستنقع الكفر والنّفاق، وعاش الشّقاء في الدُّنيا والآخرة.

ولا بدَّ من أن نشير أنَّ الإنسان كلّما تعلَّق قلبُهُ بحبّ الدُّنيا، وتعشّق زخارفها وزينتها، وانجرف في أهوائها ومغرياتها حتّى تملك عليه أطراف حياته: أفكاره وتصوّراته وتخيّلاته وجميع جوانبه، وحينئذٍ قد تتحوّل إلى

---

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٦٠/١.

(٢) انظر: تفسير ابن عربي: ١٦/١.

ملكة راسخة في نفسه حتّى يصبح عبداً لها، فلا يعود يرى غيرها، ولا يفكّر بما بعدها، فيبقى لاهثاً وراءها لا يقرُّ له قرارٌ، ولا يتذوّق راحة البال وطمأنينة الخاطر، ولعلَّه هذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿**أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**﴾؛ لأنَّه استغرق في حبّ الدُّنيا ولذّاتها، فأعمته عن معرفة سرّ وجوده وعلّة إيجاده حين أبصر إليها، ولم يتبصَّرْ بها حتّى أصبحت منتهى بصره وغاية وجوده، فهي هدفه الوحيد، ولا شيء سواها كما وصف ذلك الإمام عليّ عليه السلام بقوله: «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْه، وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْه»، وقد علَّق الشَّريف الرّضيّ (رضوان الله عليه) على هذا الحديث بقوله: «إذا تأمَّل المتأمّل قوله عليه السلام: «وَمَنْ أَبْصَرَ بِهَا بَصَّرَتْهُ» وجد تحته من المعنى العجيب والغرض البعيد، ما لا تُبلَغ غايته، ولا يدرك غوره، لا سيّما إذا قُرِنَ إليه قوله: «وَمَنْ أَبْصَرَ إِلَيْهَا أَعْمَتْهُ»؛ فإنَّه يجد الفرق بين «أبصر بها» و«أبصر إليها» واضحاً نيّراً وعجيباً باهراً»(١).

وأوضح من ذلك قوله عليه السلام: «وَإِنَّمَا الدُّنْيَا مُنْتَهَى بَصَرِ الأَعْمَى، لا يُبْصِرُ مِمَّا وَرَاءَهَا شَيْئاً، والْبَصِيرُ يَنْفُذُهَا بَصَرُه، وَيَعْلَمُ أَنَّ الدَّارَ وَرَاءَهَا، فَالْبَصِيرُ مِنْهَا شَاخِصٌ، وَالأَعْمَى إِلَيْهَا شَاخِصٌ، والْبَصِيرُ مِنْهَا مُتَزَوِّدٌ، والأَعْمَى لَهَا مُتَزَوِّدٌ»(٢).

فمن أُصيبَ بذلك لا يجد إلى الرّاحة والاطمئنان سبيلاً كما

---

(١) نهج البلاغة: ١٢٨، خطبة: ٨١

(٢) نهج البلاغة: ٢٢٢، خطبة: ١٣٣.

وصف عليه السلام بقوله: «ومَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ الدُّنيا الْتَاطَ[١] قَلْبُهُ بِثَلاثٍ: هَمٍّ لا يُغِبُّهُ[٢]، وَحِرْصٍ لا يَتْرُكُهُ، وأَمَلٍ لا يُدْرِكُهُ»[٣].

وعن العالم (الإمام الكاظم عليه السلام): «من أُشْرِبَ[٤] قلبه حبّ الدُّنيا التاط قلبه منها بأربع: شغل لا ينفكّ عناه، وأمل لا يدرك منتهاه، وحرص لا يبلغ مداه، وهمّ لا يعرف انقضاه»[٥].

وممّا لا ريب فيه أنَّ أكثر النّاس مبتلى بهذه الأمراض بدرجات متفاوتة إلا من رحم الله من عباده الصّالحين المتحرّرين من قيود النَّفس الأمّارة بالسّوء؛ لأنَّ طبيعة النَّفس الإنسانيّة مجبولةٌ على حبّ الدُّنيا بما فيها من جواذب تنجذب النَّفس إليها كالمال والسُّلطان والأولاد والسُّمعة والجاه... وغيرها، والله تعالى يقول: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[٦].

وجميل ما وصف الإمام الرّازيّ ذلك بقوله: «واعلم أنَّ أكثر الخلق

---

(١) التاط به: التصق به، وثبت النَّسب بينهما.

(٢) لا يغبّه: لا يأخذه غبّاً، بل يلازمه دائماً.

(٣) نهج البلاغة: ٥٢٢، قصار الحكم: ٢١٨.

(٤) أي خالط حبّ الدنيا قلوبهم كما يتداخل الشّراب أعماق البدن، وفي قلوبهم بيان لمكان الشّراب؛ ينظر المعجم في فقه القرآن وسرّ بلاغته: ٢٢٥/٣٨.

(٥) الكراجكيّ، معدن الجواهر: ٤٣.

(٦) آل عمران: ١٤

وقعوا في أمراض القلوب، وهي حبُّ الدُّنيا والحرص والحسد والتَّفاخر والتَّكاثر، وهذه الدُّنيا مثل دار المرضى إذا كانت مملوءة من المرضى والأنبياء كالأطبّاء الحاذقين والمريض ربّما قد قوي مرضه، فلا يعود إلى الصّحّة إلا بمعالجات قويّة، وربما كان المريض جاهلاً فلا ينقاد للطَّبيب ويخالفه في أكثر الأمر، إلا أنَّ الطَّبيب إذا كان مشفقاً حاذقاً؛ فإنَّه يسعى في إزالة ذلك المرض بكلّ طريق يقدر عليه، فإن لم يقدر على إزالته، فإنَّه يسعى في تقليله وتخفيفه. إذا عرفت هذا فنقول: مرض حبّ الدُّنيا مستولٍ على الخلق، ولا علاج له إلا بالدعوة إلى معرفة الله تعالى وخدمته وطاعته، وهذا علاجٌ شاقٌّ على النُّفوس، وقلَّ من يقبله وينقاد له. لا جرم [أنَّ] الأنبياء اجتهدوا في تقليل هذا المرض وحمل الخلق على الشُّروع في الطّاعة والعبوديّة من أول وقت القيام من النّوم ممّا ينفع في إزالة هذا المرض من الوجه الَّذي قرَّرناه، فوجب أن يكون مشروعاً»(١).

هذا بصورة عامّة لجميع الخلق، أمّا مرض المنافقين فهو الأخطر والأشدّ على المجتمع البشريّ في جميع مراحله؛ لأنَّه مرض معضلٌ جامعٌ لجميع الرَّذائل النّفسيّة والتلوّثات المعنويّة كالحقد، والحسد، والبخل، والجبن، والشّرك، والغدر، والغشّ، وسوء الظّنّ، والخداع، والتّجبّر، والاستبداد، والمكر، والاحتيال، والتَّضليل، والتَّظاهر، والعدوانيّة، والفسق والفجور، و...الخ، كلّ تلك الرَّذائل وغيرها اجتمعت في المنافقين

(١) التَّفسير الكبير: ٢٩/٢١.

وبدرجات متفاوتة؛ ولذا تراهم متقلّبين من حالة إلى أخرى، ومتلوّنين ألواناً أفكاراً، وسلوكاً، ومواقفاً لا يشبه بعضها بعضاً، فلا استقرار روحيّ، ولا وحدة فكريّة، ولا استقامة سلوكيّة، ولا إخلاص في عمل، ولا صدق في قول، ولا وفاء في عهد، لا ينفتحون إلا على مصالحهم الخاصّة، ولا يقفون عند عهودهم والتزاماتهم سواء مع المسلمين، أو مع غيرهم، فهم يتحرّكون من موقع إلى موقع، وينْقضون العهد مع هذا الفريق إذا كان الوفاءُ مضرّاً بأوضاعهم، كما أنَّهم يفعلون الشيء ذاته مع الفريق الآخر[1]، كلّ هذا التَّناقض في أفكارهم وسلوكهم؛ لأنَّ النّفاق إذا استولى على قلب الإنسان أصبح عليلاً زائغاً يرى الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً، وتنقلب عنده المقاييس والموازين والمعايير؛ ولذا ترى أهل النّفاق كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

«وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفاق، فَإِنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضِلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتِنَاناً...»[2].

وبذلك يصبحون مصداقاً لقوله عليه السلام: «وَلَقَدْ أَصْبَحْنَا في زَمَانٍ اتَّخَذَ أَكْثَرُ أَهْلِه الْغَدْرَ كَيْساً، وَنَسَبَهُمْ أَهْلُ الْجَهْلِ فيه إلى حُسْنِ الْحِيلَةِ. مَا لَهُمْ! قَاتَلَهُمُ اللهُ! قَدْ يَرى الْحُوَّلُ الْقُلَّبُ[3] وَجْهَ الْحِيلَةِ وَدُونَهَا مَانِعٌ مِنْ أَمْرِ اللهِ، وَنَهْيِه فَيَدَعُهَا رَأْيَ عَيْنٍ بَعْدَ الْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَيَنْتَهِزُ فُرْصَتَهَا مَنْ لا

(١) انظر: السّيّد محمّد حسين فضل الله، النّدوة: ٢٥٩/١٠.

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٥، خطبة: ١٩٤.

(٣) الحُوّلُ القُلَّب: الّذي قد تحوّل وتقلّب في الأمور وجربّ، وحنّكته الخطوب والحوادث.

حَرِيجَةَ لَهُ فِي الدِّينِ»[١].

وإذا بلغ الإنسان هذه الدَّرجة من النّفاق أصبح قلبُهُ بؤرةَ فساد جامعة لجميع القبائح تفرز الشُّكوك في كلّ وضع سليم، وتنثر الشُّبهات حول كلّ دعوة حقّ وعدل وخير إنسانيّ، وهذه الشُّكوك والشُّبهات إذا استحكمت في القلب تصبح منبعاً لنفث السُّموم والشُّرور، وتثير الفتن، وتخلق الفوضى والاضطراب، وتُروّج الفساد بأشكاله كلّها؛ ولهذا يمكن القول: أنَّه كلّما يقع فيه الإنسان من مفارقات سلوكيّة، وسقطات أخلاقيّة، وانحرافات فكريّة، ومخالفات شرعيّة هي إفراز لما في قلبه من أمراض كامنة في سريرته وضميره، ووجدانه[٢]، ولربما تظهر على شكل أفعال وسلوكيّات، ولعلَّ هذا هو مضمون قوله تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ**﴾، بل أسند كلّ الانحرافات والمخالفات الشّرعيّة والتّصوّرات الوهميّة والخيالات السَّقيمة إلى أمراض القلوب، وتكرّر ذلك في عشرات الآيات، كقوله تعالى:

﴿**فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ**﴾[٣].

---

(١) نهج البلاغة: ١٠٠-١٠١، خطبة: ٤١.

(٢) الوجدان: ضرب من الحالات النّفسيّة من حيث تأثّرها باللّذّة، أو الألم في مقابل أخرى تمتاز بالإدراك والمعرفة.

(٣) التّوبة: ٥١.

﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾(١).

﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾(٢).

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً﴾(٣).

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلاً﴾(٤).

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾(٥).

﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللهُ أَضْغَانَهُمْ﴾(٦).

(١) الحجّ: ٥٣.

(٢) النّور: ٥٠.

(٣) الأحزاب: ١٢.

(٤) الأحزاب: ٦٠.

(٥) محمّد: ٢٠.

(٦) محمّد: ٢٩.

وخلاصة القول: إنَّ المنافقين مرضى القلوب بأبشع صورة يمكن تصوّرها؛ لأنَّ نفس المنافق جامعة لكلّ المفاسد الفكريّة، والأخلاقيّة، والسّلوكيّة، حتّى تصبح مظلمة لا تقبل النّور محجوبة بما ران عليها من ظلمات الشُّكوك والأوهام والتّخيّلات والأهواء المتراكمة بعضها فوق بعض، قال الإمام عليّ عليه السلام: «إنّ النفاق يبدو لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق عظما، ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاق اسودّ القلب كلّه»(١).

وعن أبي جعفر عليه السلام في الصَّحيح: « مَا منْ عَبْد إلا وَفي قَلْبه نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، فَإذَا أَذْنَبَ ذَنْباً، خَرَجَ في النُّكْتَة نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ؛ فَإنْ تَابَ ذَهَبَ ذلكَ السَّوَادُ، وَإنْ تَمَادى في الذُّنوب زَادَ ذلكَ السَّوَادُ حَتّى يُغَطّيَ الْبَيَاضَ، فَإذَا غُطّيَ الْبَيَاضُ لَمْ يرْجعْ صَاحبُهُ إلى خَيْر أَبَداً، وَهُوَ قَوْلُ اللّه عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ ما كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾»(٢).

ومرض القلوب هذه «عبارة عن فتورها عن درك الحقّ بسبب شوبها بالشُّكوك والشُّبهات وفسادها بالعلايق والأمنيات، كما أنّ مرض الأعضاء عبارة عن فتورها عن القيام بالآثار المطلوبة منها بسبب طروّ الفساد عليها وخروجها عن حدّ الاعتدال. قال تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً﴾»(٣).

---

(١) شعب الإيمان: ٧٠/١، ح/٣٨.

(٢) الكافي: ٦٧٦/٣-٦٧٧، ح/٢٤٣٠.

(٣) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٩/١١.

ومن الواضح أنَّ أمراض القلوب أكثر وأخطر من أمراض الأبدان، والسّرّ في ذلك أنَّ مرض الأبدان أمر محسوس يمكن للمريض اكتشافه في وقته، والاعتراف به إن أراد أو لم يرد، أمّا أمراض القلوب فهي أمرٌ خفيٌّ قد لا يعلمه حتّى المريض نفسه، بل لا يعترف به، ولا يرضى لو نُسِب إليه.

ثمّ إنّ مرض الأبدان قد يسرع في موت حامله، أمّا مرض القلوب فقد يتمادى به وينخره من داخله، وهو غافل عنه إلى أن يبلغه درجة الموت المعنويّ، وهذا هو سرّ الخطورة، ومن كلّ ما تقدم نعرف أنَّ من أخطر أخطار النّفاق هو انقلاب المقاييس الَّتي تجعل المنافق يقلب الحقائق فيُظهر المحاسن، ويخفي القبائح جميعاً، أعاذنا الله من ذلك وجميع المؤمنين.

الصّفة العاشرة: التّفنّن في أساليب الكيد والمكر والتّحايل:

من مزايا المنافقين وأساليبهم البارزة هو تفنّنهم في حَبْك مؤامراتهم بالكيد والمكر والتّحايل في إخفاء ما يرومون القيام به، وإبراز عكسه لكي يوقعوا المستهدف في شباكهم بالخداع، ويحقّقوا أهدافهم عبر هذه الأساليب؛ ولهذا تراهم تتعدّد وسائلهم؛ لأجل الوصول إلى أهدافهم؛ وأدقّ وصف لهذه الأساليب الخبيثة قوله تعالى لرسوله ﷺ:

﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾[1].

وهو أوضح وأروع بيان وتوصيف لتفنّن المنافقين في الإيقاع بالرّسول والرّسالة، وإحداث الفتنة بين المؤمنين؛ لتفريق كلمتهم، وتمزيق وحدتهم، فما تركوا مكيدة، ولا حيلة، ولا خديعة يمكن لهم بها أن يحقّقوا أهدافهم بها في توهين أمر الإسلام، وإيقاف حركته في الوسط الاجتماعيّ إلا واتّبعوها، فتراهم مرّة يدعون النّاس إلى المخالفة لأوامر الرّسول ﷺ، ومرّة يتحالفون مع اليهود ضدّ الإسلام والمسلمين، وثالثة يبنون مسجداً ويَدعون رسول الله ﷺ ليصلّي به؛ ليكسبوا له شرعيّة، ورابعة يخطّطوا لقتل الرّسول في العقبة بعد معركة اليرموك، فأفشلها الله، وهكذا يواصلون مكرهم وكيدهم بدون توقف إلا أنَّ الله تعالى أبطل ذلك كلّه، ونصر رسوله وأظهر دينه على الأديان كلّها.

ولنتابع بعض تلك المكائد، فمرّة يستأذنون الرَّسول ﷺ بعدم الخروج معه في مواجهة الأخطار الخارجيّة بحجج واهية تضحك الثَّكلى، فمثلاً جاء أحدهم وهو جدّ بن قيس إلى النبي ﷺ وهو جالس في المسجد، وطلب من الرسول ﷺ أن يأذن له بالقعود، وعدم الخروج إلى غزوة تبوك، وتذرّع بالخوف والخشية من الوقوع في فتنة بنات الرّوم، قائلاً: «إنّي امرؤ صاحب نساء ومتى أرى نساء بني الأصفر أفتتن،

(١) التّوبة: ٤٨.

فَأْذَنْ لي في الجلوس ولا تفتنّي»[1].

وفي رواية أخرى أنَّه قال: «يا رسول الله، والله إنَّ قومي ليعلمون أن ليس فيهم أحد أشدّ عجباً بالنّساء منّي وأخاف إن خرجتُ معك أن لا أصبر إذا رأيتُ بنات الأصفر، فلا تفتنّي وائذن لي أن أقيم»، وقال لجماعة من قومه: «لا تخرجوا في الحرّ»، فقال ابنه: «تردّ على رسول الله ﷺ وتقول له ما تقول! ثمّ تقول لقومك: لا تنفروا في الحرّ؟! والله لينزلنّ في هذا قرآناً تقرأه الناس إلى يوم القيامة»، فأنزل الله على رسوله في ذلك: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾، ثمّ قال الجدّ بن قيس: «أيطمع محمّدٌ أنَّ حرب الرّوم مثل حرب غيرهم! لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً»[2].

ترى هذا المنافق، ومن على شاكلته يتذرّع بذريعة إبليس حين ﴿**قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾[3]، فتراه يزعم أنَّه يخاف من الوقوع في الحرام إذا رأى بنات الأصفر، ويدّعي أنَّه يخشى من الافتتان بهنّ، وقد يؤدّي ذلك إلى فقدان تقواه وورعه الَّتي اتّسم بها؛ فالذَّريعة الَّتي تذرّع بها هذا المنافق ادّعاؤه الخوف على دينه خشية الوقوع في فتنة النساء، وهو خطر يخشاه

---

(١) المعجم الكبير: ٩٥/١٢.

(٢) تفسير القمّيّ: ٤١٧/٢.

(٣) الحشر: ١٦.

رسول الله ﷺ على أمّته، فجاءه من الوجه الَّذي يظنّ أنَّه يستطيع به استغفال رسول الله ﷺ وخداعه بما يريده الرّسول، ولكن الله فضحه فأنزل قوله تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلا تَفْتِنِّي أَلا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ**﴾[1].

وهكذا كان المنافقون يتذرّعون بحجج ظاهرها الحفاظ على الدّين، والدّفاع عن المذهب كما نراه اليوم في زماننا عند كثيرين ممن تلبّسوا بثياب القداسة الّذين يُشْكلون على أيّ مشروع نهضويّ يتضارب مع مصالحهم، ويخالف ما يروّجونه من أساطير وخرافات، والحقيقة أنَّ وراء ذلك وفي باطنه دوافع نفسيّة دنيئة، وتهرّباً من أداء الواجبات الإلهية الَّتي تكلّفهم بعض المصاعب والمعاناة، والخروج ممّا اعتادوا عليه من عادات وتقاليد لا تنفع الإسلام، ولا تضرّ أعداءه، فتراهم يتركون أهمّ الواجبات الإسلاميّة بذريعة الحفاظ على تقواهم وورعهم واستقامتهم.

وهذا لا ينحصر بزمان دون زمان، إنّما يتكرّر في كلّ زمان، وإذا كانت الذّرائع الَّتي يتستّرون بها أيّام رسول الله ﷺ سهلة وبسيطة، فاليوم لُبِسَت بثوب العلم والإيمان والحفاظ على الإسلام وضرورات المذهب ومصلحة الوطن؛ وقد رأينا من طُلاب العافية الَّذي يعتاشون باسم الدّين والمذهب ويعتزلون المجتمع في حالة تفشّي البدع وانتشار الأفكار الإلحاديّة والحركات المنحرفة بذريعة الخوف على دينهم، والحفاظ

(١) التّوبة: ٤٩.

على تقواهم، والحقيقة هي تَهَرّب عن أداء أشرف الفرائض الإسلامية كالأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والدّعوة إلى الله تعالى لهداية الخلق إليه تعالى.

وكم قرأنا وسمعنا ورأينا من المُتَزيّين بزيّ الدّين والإيمان ممّن يطعنون الهداة والدّعاة إلى الله تعالى، ويرمونهم بأقبح التُّهم تصل بهم حدّ إخراجهم من ولاية الله تعالى ورسوله وأهل بيته صلوات الله عليهم، ولا سيّما التَّركيز على السّاعين لهداية الخلق من خلال التَّعريف بالإسلام المحمّديّ الأصيل، ونقد الأساطير والخرافات وتصحيح عقائد النّاس المشوبة بكثير من الأوهام ممّن لم يتلقّوا عقائد الإسلام وأحكامه من أهل العلم والمعرفة بإثارة الشُّبهات والشُّكوك والتُّهم الّتي لا أصل بها، فهم يحاربون عباد الله المخلصين باسم الله تعالى، وباسم الحفاظ على الأصالة مرّة، وباسم الولاية مرّة أخرى، وباسم المرجعيّة ثالثة، وإذا كلّفتهم المرجعيّة بأدنى التَّكاليف تنصَّلوا وتهرَّبوا بحجج واهية لا أصل لها، والحقيقة هي انسياقهم وراء الأهواء النَّفسيّة وخشيتهم من توعية النّاس الّذين خُدعوا بهم، ورحم الله الإمام الخميني قدّس سرّه الَّذي عانى من المنافقين أكثر ممّا عانى من السّافاك، حتّى اضطرّ أن يصرّح على رؤوس الأشهاد بقوله:

«الَّذين نعاني منهم اليوم هم المنافقون، الّذين يظهرون الإسلام، ويريدون قصم ظهر الإسلام. يواجه المسلمون صعوبة في التَّعامل معهم،

فمعالجة مشكلتهم صعبة جدّاً، هؤلاء يختلفون عن (نصيري)[١] المعلوم أمره، و(هويدا)[٢] المعلوم أمره. كان واضحاً أنَّ (هويدا) عدوٌّ للإسلام والمسلمين، ومن المعروف أيضاً أفعال (نصيري) مع النّاس، وموقف النّاس منه معلوم، قبضوا عليهما وعاقبوهما، ولكنّ ذلك المتظاهر بالقداسة الَّذي يمسك مسبحةً بيده، ويقول: إنّه يخدم الإسلام، ماذا نفعل لهذا المتظاهر بالقداسة؟ لا يمكن فعل شيء لجماعة المنافقين هذه. الإسلام منذ بزوغه، منذ فجره إلى اليوم يعاني من هذه الجماعة. ومعالجة مشكلتهم أعقد من كلّ مشكلة بالنّسبة للإسلام والمسلمين. الّذين هتفوا للإسلام، ويهتفون، ونادوا بالوطنيّة والإسلاميّة، وما إلى ذلك، بعد ذلك اتَّضح أنَّ هذا الَّذي تظاهر بالإسلام والوطنيّة مرتبطٌ بأمريكا، وبعض متنوّرينا على هذه الشّاكلة، إنَّهم منافقون لو وقفوا بوضوح وبرجولة... فمشكلة المنافقين من أعظم المشكلات الَّتي يواجهها شعبُنا، وكانت تواجه الإسلام منذ البداية، ما اللازم فعله لمعاوية مثلاً وهو إمام جماعة؟ ويريد أن يقاتل قربةً إلى الله بزعمه ولأجل الإسلام، إنَّه منافقٌ أفهَمَ أهالي الشام أنَّه رجل مسلم، ومن يعارض أمير المؤمنين عليه السلام ليس بمسلم أيضاً. يشيع أنَّ هناك أمير المؤمنين ليس بمسلم، حتّى أنَّهم حينما أخبروا أهل الشَّام أنَّ علياً قُتِلَ في محراب العبادة، قالوا: وهل يصلّي عليٌّ؟ وماذا كان عليٌّ يفعل في المسجد؟ ماذا يجب فعله لهؤلاء سوى العياذ بالله تبارك

(١) هو رئيس منظمة الأمن الإيرانية المسمّاة (السّافاك) في عصر الشاه محمَّد رضا بهلوي.

(٢) هو رئيس وزراء إيران في عصر الشّاه.

وتعالى وسوى فضحهم؟ على الشَّعب أن يفضحهم»[١].

الصّفة الحادية عشرة: السّعي المتواصل لنشر الفساد:

ومن صفاتهم العمليّة السَّعي المتواصل لنشر الفساد الفكريّ والأخلاقيّ في كل مجال يَحلّون فيه، بل حتّى في أقدس الأعمال والمواقف كالخروج للجهاد؛ ولذلك صوَّر لنا القرآن الكريم أساليبهم حتّى مع وجودهم في وسط الجيش الإسلاميّ كما في قوله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾[٢]، أولئك الّذين استأذنوا وقعدوا مع القاعدين، فوقى الله المسلمين شرَّهم؛ ولهذا أذن لهم رسول الله ﷺ بالقعود؛ لأنَّه يعلم ما سوف يُحْدِثونه أثناء المعركة من فساد وتشويش واضطراب يعكسون فيه ما في أنفسهم من شكوك وجبن وانهزام نفسيّ وسقوط أخلاقيّ قد ينعكس على بعض الخواصر الضَّعيفة في الجيش؛ ولذلك أذن لهم «ليصان الجمع من الخبال وفساد الرّأي وتفرّق الكلمة، والمتعيّن أن يقعدوا، فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم، والتَّفتين فيهم، وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب، وهم سمّاعون لهم، يسرعون إلى المطاوعة لهم، ولو لم يؤذن لهم فأظهروا

---

(١) صحيفة الإمام: ١١/١٩٨-١٩٩.

(٢) التّوبة: ٤٧.

الخلاف، كانت الفتنة أشدّ والتّفرّق في كلمه الجماعة أوضح وأبين. ويؤكّد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: ﴿**وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ**﴾[1]، فقد كان تخلّفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدّة يتوسّمه في وجوههم كلُّ ذي لبّ، ولا يخفى مثل ذلك على مثل النبي ﷺ وقد نبّأه الله بأخبارهم»[2].

ومع ذلك عاتب الله تعالى رسوله عتاب بلطف مع أنَّه ﷺ كان «يتوسّم منهم النّفاق والخلاف، ويعلم بما في نفوسهم ومع ذلك، فعتابه ﷺ بأنه لِمَ لَمْ يكفّ عن الإذن، ولم يستعلم حالهم، ولم يميّزهم من غيرهم ليس إلا عتاباً غير جدّيّ للغرض الَّذي ذكرناه»[3]، وهو أنَّه ﷺ لو لم يأذن لهم؛ لَتَخلَّفوا وقعدوا، وانكشف ما في نفوسهم على رؤوس الملأ، واتّضح نفاقهم للجميع، ولاحترز المسلمون من مكائدهم وحيلهم ومكرهم، إذن «بعدم السّماح يثبت الكاذب منهم من الصّادق محصلة، وإذا ما ثبت كذبهم فإنَّ الباقي من القوم يأخذون حذرهم من هؤلاء المنافقين؛ لأنَّ أخطر ما يكون على الإسلام وأهله هم المنافقون في كلّ حين وزمان، فإذا تمَّ تشخيصهم بدقّة فإنَّ الحذر سيقي القوم من التَّماهي بمجاراتهم، هذه الفئة الضّالّة، ممّا يفضي إلى وقوع الصّادقين (المؤمنين)

(١) التّوبة: ٤٦.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٥/٩.

(٣) المصدر نفسه: ٢٨٧/٩.

في شرّ كيد الكاذبين من دون أن يشعروا فيتزعزع الدّين وتتزلزل ثوابته وتنهدّ الثّقة فيما بين القوم دون أن ينهد النّبي ﷺ لمعرفة الكذّاب من الصّادق منهم ابتداء»[١].

لهذا جاء عتاب السّماء لرسول الله ﷺ عتاباً شفّافاً رقيقاً، لأنَّه لمّا أذن لهم النّبيّ ﷺ أصبح لهم عذرٌ في التّخلّف والقعود، وبقي نفاقهم مكتوماً في نفوسهم، مع أنَّه ﷺ «لم يكن يخفى عليه ذلك [نفاقهم] وأنَّ حقيقة المصلحة إنَّما كانت في الإذن، وهي سدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة؛ فإنَّه ﷺ كان يعلم من حالهم أنَّهم غير خارجين البتّة سواء أذن لهم في القعود، أم لم يأذن، فبادر إلى الإذن حفظاً على ظاهر الطّاعة ووحدة الكلمة»[٢].

وحتّى لو خرجوا سواء أذن لهم النبي ﷺ أو لم يأذن فإنَّ خروجهم سيعرقل سير المعركة، وسيضرّ المقاتلين المسلمين بأضرار بالغة الخطورة كما في قوله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ**﴾[٣]، ففي هذه الآية الكريمة كشف عن مكنونات نفوسهم الَّتي ستظهر فيما إذا خرجوا مع المقاتلين فإنَّهم سينشرون (الخَبال) وهو الشّرّ والفساد بمختلف أنواعه، بأساليب ملتوية بما

---

(١) قراءة تحليليّة ناقدة في التّصوّرات القرآنيّة عند سروش: ٥٤-٥٥.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٨٨/٩.

(٣) التّوبة: ٤٧.

يضمرونه من مكر وكيد وغيّ وضلال، فيُحْدثون اضطراباً في الرّأي، وإرباكاً في المواقف، وتثبيطاً للهمم، وتَجْبيناً للمتردّدين بتهويل قوّة العدو، وتضعيف قوّة المؤمنين من خلال التّشكيك في القيادة وخططها، وبعثاً لليأس في النفوس؛ ولهذه الأسباب- الّتي لم تكن لتخفى على النّبيّ ﷺ- كره الله انبعاثهم وخروجهم لما في نفوسهم من قلق واضطراب، وتخاذل، وانهزام نفسيّ، وكسل روحيّ، وخواء فكريّ؛ وهذا كلُّه نتيجة عدم إيمانهم بالله تعالى وبرسوله.

ولا شكَّ أنَّ النفس الّتي تحمل هذه العلل لا يمكن لها أن تخوض ساحات الوغى؛ ولهذا فإنَّ الله ثبَّطهم، وعَوَّقهم، وأضعف عزيمتهم؛ لأنَّهم مصابون بهذه الأمراض الخبيثة في قلوبهم.

وهذه الحالات في سير المنافقين لا تنحصر في حروب عصر صدر الإسلام، وإنَّما تتجدد في كل زمان، كما أنَّها لا تنحصر في القتال فقط، بل قد تسري في جميع مشاريع الإصلاح والتَّغيير على مختلف الصُّعد الفكرية والسّياسيّة والاقتصاديّة، فقد رأينا المنافقين كيف وقفوا مواقف سلبيّة بوجه أي مشروع لا يَدُرّ عليهم منافع ماديّة.

وتسترسل الآية الكريمة في بيان الخطر الثّاني لخروجهم، فتقول: ﴿**وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ**﴾ والإيضاع هو الإسراع في السَّير[1]، ولكنّ المنافقين لا يسرعون في السَّير لأداء الواجب الجهاديّ المقدّس، وإنّما

---

(١) ينظر: مجمع البحرين: ٤/٤٠٥.

كما يقول المفسّرون: إنّهم يسرعون في التّسلّل وسط جيش المؤمنين؛ لنشر الاختلافات، وخلق أجواء متضاربة مضطربة وسط المقاتلين، وتشكيك بعضهم بالبعض الآخر، ونشر الأكاذيب والافتراءات بالغيبة والنَّميمة، وما إلى ذلك من أساليب دنيئة تفرزها قرائحهم العليلة، وهدفهم من ذلك هو الإضرار بالإسلام والمسلمين؛ لإيقاعهم بالمحن والمصائب الَّتي يحدثها اختلاف الكلمة من خلال إثارة الشُّكوك والشُّبهات والاتّهامات الَّتي يثيرونها بين المؤمنين؛ لأجل التشويش والاضطراب في صفوف المقاتلين.

والمشكلة الكبرى هنا هي أنَّ في صفوف المسلمين ﴿**سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾ من ناقصي الإيمان والوعي الّذين لم يكتمل فيهم روح التَّغيير الإيمانيّ فيستمعون إليهم، ويتأثّرون بكلامهم، وينشرون أكاذيبهم، وافتراءاتهم؛ إما لجهل بحقيقتهم، وإما لعدم نضوجهم الإيماني أو عدم وعيهم الاجتماعيّ والسّياسيّ، وقيل إنَّ هؤلاء السّمّاعين لهم هم عيون للمنافقين ينقلون إليهم ما يسمعونه من المسلمين.

وجميل ما أوجزه صاحب التفسير الكبير الإمام الرّازيّ في إضرار خروجهم بقوله: «واعلم أنَّ حاصل الكلام هو أنَّهم لو خرجوا فيهم ما زادوهم إلا خبالاً، والخبال هو الإفساد الَّذي يوجب اختلاف الرأي وهو من أعظم الأمور الَّتي يجب الاحتراز عنها في الحروب؛ لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه. ثمَّ

بيَّن تعالى أنَّهم لا يقتصرون على ذلك، بل يمشون بين الأكابر بالنَّميمة فيكون الإفساد أكثر، وهو المراد بقوله: ﴿وَلأَوْضَعُوا خلالَكُمْ﴾»[1].

ونستوحي من الآية الكريمة أنَّ على المؤمنين أن يكونوا على مستوى عالٍ من اليقظة والفطنة لرصد هذه الحالات في أوساطهم، وفيما يحيط بهم من مخطّطات ومكائد من أعداء الإسلام؛ لأجل تحصين أنفسهم، ورصّ صفوفهم، وصيانة جماعة المؤمنين عموماً من امتداد أصابع الفساد والشّرّ الَّتي تحاول أن تمتدّ على حين غفلة؛ لتنفيذ مخطّطاتها الخبيثة في أوساط المجتمع الإسلاميّ، وبذلك يكون مصداقاً لما يجري اليوم في عصرنا الحاضر من فتن أحدثت مصائب تقشعرّ لها الأبدان، وجرت من خلالها أنهار الدّماء بأساليب لم يخسر فيها أعداء الإسلام شيئاً سوى أنَّهم أجادوا أساليب الحرب النّاعمة...

وممّا تقدّم اتَّضح معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، والمقصود بالفتنة الَّتي سعوا لإيقاع المؤمنين فيها هي تفريق الكلمة، وتمزيق الصّفّ، بل خطَّطوا لقتل الرَّسول صلى الله عليه وآله؛ فقد رُوِيَ عن سعيد بن جبير أنَّه قال: «وقفوا لرسول الله صلى الله عليه وآله في غزوة تبوك على الثّنية[2] ليلة العقبة؛ ليفتكوا به، وهم اثنا عشر رجلاً: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾ أي: ودبّروا لك الحيل والمكائد، واحتالوا

(١) التَّفسير الكبير: ٨٢/١٦.

(٢) الثّنية: طريق العقبة.

في إبطال أمرك ﴿**حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ**﴾، وهو تأييدك ونصرتك، ﴿**وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ**﴾، وغلب دينه وعلا أهله»[١].

وقال الزّمخشريّ: «﴿**وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا**﴾ وهو الفتك برسول الله ﷺ، ذلك عند مرجعه من تبوك. تواثق خمسة عشر منهم على أن يدفعوه عن راحلته إلى الوادي إذا تسنَّم العقبة بالليل، فأخذ عمار بن ياسر بخطام راحلته يقودها، وحذيفة خلفها يسوقها، فبينما هما كذلك إذ سمع حذيفة بوقع أخفاف الإبل وبقعقعة السّلاح، فالتفت فإذا قوم متلثّمون، فقال: إليكم إليكم يا أعداء الله، فهربوا»[٢].

وفي مجمع البيان: «ثمَّ أقسم الله سبحانه، فقال: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ**﴾ الفتنة: اسم يقع على كلّ سوء وشرّ، والمعنى: لقد طلب هؤلاء المنافقون اختلاف كلمتكم، وتشتيت أهوائكم، وافتراق آرائكم، من قبل غزوة تبوك أي: في يوم أحد، حين انصرف عبد الله بن أبي بأصحابه، وخذل النبي ﷺ، فصرف الله سبحانه عن المسلمين فتنتهم. وقيل: أراد بالفتنة صرف النّاس عن الإيمان، وإلقاء الشّبهة إلى ضعفاء المسلمين، عن الحسن»[٣].

وبعبارة أخرى: الفتنة الَّتي كانوا يبتغونها هي إحداث الاختلاف الموجب للفرقة، وتشتيت الكلمة، ولأجل ذلك كانوا يبذلون جهودهم

---

(١) تفسير جوامع الجامع: ٦٩/٢.

(٢) الكشّاف: ٢٩١/٢.

(٣) مجمع البيان: ٦٤/٥-٦٥.

بشكل متواصل على وجه الكيد، والمكر، وإثارة الفتنة، وتنفير النّاس عن قبول الدّين حتّى جاء الحق، وظهر أمر الله، وانتشر الإسلام، وقويت شوكة الإيمان، واندحر المنافقون في جحورهم، ولكنّ المنافقين مهما سُحقَت شوكتهم فهم يبقون على خبثهم ولؤمهم يواصلون الكيد والمكر وحَبْك المؤامرات للوقيعة بالمؤمنين ولعرقلة حركة الإسلام، ولكن الله تعالى أبطل مكرهم وكيدهم ومبالغتهم في إثارة الشّرّ، فإنَّهم منذ كانوا في طلب هذا المكر والكيد، والله تعالى ردَّه في نحرهم، وقلب مرادهم وأتى بضدّ مقصودهم، فلمّا كان الأمر كذلك في الماضي، فهذا يكون في المستقبل(١).

ومع هذا الجهد المتواصل الَّذي يبذله المنافقون لمواجهة الحقّ والخير والعدل والجمال، فإنَّ الشَّقاء والعذاب ملازمٌ لهم في طيلة حياتهم لما يعيشونه من ازدواجيّة مقيتة يتلوّنون فيها ألواناً وينقلبون من حال إلى أخرى، بل يتناقضون حتى مع أنفسهم؛ فمع الكُفّار هم كافرون، ومع المؤمنين هم مؤمنون، لا يقرّ لهم قرار، ولا يستقرّون على حال، بل يتلوّنون تلوّن الحرباء، ولا شكَّ أنَّ هذا التَّناقض، والتّقلّب، والتّلوّن، والتّصنّع يجعلهم في قلق واضطراب دائمَين، معذّبينَ أشقياء.

هذا في الدُّنيا، أمّا في الآخرة فإنَّ جهنم تطوّقهم من جميع جوانبهم، من فوقهم ومن تحتهم كما نصَّ القرآن الكريم: ﴿**وَإِنَّ جَهَنَّمَ**

---

(١) انظر: التَّفسير الكبير: ٨٣/١٦

لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾[١]، وهو تعبيرٌ دقيقٌ عن حالة الشّقاء والعذاب الّتي يعيشها المنافق، فكما أنَّ النّار تطوّقهم يوم القيامة فهنا في الدُّنيا أيضاً محيطة بهم؛ «لأنَّ أسباب الإحاطة معهم، فكأنَّهم في وسطها»[٢].

إذن المنافقون يعيشون حالات القلق والاضطراب حتّى لو ملكوا أموال الدُّنيا، بل حتّى الأموال هي بذاتها عذاب لهم في الدُّنيا والآخرة كما في قوله تعالى: **﴿فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم﴾**[٣]، الّتي سعوا لتحصيلها بالعناد والتّعب، فهي لهم عذاب وشقاء لما يعيشونه من حرص وطمع وشحّ؛ لأجل زيادة أموالهم والمحافظة عليها، فأصبحت علّةً لقلقهم واضطرابهم، وبالتّالي هلاكهم.

ورد في الحديث الشَّريف: «ثلاث مهلكات: شحّ مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه من الخيلاء»[٤].

وفي حديث آخر: «هلك المكثرون إلا من قال بماله هكذا وهكذا»، يعني يتصدّق من كلّ جانب[٥].

وفي الحديث المرفوع إلى رسول الله ﷺ: «من كثر ماله اشتدَّ حسابه، ومن كثر بيعه كثرت شياطينه، ومن ازداد من السُّلطان قرباً، ازداد

(١) التّوبة: ٤٩.

(٢) الكشّاف: ٢/٢٧٧.

(٣) التّوبة: ٥٥.

(٤) المعجم الأوسط: ٥/٣٢٨.

(٥) كتاب المبسوط: ٣٠/٢٥٨.

من الله بعداً»[١].

أمّا كيف تكون الأموال والأولاد عذاباً للمنافقين فقد كثرت التّعليلات والتّفاسير، فقد قيل: إنَّ السَّبب في هذا العذاب هو أنَّ الله تعالى شدَّد عليهم في التّكليف، وأمرهم بالإنفاق في الزّكاة، والغزو، فيؤدّونها على كره ومشقّة، إذ لا يرجون ثواباً في الآخرة، فيكون ذلك عذاباً لهم.

وقيل: إنَّ الله يعذّبهم بها في محاولة حفظها وصونها، ومع محاولاتهم هذه فإنَّ الأموال قد تتعرَّض لبعض الحالات كالسَّرقة والخسران التّجاريّ، فيصاب صاحبُها بالحزن والغمّ، وقيل: إنَّ المراد أنَّ الله يعذّبهم بجمعها وحفظها وحبّها، والبخل بها والحزن عليها (حين سلبها)، وكلّ هذا عذاب، وكذلك خروجهم عنها بالموت؛ لأنَّهم يفارقونها، ولا يدرون إلى ماذا يصيرون، وفي قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى (لأن)، ويحتمل أن يكون لام العاقبة، والتّقدير إنَّما يريد الله أن يملي لهم فيها ليعذّبهم[٢].

وقيل: إنَّ كلّ من كان حبُّه للشَّيء أشدّ وأقوى كان حزنه أشدّ، وتَألُّم قلبه أعظم وأصعب وكان خوفه أشدّ، وهنالك كثير من التّفسيرات الأخرى..

ولكلّ ما تقدَّم وجهٌ من الصّحّة إلا أنَّه لم يكن هو السَّبب الأصليّ

---

(١) التّفسير الكبير: ٩٣/١٦.

(٢) انظر مجمع البيان: ٦٠/٥.

والعلّة الأساسيّة، وإنّما الأصحّ من ذلك أنَّ الإنسان دائماً يسعى نحو الكمال المادّيّ أو المعنويّ بحسب اعتقاده وميوله وفهمه لمعنى الكمال، ونوعيّة أهدافه في الحياة، فإذا كان يعتقد أنَّ المثل الأعلى الَّذي يحقّق له الكمال هي الأموال، فسيكون أكثر حرصاً على جمعها، وأشدّ شحة في إنفاقها، وأبشع طمعاً في تحصيلها؛ لأنَّ ذلك ينبع من أعماق نفسه حبّاً ورغبةً، والله يقول: ﴿**وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً**﴾[١]، والجمّ هو الكثير الشَّديد، يقال: جمّ الماء في الحوض إذا اجتمع وكثر[٢]، والمعنى: وتحبّون المال حباً بالغ الشّدّة، فأوضح أنَّ الحرص على الدُّنيا يملك قلب الإنسان، ولا يملكه الإنسان، ومن هنا تكون الأموال مصدر العذاب؛ لأنَّه شديد الحرص على جمعها وتحصيلها، والحفاظ عليها، واللّهاث وراءها بأيّة وسيلة كانت، ولا يشبع منها، ولا يتوقّف عند حدّ مهما بلغت كمّيّتها، وقد ورد في الحديث الشَّريف: «لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى إليهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التُّراب»[٣].

وفي حديث آخر: «يهرم ابن آدم، ويبقى معه اثنان: الحرص وطول الأمل»[٤].

(١) الفجر: ٢٠.

(٢) انظر: التّبيان في تفسير القرآن: ٣٤٦/١٠.

(٣) روضة الواعظين: ٣٧٧/٢، ح/١٣٧٧.

(٤) إرشاد القلوب: ٣٩/١.

الصّفة الثّانية عشرة: التّستّر بالإيمان واتّخاذه جُنّة وستاراً لإخفاء قبائحهم:

مع خلوّ قلوب المنافقين من الإيمان فهم يتظاهرون به؛ ليتّخذوه ستاراً يخفون به كفرهم وشركهم.

ومع أدائهم بعض الفرائض الإسلاميّة والطّقوس الدّينيّة إلا أنّ أداءهم ليس عن إيمان وقناعة، إنّما ليتّخذوها جُنّة يتستّرون بها؛ ولذلك خَبُثَت سرائرهم، وتعفّنت ضمائرهم، واستحكمت فيهم العقد النّفسيّة، فصاروا يكتنزون العداء لله ولرسوله وللمؤمنين، ويتظاهرون بعكس ما يضمرون، فأصبحوا ينفثون سموم الحقد والبغض لما «يواجههم من الأزمة الذّاتيّة الّتي يتحرّكون فيها بين واقع الكفر في الباطن، ومظهر الإيمان في الظاهر، فيعبّرون عن ذلك بالمشاعر القلقة الّتي تظهر المحبة، وتبطن العداوة»[1].

ولذلك صاروا ينتهزون الفرص في الأحداث والأزمات، فيظهرون هذه المشاعر في تضخيم الأحداث وتهويلها، فإذا ما سمعوا بنصر الإسلام، وحصول المؤمنين على الغنائم والنّعم الإلهيّة استاؤوا وتألّموا، وإذا ما سمعوا العكس ظهرت ملامح السّرور والفرح على وجوههم، وراحوا يُسَوّقون أوهامهم وخيالاتهم إلى الآخرين، فقد روي عن جابر الأنصاريّ رَحِمَهُ الله أنّه قال: «جعل المنافقون الّذين تخلّفوا بالمدينة يُخبرون عن النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِه أخبار السّوء، يقولون إنّ محمّداً وأصحابه قد جهدوا في

---

(١) تفسير من وحي القرآن: ٢٨٨/٨.

سفرهم وهلكوا، فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النّبيّ ﷺ وأصحابه، فساءهم ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ الآية»[1].

تلك هي نفوس المنافقين، وضمائرهم وقلوبهم المريضة يتظاهرون أنَّهم مع المؤمنين، ويبطنون الكفر والشّرك، ويضمرون الحقد والبغض، فيظهر ذلك بشماتتهم عندما تصيب المسلمين كارثة أو نكبة، وهذا هو ديدن أهل الكفر والشّرك والنّفاق على طول التّاريخ يفرحون عندما يُصاب رسلُ الله وأولياؤُهُ بمصيبة أو بليّة أو انكسار كما أشار تعالى على لسان هارون قائلاً لموسى عليهما السلام: ﴿ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾[2].

ولذلك كان أولياء الله يتعوّذون من شماتة الأعداء كما ورد في الدّعاء الشَّريف: «اللّهم إنّي أعوذ بك من درك الشّقاء، وأعوذ بك من شماتة الأعداء»[3].

وفي بعض الأدعية: «اللهم! لا تجهد بلائي، ولا تشمت بي أعدائي؛ فإنَّه لا دافع، ولا مانع إلا أنت»[4].

وفي دعاء آخر: «ولا تشمت بي عدوّي، ولا تسلطه عليَّ، ولا

---

(١) الدّرّ المنثور: ٢٤٩/٣.

(٢) الأعراف: ١٥٠.

(٣) مصباح المتهجّد: ٩٥.

(٤) المصدر نفسه: ٥٦٥.

تمكّنه من عنقي»(١).

هذا هو ما يستعيذ به المؤمنون، وعلى العكس المنافقون الّذين يظهرون الفرح والسُّرور عندما يُصاب المؤمنون ببليّة أو كارثة أو نكبة كما كشف القرآن الكريم حقيقتهم تلك بقوله تعالى: ﴿**إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ**﴾(٢).

تلك هي نفسيّاتهم السَّقيمة وقلوبهم المريضة المظلمة يُسْعدون بنكبات النّاس وعذاباتهم، ويحزنون إذا أسعد غيرهم، فهم كالجراثيم الَّتي تمتدّ في الأجسام السَّليمة لتفسدها، وتنشط حيثما وجدت ثغرة تنفذ منها؛ لتدمّر الكائنات الحيّة أيّاً كان نوعها.

وقد حذَّرت السّنّة الشَّريفة من مثل هذه الأمراض النَّفسيّة المهلكة، ومنها الشَّماتة، وأوضحت آثارها الوضعيّة على الإنسان الَّذي لا يحتمي منها، فإنَّه سيسقط في مستنقعها؛ فقد ورد عَنْ أَبَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ: عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّه عليه السلام أَنَّهُ قَالَ: «لا تُبْدِ الشَّمَاتَةَ لأَخِيكَ؛ فَيَرْحَمَهُ اللَّهُ، وَيُصَيِّرَهَا بِكَ»، وَقَالَ: «مَنْ شَمِتَ بِمُصِيبَةٍ نَزَلَتْ بِأَخِيهِ، لَمْ يَخْرُجْ مِنَ الدُّنْيَا حَتَّى يُفْتَتَنَ»(٣).

---

(١) المصدر نفسه: ١٩٥.

(٢) التّوبة: ٥٠.

(٣) الكافي: ٤/٨٧-٨٨ ح/٢٧٦٧.

وعن رسول الله ﷺ: «لا تظهر الشَّماتة بأخيك، فيرحمه الله ويبتليك»[١].

الصّفة الثّالثة عشرة: المنافق حَلاف مهين:

الحَلاف: هو كثير الحلف في الحقّ والباطل، لجهله بحرمة اليمين، وعدم مبالاته بعواقب الحنث والكذب؛ ولعدم استشعاره عظمة الله عزَّ وجلّ، يلازم كثرة الحلف والأقسام في كلّ يسير وخطير، وحقّ وباطل، ولا يحترم هذا الحالف شيئاً ممّا يقسم به، والطّامّة الكبرى إذا كان يحلف بالله تعالى، فهذه دلالة على عدم استشعاره عظمة الله وقدسه وهيمنته، وهذا الأنموذج في الأعمّ الأغلب لا يتّصف بالصّدق؛ ولهذا يحاول أن يقنع الآخرين بصدقه من خلال القَسم والحلف، ثمَّ إنَّ كثرة الحلف هذه دليلٌ على عدم ثقة الحالف بنفسه، كما لا يطمئنّ لثقة النّاس به؛ ولذا ترى هؤلاء النماذج يحاولون اكتساب ثقة الآخرين باليمين المُغَلّظة.

وإذا تفحصنا هذه الشخصيّات جيّداً نجدها تتّصف بأحطّ الصفات الأخلاقيّة في سلوكهم العمليّ، ونكتشف فيها المهانة والذّلّ والحقارة العمليّة الَّتي توحي بأبشع حالات السّقوط والانحطاط الأخلاقيّ والرّوحيّ والاجتماعيّ[٢].

---

(١) الشّيخ الصّدوق، الأمالي: ٢٩٧، ح/٣٣١.

(٢) انظر: تفسير قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، في كتب التّفسير مثل: الميزان، الأمثل، من وحي القرآن، روح المعاني، المراغي.

بعد هذه المقدمة المختصرة لا بُدَّ من أن نفهم أنَّ «الحلف: هو اليمين. حلف يحلف حلفاً، وأصلها العقد بالعزم والنّيّة، فخالف بين اللَّفظين تأكيداً لعقده. وإعلاماً أنَّ لغو اليمين لا ينعقد تحته»[١].

وأمّا الأَيمان فهي «جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذة من اليمين بمعنى الجارحة لكونهم يضربون بها في الحلف والعهد والبيعة، ونحو ذلك فاشْتُقَّ من آلة العمل اسم للعمل، للملازمة بينها كما يُشْتَقّ من العمل اسمٌ لآلة العمل كالسَّبابة للإصبع الَّتي يسبّ بها»[٢].

ومختصر القول: اليمين إلزام الإنسان نفسه برابط شرعيّ يلزمه بعمل أو التزام معيّن خَبراً أو إنشاء، وبتعبير العلامة الطّباطبائيّ قُدّسَ سِرّهُ: «فالقسم إيجادُ ربطٍ خاصّ بين شيء من الخبر أو الإنشاء وبين شيء آخر ذي مكانة وشرف بحيث يبطل المربوط إليه ببطلان المربوط بحسب الدَّعوى»[٣].

كراهة الحلف:

ينبغي للمؤمن أن لا يعتاد على الحلف لكلّ صغيرة وكبيرة كما نرى بعض النّاس قد اعتاد على ذلك حقّاً أو باطلاً؛ فإنَّ الشّارع المقدّس قد نهى «عن الجرأة على الله بكثرة الحلف به؛ لأنَّ من أكثر ذكر شيء في معنى من المعاني فقد جعله عرضةً له يقول الرجل: قد جعلتني عرضة

(١) النّهاية في غريب الحديث والأثر: ٤٢٥/١ (حلف).

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ٢٢٢/٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢٠٨/٦.

للومك، وقال الشاعر:

ولا تجعلني عرضة للوائم

وقد ذمَّ الله تعالى من أكثر الحلف بقوله: ﴿**وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلافٍ مَهِينٍ**﴾[١]»[٢].

وكما في قوله تعالى: ﴿**وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ**﴾[٣].

وكفى بهذه الآيات الكريمة رادعاً عن الإكثار من الحلف لكلّ مؤمن ومسلم.

وأمّا السّنّة المشرّفة؛ فقد وردت كثير من الأحاديث تؤكّد كراهة كثرة الحلف والقسم بدون ضرورة ملحّة بحيث لا يمكن إقناع المخاطب إلا بالحلف، نذكر منها على سبيل الإيجاز:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام: «يا عليّ لا تحلف بالله كاذباً، ولا صادقاً من غير ضرورة، ولا تجعل عرضة ليمينك، فإنَّ الله لا يرحم ولا يرعى من حلف باسمه كاذباً»[٤].

وعنه صلى الله عليه وآله قال: «مَنْ أَجَلَّ اللَّهَ[٥] أَنْ يَحْلِفَ بِهِ، أَعْطَاهُ اللَّهُ خَيْراً مِمَّا ذَهَبَ مِنْهُ»[٦].

---

(١) القلم: ١٠.

(٢) التَّفسير الكبير: ٨٠/٦

(٣) البقرة: ٢٢٤.

(٤) تحف العقول: ١٤.

(٥) أي عظَّم الله.

(٦) الكافي: ٧٠٨/١٤، ح/١٤٦٧٣.

وعن الإمام الصّادق عليه السلام: «يَا سَدير، مَنْ حَلَفَ باللَّه كَاذباً كَفر، وَمَنْ حَلَفَ باللَّه صَادقاً أَثم؛ إنَّ اللَّهَ- عَزَّ وَجلَّ- يَقُول: ﴿**وَلا تَجْعَلُوا الله عُرْضَةً لأَيْمَانكُمْ**﴾»[(١)].

عَنْ عَبْد اللَّه بْن سنَان، عَنْ أَبي عَبْد اللَّه عليه السلام قَالَ: «اجْتَمَعَ الْحَوَاريُّونَ إلى عيسى عليه السلام، فَقَالُوا لَهُ: يَا مُعَلّمَ الْخَيْر، أَرْشدْنَا. فَقَال لَهُمْ: إنَّ مُوسى نَبيَّ اللَّه أَمَرَكُمْ أَنْ لا تَحْلفُوا باللَّه كَاذبينَ، وَأَنَا آمُرُكُمْ أَنْ لا تَحْلفُوا باللَّه كَاذبين وَلا صَادقينَ»[(٢)].

و عَنْ أَبي بَصير، قَالَ: «حَدَّثَني أَبُو جَعْفَر عليه السلام: أَنَّ أَبَاهُ كَانَتْ عنْدَهُ امْرَأَةٌ منَ الْخَوَارج - أَظُنُّهُ قَالَ: منْ بَني حَنيفَةَ - فَقَال لَهُ مَوْلًى لَهُ: يَا ابْنَ رَسُول اللَّه، إنَّ عنْدَكَ امْرَأَةً تَبَرَّأُ منْ جَدّك، فَقُضيَ لأَبي أَنَّهُ طَلَّقَهَا، فَادَّعَتْ عَلَيْه صَدَاقَهَا، فَجَاءَتْ به إلى أَمير الْمَدينَة تَسْتَعْديه، فَقَال لَهُ أَميرُ الْمَدينَة: يَا عَليُّ، إمَّا أَنْ تَحْلفَ، وَإمَّا أَنْ تُعْطيَهَا. فَقَالَ لي: قُمْ يَا بُنَيَّ، فَأَعْطهَا أَرْبَعَمائَة دينَار. فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَه، جُعلْتُ فدَاكَ، أَلَسْتَ مُحقّاً؟ قَالَ: بَلى يَا بُنَيَّ، وَلَكنّي أَجْلَلْتُ اللَّهَ أَنْ أَحْلفَ به يَمينَ صَبْر[(٣)]»[(٤)].

وفي باب النَّهي عن الحلف لأجل إنفاق السّلعة وردت أحاديث أخرى:

---

(١) الكافي: ٧٠٩/١٤، ح/١٤٦٧٥.

(٢) المصدر نفسه: ٧٠٨/١٤، ح/١٤٦٧٤.

(٣) من حلف على يمين صبر، أي ألزم بها وحبس عليها، وكانت لازمة لصاحبها من جهة الحكم.

(٤) الكافي: ٧٠٩/١٤، ح/١٤٦٧٦.

فقد رُوِيَ عن الإمام علي عليه السلام أنّه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْحَلْفَ؛ فَإِنَّهُ يُنَفِّقُ السِّلْعَةَ، وَيَمْحَقُ الْبَرَكَةَ»[1].

وعن الإمام الصّادق عليه السلام قال: «إنَّ الله ليبغض المنفق سلعته بالأيمان»[2].

والأحاديث كثيرة في ذلك نكتفي بما تقدّم، ونعود إلى أصل الموضوع، وهو كَثْرَةُ حلف المنافقين، فإنَّه مما يميّز المنافقين أنَّهم يحاولون أن يثبتوا أحقّيّة لعبهم وأكاذيبهم وأحابيلهم؛ ويروّجوا مفترياتهم بالقسم والحلف ولو كذباً؛ ليخدعوا الآخرين، ويمرّروا ما خطّطوا له.

والعجب العجاب أنَّ مشتقّات لفظة الحلف وردت في القرآن الكريم ثلاث عشرة مرّة، واحدة في كفارة اليمين، والبقية جاءت في ذمّ المنافقين والتّعريف بهم، والتّحذير منهم، وجاء بصيغة الماضي مرة، وبصيغة المضارع إحدى عشرة مرة؛ لتأكيد استمرارية المنافقين بذلك، وبياناً لخبثهم وحقارتهم، يقول تعالى:

١- ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾[3].

---

(١) الكافي: ٥١/١٠-٥٢، ح/٨٧٤٦

(٢) البرقيّ، كتاب المحاسن: ١١٩/١، ح/١٣١.

(٣) التّوبة: ١٠٧.

٢- ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾(١).

٣- ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾(٢).

٤- ﴿لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾(٣).

٥- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾(٤).

٦- ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلا نَصِيرٍ﴾(٥).

٧- ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ

(١) النّساء: ٦٢.

(٢) التّوبة: ٥٦.

(٣) التّوبة: ٤٢.

(٤) التّوبة: ٦٢.

(٥) التّوبة: ٧٤.

فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(١).

٨- **﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾**(٢).

٩- **﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْماً غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾**(٣).

١٠- **﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾**(٤).

١١- **﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾**(٥).

ونحن من خلال التّأمّل في هذه الآيات الكريمة نرى أنّ كثرة الحلف بحقّ أو باطل جاء مقترناً بالنّفاق، وجارياً على ألسنة المنافقين.

وبنظرة تأمليّة دقيقة فيما تقدم نعرف مدى الكيد والكذب، وقلب الحقائق، والخداع عند المنافقين؛ ففي الآية الأولى والثّانية يحلفون بأنّهم ما أرادوا إلا (الإحسان)، وهذا الإحسان المزعوم ألبسوه ثوب الإيمان إذ بنوا مسجداً؛ ليتّخذوه مركزاً، بل وكراً لِتجمّعهم، وليضعوا خطط الغدر

---

(١) التّوبة: ٩٥.

(٢) التّوبة: ٩٦.

(٣) المجادلة: ١٤.

(٤) القلم: ١٠.

(٥) المجادلة: ١٨.

والكيد والتّآمر على الرّسول ﷺ والمؤمنين، واتّخاذه وسيلةً لتفريق كلمة المؤمنين، وإعداداً لاستقبال فاسقهم (أبي عامر الرّاهب) الّذي حارب الله ورسوله من قبل، ثمّ هرب بعد فتح مكة إلى الطّائف، فلمّا أسلم أهل الطّائف لحق بالشّام، وخرج إلى الروم، ثمّ أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا وابنوا مسجداً، فإنّي أذهب إلى قيصر، وآتي من عنده بالجنود، وأُخْرج محمّداً من المدينة، وكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون أن يجيئهم أبو عامر، فمات قبل أن يبلغ ملك الرّوم، وحين انكشفت خطّتهم أخذوا يحلفون بأنّهم لا يريدون إلا الحسنى[1].

ولذلك أنزل الله فيهم: ﴿**وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ * لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ * أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىَ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلاَّ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾[2].

(١) انظر: مجمع البيان: ١١٠/٥.

(٢) التّوبة: ١٠٧-١١٠.

فمن خلال بناء مسجد يريدون إيقاع الضَّرر بالمسلمين، أو الفتك برسول الله ﷺ من خلال دعوته للصَّلاة في هذا المسجد، وتقوية أسس الكفر، ومحاولة إضلال النّاس عن دينهم باسم المسجد، وتشتيت كلمة المسلمين، واتّخاذه وكراً يجتمعون فيه لحبك المؤامرات والخطط لضرب الإسلام من خلال مسجد يصلّي فيه رسول الله ﷺ، واتّخاذ ذلك جُنَّةً لخداع المؤمنين، ومع ذلك يحلفون: ﴿**إِنْ أَرَدْنَا إِلا الْحُسْنَى**﴾.

والعجب العجاب أنَّ المنافقين على طول خطّ تاريخ الرّسالة الإلهيّة يخطّطون لطعن الدّين بالدّين على قاعدة «حاربوا الدّين بالدّين»، فلا عجب أن يُبنى مسجد ليُقتل به الرّسول ﷺ.

وفي عصرنا ما أكثر المساجد الَّتي بناها الطُّغاة؛ ليَذروا الرّماد في العيون، ويخفوا جرائمهم من خلالها، ويضعونها تحت تصرّف وعاظ السَّلاطين من المنافقين، ومصاديقها منثورة في أكثر بلدان المسلمين بعمارات ضخمة شاهقة وزخارف خياليّة قد لا تجد لها مثيلاً إلا في الأساطير، ولعلَّ هذا ما أشارت إليه بعض الأحاديث الشريفة كما ورد في الكافي: «... مَسَاجِدُهُمْ عَامِرَةٌ وَهِيَ خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، فُقَهَاءُ ذَلِكَ الزَّمَانِ شَرُّ فُقَهَاءَ تَحْتَ ظِلِّ السَّمَاءِ، مِنْهُمْ خَرَجَتِ الْفِتْنَةُ وَإِلَيْهِمْ تَعُودُ»[١].

وفي نهج البلاغة قوله عليه السلام: «... مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذٍ عَامِرَةٌ مِنَ الْبُنَى، خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، سُكَّانُهَا وعُمَّارُهَا شَرُّ أَهْلِ الأَرْضِ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ،

---

(١) الكافي: ١٥/٦٩٠، ح/١٥٢٩٤.

وإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ، يَرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، وَيَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا، يَقُولُ اللهُ تعالى: فَبِي حَلَفْتُ، لأَبْعَثَنَّ عَلَى أُولَئِكَ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ، وَقَدْ فَعَلَ وَنَحْنُ نَسْتَقِيلُ اللهَ عَثْرَةَ الْغَفْلَةِ»(١).

وفي الآية الثّانية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾ روي عن ابن عبّاس قال: «كان أبو برزة الأسلميّ كاهناً يقضي بين اليهود فيما يتنافرون إليه، فتنافر إليه ناس من المسلمين، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالاً بَعِيداً * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً﴾(٢)»(٣).

وفي مجمع البيان: أنّ الطّاغوت الّذي أرادوا أن يتحاكموا إليه هو كعب بن الأشرف كما رُوِيَ عن ابن عبّاس ومجاهد والرّبيع والضّحّاك؛

(١) نهج البلاغة: ٥٤٨، قصار الحكم: ٣٦١.

(٢) النّساء: ٦٠-٦٢.

(٣) المعجم الكبير: ٢٩٥/١١.

وقيل: «إنَّه كاهن من جهينة أراد المنافق أن يتحاكم إليه» عن الشّعبيّ وقتادة؛ وعن الإمامين الباقر والصّادق عليهما السلام أنَّ المَعْنيّ به كل من يتحاكم إليه ممّن يحكم بغير الحقّ، بل رُوِيَ في سبب نزول هذه الآية: «كان بين رجل من اليهود، ورجل من المنافقين، خصومة. فقال اليهوديّ: أحاكم إلى محمد، لأنَّه علم أنَّه لا يقبل الرَّشوة، ولا يجور في الحكم. فقال المنافق: لا بل بيني وبينك كعب بن الأشرف، لأنَّه علم أنَّه يأخذ الرَّشوة، فنزلت الآية، عن أكثر المفسّرين»[1].

وهكذا كان المنافقون يريدون أن يتحاكموا إلى طواغيت الجاهليّة؛ فإذا ﴿**قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً**﴾[2].

فإذا ما عوتبوا على ذلك، قالوا ما أردنا ﴿**إِلا إِحْسَاناً وَتَوْفِيقاً**﴾، وهذا ديدنهم كلّما كشفت أكاذيبهم وافتراءاتهم أنَّهم لا يريدون إلا الإحسان والتَّوفيق أي يعتذرون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، «ويقسمون أنّهم لم يريدوا بالتّحاكم إلى الطَّاغوت إلا التّخفيف عنك ويقولون: إنّا نحشمك برفع الصّوت في مجلسك والخصومة عنده، وإلا التّوفيق بين الخصمين بالتماس واسطة يصلح بيننا من دون الحمل على الحكم المرّ»[3].

واليوم نجد أنَّ مسالك المنافقين القائمة على الكذب والخداع

---

(١) مجمع البيان: ١١٦/٣.

(٢) النّساء: ٦١.

(٣) مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام: ٢٤٤/٤.

تتكرّر وبأساليب أخرى، فألاعيب المنافقين لم تتوقّف عند عهد صدر الإسلام، ولم تنحصر فيه، بل تتكرّر على طول الزّمان؛ فقد رأينا كمّاً من المساجد بُنِيَت من شخصيّات، وجمعيّات، ودول، وأحزاب، وليس لله فيها نصيب، بل اتّخذت لإعداد المجرمين كما يجري في عصرنا من الإجرام الإرهابيّ الَّذي يلغ في دماء المسلمين باسم الدّين والإسلام(١).

وفي الآية الثّالثة يحاولون بمواصلة الحلف المغلّظ أن يثبتوا أنَّهم من المسلمين، ولكنَّ القرآن يؤكّد للمسلمين بأنَّهم ليسوا منهم، ولا يمتّون إليهم بصلة.

وفي الآية التّاسعة بيان واضح بأنَّهم يكذبون بادّعائهم أنَّهم من المؤمنين، وقد تقدَّم حديث الإمام أبي الحسن عليه السلام: «لَيْسُوا مِنَ الْكَافِرِينَ، وَلَيْسُوا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَيْسُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ، يُظْهِرُونَ الإِيمَانَ، وَيَصِيرُونَ إِلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ؛ لَعَنَهُمُ اللَّهُ»(٢).

وفي الآية الخامسة: ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ**﴾، والآية الثّامنة ﴿**يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا**﴾ يبرز نوع آخر من النّفاق وهو أنَّهم

(١) وأنا أكتب هذا الكلمات تذكّرت ما حدث منذ أيّام بعد دعوة أحد المنافقين إلى هدم المشاهد المقدّسة لأئمّة أهل البيت عليهم السلام، واستفزّت دعوته الموالين لأهل بيت النبوّة، فثاروا وهدموا أكثر من أربعين مسجداً كان قد بناها المنافق البعثيّ المعروف بـ(الصّرخيّ) والَّذي دسَّه الصّداميّون إلى الحوزة الشَّريفة، ولمّا انكشفت خبائثه وبان انحرافه هرب والتجأ إلى أحد دويلات الخليج، ليبقى يجمع الأموال من هناك، ويرسلها لأتباعه لينشروا مفاسده، إلا أن الله فضحه وأسقط احبولته النّفاقيّة، والحمد لله.

(٢) الكافي: ١٦٠/٤، ح/٢٨٦٨.

يتزلّفون للمؤمنين، ويحتالون، ويخادعون، ويتملّقون؛ لكي يكسبوا رضا المسلمين، ولكنَّ الله تعالى حذّر المسلمين من مكائدهم، وأوجب الإعراض عنهم؛ لأنَّهم رجسٌ وقذارةٌ، ووباء أخطر من الطّاعون والجدري، بل السّرطان، فلا ينبغي للمسلمين الاطمئنان لهم، بل أوجب على كلّ مسلم أن لا يرضى عنهم، ولو بالمجاملة؛ لأنَّ الرّضا عنهم يسخط الله على الرّاضي عنهم.

والآية السّادسة تؤكّد أنَّهم كفروا بالله بعد إسلامهم، بل قالوا كلمة الكفر، إلا أنَّهم مع ذلك ﴿**يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ**﴾، وهذا هو ديدنهم في كل جوانب حياتهم على طول الزّمن يتلوّنون تلوّن الحرباء، ويتقلّبون تقلّب الغواني[1] العاهرات بحسب مقتضى حالهم، وبحسب ما تقتضي مصالحهم، وتشتهي أنفسهم وهكذا؛ ليبرّروا قبائحهم؛ فإنَّهم قد أعدّوا لكلّ قبائحهم وخبائثهم أعذاراً يتستّرون بها، ويتظاهرون بعكسها، فمثلاً لكي يبرروا قعودهم وعدم مشاركتهم بالحروب الدّفاعيّة تحت قيادة الرّسول ﷺ كما في معركة أحد حين انسحبوا من ساحة المعركة، وفي غزوة تبوك لم يخرجوا مع الرسول ﷺ بحجّة التّخوّف من الوقوع في فتنة بنات الرّوم، ومع ذلك فإنَّهم يحلفون ﴿**بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ**﴾، ولكن الله كشف سرائرهم الخبيثة وضمائرهم الخسيسة بقوله تعالى: ﴿**لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ**

---

(١) جمع غانية، وهي المومس بائعة الهوى.

إلا خَبَالا وَلأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾.

هذه بعض من مفردات التّفنّن في مسالك المنافقين في التّستّر على جرائمهم وقبائحهم؛ ليحقّقوا فيها مخطّطاتهم القذرة، ويخدعوا النّاس بها قاتلهم الله أنّى يؤفكون.

الصّفة الرّابعة عشرة: الجشع والشّره:

من معالم المنافقين وصفاتهم هو شدّة الجشع والحرص على تحصيل الأموال، وتكديس الثّروات المادّيّة وحرمان الفقراء والمساكين منها، وإذا لم يُلبِّ هذه الرّغبة لهم أحدٌ طعنوه وعابوه واتّهموه، ولمزوه، وهمزوه مهما كان ومن كان؛ ولذلك لم يسلم حتّى رسول الله ﷺ من اعتراضاتهم الَّتي تستبطن الطَّعن والتوهين لغرض زعزعة الثّقة في نفوس المؤمنين، وقد عانى رسول الله ﷺ من الأذى منهم كثيراً كثيراً، فصبر وتأسّى بموسى عليه السلام قائلاً: «يرحم الله أخي موسى! قد أوذي بأكثر من هذا، فصبر»[1].

وإلى هذه العلامة النّفاقية أشار القرآن الكريم بقوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ**

(١) كتاب المغازي: ٩٤٩/٢.

رَاغِبُونَ﴾[١].

قال أهل المعاني: «هذه الآية تدلّ على ركاكة أخلاق أولئك المنافقين ودناءة طباعهم؛ وذلك لأنَّه لشدّة شرههم إلى أخذ الصَّدقات عابوا الرّسول، فنسبوه إلى الجور في القسمة، مع أنه كان أبعد خلق الله تعالى عن الميل إلى الدّنيا»[٢].

قال أبو سعيد الخدريّ: «بينا النّبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ يقسّم مالاً إذ جاءه المقداد بن ذي الخويصرة التّميميّ، وهو حرقوص بن زهير، أصل الخوارج، فقال: اعدل يا رسول الله، فقال: ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؛ فنزلت هذه الآية».

وقال الكلبي: «قال رجل من المنافقين يقال له أبو الجواظ لرسول اللّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: تزعم أن اللّه أمرك أن تضع الصَّدقات في الفقراء والمساكين ولم تضعها في رعاء الشاء؟ فقال رسول اللّه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ: لا أباً لك[٣]، أما كان موسى راعياً، أما كان داود راعياً، فلمّا ذهب، قال عليه الصَّلاة والسَّلام: احذروا هذا وأصحابه فإنهم منافقون»[٤].

ولجشعهم وحماقتهم يُلْبسون الحقَّ بالباطل، وينادون بشعار الحقّ، وهم يسلكون منهج الشّرّ والباطل والضَّلال، وخير مثال لذلك هو خروج

---

(١) التّوبة: ٥٨-٥٩.

(٢) التَّفسير الكبير: ٩٨/١٦.

(٣) أي أنت عندي ممن يستحقّ أن يدعى عليه بفقد أبيه، ينظر: لسان العرب: ١١/١٤.

(٤) التَّفسير الكبير: ٩٦/١٦.

الحروريّة[١] كما قال عبيد الله بن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ: «إنَّ الحروريّة لما خرجت وهو مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قالوا: لا حكم إلا لله، قال عليٌّ: كلمة حقّ أريد بها باطل، إنَّ رسول الله ﷺ وصف ناساً إنّي لأعرف صفتهم في هؤلاء يقولون الحقّ بألسنتهم، لا يجوز هذا منهم، (وأشار إلى حلقه) من أبغض خلق الله إليه، منهم أسود إحدى يديه طبي شاة[٢] أو حلمة ثدي، فلمّا قتلهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: انظروا، فنظروا فلم يجدوا شيئاً، فقال: ارجعوا فوالله ما كذبت ولا كذّبت مرّتين أو ثلاثاً، ثم وجدوه في خربة، فأتوا به حتّى وضعوه بين يديه قال عبيد الله: وأنا حاضر ذلك من أمرهم وقول عليّ فيهم»[٣].

فالآية الكريمة ترسم لنا صورة جشعهم بدقّة، فهم إذا أعطاهم رسول الله ﷺ رضوا، وإن توقَّف عن العطاء لمزوه، أي عابوه وطعنوه، ولا سيّما حينما أراد أن يوزّع على الفقراء والمساكين جاءه «الأغنياء وظنّوا أنَّ رسول الله ﷺ يقسّمها بينهم، فلمّا وضعها رسول الله ﷺ في الفقراء تغامزوا رسول الله ﷺ ولمزوه، وقالوا: نحن الّذين نقوم في الحرب ونغزو معه، ونقوّي أمره، ثمّ يدفع الصّدقات إلى هؤلاء الّذين لا

(١) الحروريّة: طائفة من الخوارج، وسمّوا كذلك؛ لنزولهم من حروراء، وهو موضع في الكوفة، أو بجانبها، وخرجت الحرورية أي ثاروا، وخرجوا عن الطاعة، وأعلنوا الحرب على الإمام.

(٢) الطَّبي: حلمات الضّرع الّتي فيها اللّبن من الخفّ والظلف والحافر والسّباع.

(٣) صحيح مسلم: ١١٦/٣؛ المدوّنة الكبرى للإمام مالك: ٤٩/٢.

يعينونه، ولا يغنون عنه شيئاً، فأنزل الله: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ**﴾[1]»[2].

الصّفة الخامسة عشرة: عدم الوفاء بعهد ولا ميثاق:

من صفات المنافقين أنّهم إذا ما اقتضت مصالحهم وأهواؤهم أن يقطعوا على أنفسهم عهوداً ومواثيق مغلّظة فإنّهم يعطون أشدّ العهود والمواثيق، فإذا ما تحقّقت مطالبهم تناسوا تلك العهود وعملوا نقيضها، فإذا ما عوتبوا دفعوها بالتّبريرات الواهية، والأقسام المغلّظة، والتّفسيرات الوهميّة، وهذا ديدنهم سواء مع الله، أو مع الناس، بل مع أنفسهم...

والسّرّ في ذلك أنَّ المنافقين شخصيّات قلقة متلوّنة تتقلّب بحسب مطالبها وأهوائها وشهواتها، وتلهث وراء خيالاتها وأوهامها.. ولذا ترى المنافق في حال حاجته وفقره ينحاز بقوّة إلى أيّة جهة- مهما كانت- يظنّ أنَّها تحقّق بعض مطالبه، بل يندفع بقوّة وحزم وتواصل، ولا يتوقّف... حتّى إذا ما نال مطالبه الّتي سعى من أجلها قَلَب لمن عاهدهم ظهر المجنّ[3]، وتَنكّر لكلّ ما قطعه على نفسه وكأنَّ شيئاً لم يكن، وربما غدر به، وهذا هو مصداق قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ**

---

(١) التّوبة: ٥٩.

(٢) تفسير القمّيّ: ٢/٤٢٥-٤٢٦.

(٣) قلب له ظهر المجنّ: عاداه بعد مودة؛ المعجم الوسيط: ١٤١.

يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لا يَتَّقُونَ﴾[١]، وإن كانت هذه الآية نازلة في الكافرين والمشركين، ولكنّ المنافقين أصدق مصاديقها.

وقد دلَّت على ذلك السّنّة الشَّريفة؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّه صلى الله عليه وآله: ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فيه، كَانَ مُنَافقاً- وَإِنْ صَامَ وَصَلّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ-: مَنْ إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ؛ إِنَّ اللَّهَ- عَزَّ وَجَلَّ- قَالَ فِي كِتَابِه: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخائِنِينَ﴾**[٢]، وَقَالَ: **﴿أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كانَ مِنَ الْكاذِبِينَ﴾**[٣]، وَفِي قَوْلِه عَزَّ وَجَلَّ: **﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتابِ إِسْماعِيلَ إِنَّهُ كانَ صادِقَ الْوَعْدِ وَكانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾**[٤]»[٥].

وقال صلى الله عليه وآله: «أربع خلال من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً: من إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها»[٦].

وهذا كلّه يتّضح لنا بصورة أدقّ وأجلى في قوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتانا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ**

---

(١) الأنفال: ٥٦.

(٢) الأنفال: ٥٨.

(٣) النّور: ٧.

(٤) مريم: ٥٤.

(٥) الكافي: ٧١٣/٣، ح/٢٤٨٠.

(٦) صحيح البخاري: ٦٩/٤.

﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ * فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾[1].

ففي الآية بيان وافٍ لظاهرة تبرز في كثير من الأوساط الاجتماعيّة والسّياسيّة، وهي أنَّ كثيراً من النّاس من يتوجّه إلى الله بصدق وإخلاص في حالات حاجته وفقره، أو عسره وضيقه، أو إذا أحسَّ بأخطار ستداهمه، فحينئذٍ يعطي لله عهداً: أنَّه تعالى إذا أغناه، وأنجاه من شدائده، وحقَّق له ما أرادَ فإنَّه سيؤدّي كلَّ الحقوق الَّتي يوجبها الله تعالى عليه، ولكن بعد أن تحسّنت ظروفه، وامتلأ جيبه، وحقّق الله له كلّ ما تمنّاه تناسى ونسي كلّ ما قطعه على نفسه، بل ربّما تنكّر لكلّ ما قطعه لله على نفسه، وانقلب على عقبه، وعمل على العكس بما يغضب الله ويسخطه، وتناسى ما عاهد الله عليه[2]، ونسي أنَّ الله تعالى أثبت في سجلّه ما ألزم نفسه به، فيمدّه الله بما لا يحلم به، ويمهله لمدّة لعلَّه يثوب إلى رشده،

(١) التّوبة: ٧٥-٧٧.

(٢) لعلّه مما يؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يونس: ٢٢-٢٣، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ العنكبوت: ٦٥.

وقد يمنحه أكثر، ويفيض عليه ابتلاء وامتحاناً له؛ ليستدرجه إلى أن يطغى ويتجاوز حدود العقل والشَّرع، ويشعر بالاستقلال الذّاتيّ، ويتصوّر أن كلَّ ما تحت تصرّفه، وسيطرته مَلَكَه بقوّته، وقدرته، وعلمه، وطاقاته، وإمكاناته مستقلاً عن الله، فيطغى ويتعالى، فيأخذه الله أخذ عزيز مقتدر، هذا مع الله عزَّ وجلَّ.

أمّا مع النّاس فإنَّنا نرى أنَّ كثيراً منهم، ولا سيّما الطّامحين إلى نيل المكاسب المادّيّة الكبيرة، والمناصب الرَّفيعة حينما يخوضون الميدان الاجتماعيّ، ويحاولون أن يجتذبوا أنظار الآخرين، ويكسبوا ثقتهم وودّهم وتأييدهم، فتراهم يطلقون الوعود المعسولة، والأماني الوهميّة، ويبنون للناس قصوراً في الهواء، ويوعدونهم بوعود كبيرة بأَّنهم سيحقّقون كلّ أمانيهم حتّى يُحَوّلوا لهم دنيا النّاس بوعود وهميّة إلى جنان وارفة، فإذا ما توصَّلوا إلى أهدافهم، وسيطروا على الوضع، وتسلَّطوا على رقاب النّاس تناسوا وعودهم وعهودهم، وتنكّروا لكلّ ما قطعوه على أنفسهم، وربما جعلوا بينهم وبين النّاس سدوداً لا يمكن اختراقها حتّى يقطعون عنهم أثير الهاتف، وخير مثال لذلك ما يعرف اليوم بالدّعايات الانتخابيّة الرّئاسيّة أو التّشريعيّة؛ إذ في مرحلة الدّعاية الانتخابيّة ينفتحون على النّاس بألسنتهم وربما بجيوبهم، وبكلّ ما أوتوا من طاقات، فإذا ما نالوا ما سعوا إليه انقلبوا على النّاس، وتنكّروا لوعودهم، وأبدوا عجزهم، وأطلقوا تبريراتهم الواهية، وتبجَّحوا بعلل

أوهى من بيت العنكبوت، وربما أغلقوا أبوابهم بوجوه النّاس، وأصبحوا مستغرقين في عالم أحلامهم، وهذا ما رأيناه بأمّ أعيننا ولمسناه بعد أن كُنّا نسمع به.

وفقهاء الإسلام وإن جوزوا الدّعاية الانتخابيّة إلا أنَّهم حدَّدوا لها شروطاً، ومن خالفها ارتكب حراماً كما في النّصّ الفقهيّ الَّذي يقول: «والموقف الشّرعيّ في الدّعاية الانتخابيّة هو الجواز من حيث العنوان الأوّليّ، إلا أنّه يجب أن لا تصاحب هذه الدّعاية أيّ أعمال محرّمة، وهي عديدة هنا: منها: الكذب على النّاس، فإنّه من أعظم الكذب لأنّه يطال جمعاً كبيراً من الأمّة، فلا يجوز الكذب عليهم في صفات المرشّح أو أعماله أو ميزاته؛ لعمومات حرمة الكذب على الآخرين والتَّغرير بهم... ومنها: الإسراف في الإنفاق على الدّعاية الانتخابيّة، فإذا بلغ الإنفاق حدّاً مفرطاً يصدق عليه الإسراف حرم شرعاً؛ لحرمة الإسراف... ومنها: تجريح المؤمنين الآخرين المرشّحين للانتخابات بهدف تسقيطهم للفوز في الانتخابات، فإنّه تشمله عناوين الغيبة والبهتان وإشاعة الفاحشة وهتك الحرمات ونحوها؛ لهذا يجب أن تكون الدّعاية الانتخابيّة نزيهة من هذه النّاحية أيضاً»[1].

ولكن مع الأسف الشَّديد أنَّ كثيراً من العاملين في الدّعاية الانتخابيّة لا يلتزمون بذلك، ولا سيّما في مسألة الوعود المعسولة وبذل

---

(١) موسوعة الفقه الإسلاميّ طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام: ٣٧٨/١٧.

الأموال، وقد سمعنا بأرقام خياليّة بذلها البعض في دعايته.

وخلاصة الكلام: إنَّ المنافقين لا يوفون بعهد، ولا يلتزمون بميثاق، ولا يَصْدقون بقول إلا ما يخدم مصالحهم، ويشبع شهواتهم، وما دروا أنَّهم مهما حقّقوا من أمانيهم، ومهما استغرقوا في لذائذهم؛ فإنَّ ذلك يهبط بهم إلى أحطّ الدَّركات، فعَنِ ابْنِ أَبِي عُمَيْرٍ عَنْ حَسَنِ بْنِ عَطِيَّةَ عَنْ يَزِيدَ الصَّائِغِ، قَالَ: قُلْتُ لأَبِي عَبْدِ الله عليه السلام: رَجُلٌ عَلَى هَذَا الأَمْرِ[١] إِنْ حَدَّثَ كَذَبَ، وإِنْ وَعَدَ أَخْلَفَ، وإِنِ ائْتُمِنَ خَانَ مَا مَنْزِلَتُه؟ قَالَ: هِيَ أَدْنَى الْمَنَازِلِ مِنَ الْكُفْرِ، ولَيْسَ بِكَافِرٍ»[٢].

قَالَ الفيضَ الكاشانيَّ: «يعني أنَّها أقرب منزلة من منازل الإيمان إلى الكفر إذا جاوزها العبد دخل الكفر، وبهذا يعرف أوّل منزلة من الكفر»[٣].

ثمَّ إنَّ الآية الكريمة تشير إلى آثار نقض العهود والمواثيق، وما تتركه من آثار سلبيّة على مستقبل الإنسان الدّنيويّ والأخرويّ، وأخطر هذه الآثار هي أنَّها تركّز الحالة النّفاقية في قلوب هؤلاء ﴿**فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ**﴾ نتيجة مخالفاتهم لأحكام الله تعالى، وتمرّدهم عليها، والسّرّ في ذلك واضح صريح في قوله تعالى: ﴿**بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا**

(١) أي مصدّق بفرض إطاعتكم.

(٢) الكافي: ٣/٧١١-٧١٢، ح/٢٤٧٧.

(٣) كتاب الوافي: ٤/١٩٩.

كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾(١).

«أي إنَّ سنة اللّه في البشر قد جرت بأنَّ العمل بما يقتضيه النفاق يمكّن النّفاق في القلب ويقوّيه، كما أنَّ العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوّةً ورسوخاً في النفس، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوّي وترسّخ بالعمل الذي يصدر منها؛ فهؤلاء لمّا كان قد رسخ في نفوسهم خلف الوعد واستمرار الكذب - مكّن ذلك النفاق في قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره»(٢).

«وفي هذه الآية دلالةٌ على أنَّ للأفعال السّيّئة، كإخلاف عهد الله وكذبهم، تأثيرها في إيجاد الحالة النّفاقيّة في النَّفس، باعتبار أنَّ الممارسة السّلبيّة قد تترك الكثير من الآثار السّيّئة في الذّات؛ باعتبارها تُدخل الإنسانَ في الأجواء البعيدة عن الله، فيستسلم لإيحاءاتها وامتداداتها، وهذا ما نلاحظه في الكثير من النّاس الّذين ينطلقون بالأعمال المحرّمة، فيستسلمون لنتائجها؛ لتتحوّل- بعد ذلك- إلى عقدةٍ في النفس، تبتعد بهم عن الإيمان، وتدفعهم إلى الوقوع في قبضة النّفاق»(٣).

ثمّ توضّح الآية الكريمة السَّبب الرَّئيس في ذلك كلّه؛ وهو أنّهم نتيجة جهلهم أو ضعف معرفتهم، ونقصان إيمانهم، وهزالة إرادتهم قد يتصوّرون أنَّ الله لا يعلم أسرارهم ومناجاتهم وتصوّراتهم مع أنَّ الله علام

---

(١) التّوبة: ٧٧.

(٢) تفسير المراغي: ١٦٩/١٠.

(٣) تفسير من وحي القرآن: ٣٤٣/٨.

الغيوب؛ فلو علم الإنسان عن وعي، وبصيرة، وإيمان أنَّ الله يعلم كلّ ما توسوس به نفسه فضلاً عما يقترفه بجوارحه، وأنَّه بعين الله، وأنَّ كل حركاته وسكناته تسجّل عليه، وأيقن بذلك يقيناً قاطعاً لا يمكن أن يرتكب هذه الخبائث، وهذا واضح صريح في قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللهَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ**﴾[١].

وقد تعرّض أكثر المفسرين إلى سبب نزول هذه الآية، روى الواحديّ: «عن أبي أمامة الباهليّ، أن ثعلبة بن حاطب الأنصاري أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يرزقني مالاً، فقال رسول الله ﷺ: ويحك[٢] يا ثعلبة، قليل تؤدّي شكره خيرٌ من كثير لا تطيقه، ثمّ قال مرّة أخرى: أما ترضى أن تكون مثل نبيّ الله، فوالّذي نفسي بيده لو شئتُ أن تسيل معي الجبال فضّة وذهباً لسالت؛ فقال: والّذي بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقني مالاً لأوتينّ كلّ ذي حقّ حقّه، فقال رسول الله ﷺ: اللهم ارزق ثعلبة مالاً.

فاتّخذ غنماً، فنمت كما ينمو الدّود، فضاقت عليه المدينة، فتنحّى عنها، فنزل وادياً من أوديتها حتّى جعل يصلّي الظُّهر والعصر في جماعة ويترك ما سواهما، ثمّ نميت وكثرت حتّى ترك الصَّلاة إلى الجمعة، وهي تنمو كما ينمو الدّود حتّى ترك الجمعة.

---

(١) التّوبة: ٧٨.

(٢) ويح: كلمة ترحّم وتوجّع، وقيل هي بمعنى ويل، يقال: ويح له، وويحاً له، وويحه.

فسأل رسول الله ﷺ، فقال: ما فعل ثعلبة؟ فقالوا: اتّخذ غنماً وضاقت عليه المدينة وأخبروه بخبره، فقال: يا ويح ثعلبة، ثلاثاً.

وأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿**خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا**﴾، وأنزل فرائض الصَّدقة، فبعث رسول الله ﷺ رجلين على الصَّدقة، رجلاً من جهينة ورجلاً من بني سليم، وكتب لهما كيف يأخذان الصَّدقة، وقال لهما: مرا بثعلبة، وبفلان رجل من بني سليم، فخذا صدقاتهما، فخرجا حتّى أتيا ثعلبة، فسألاه الصَّدقة، وأقرآه كتاب رسول الله عليه الصَّلاة والسّلام، فقال: ما هذه إلا جزية، ما هذه إلا أخت الجزية، ما أدري ما هذا، انطلقا حتّى تفرغا ثمّ تعودا لي.

فانطلقا وأخبرا السلميّ، فنظر إلى خيار أسنان إبله، فعزلها للصّدقة، ثمّ استقبلهم بها، فلمّا رأوها قالوا: ما يجب هذا عليك، وما نريد أن نأخذه منك، قال: بلى، خذوه فإنَّ نفسي بذلك طيّبة، وإنَّما هي إبلي فأخذوها منه، فلمّا فرغا من صدقتها رجعا حتّى مرّا بثعلبة، فقال: أروني كتابكما أنظر فيه، فقال: ما هذه إلا أخت الجزية انطلقا حتّى أرى رأيي.

فانطلقا حتّى أتيا النّبيّ عليه الصّلاة والسّلام، فلما رآهما قال: يا ويح ثعلبة، قبل أن يكلّمهما، ودعا للسّلميّ بالبركة، وأخبروه بالَّذي صنع ثعلبة والّذي صنع السلميّ، فأنزل الله عز وجل: ﴿**وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ**﴾ إلى قوله تعالى: ﴿**وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾.

وعند رسول الله ﷺ رجلٌ من أقارب ثعلبة، فسمع ذلك، فخرج حتّى أتى ثعلبة، فقال: ويحك يا ثعلبة، قد أنزل الله فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتّى أتى النّبيّ عليه الصّلاة والسَّلام، فسأله أن يقبل منه صدقته فقال: إنَّ الله قد منعني أن أقبل صدقتك، فجعل يحثو التّراب على رأسه، فقال رسول الله ﷺ: هذا عملك قد أمرتُكَ فلم تطعني، فلمّا أبى أن يقبل منه شيئاً رجع إلى منزله، وقبض رسول الله ﷺ ولم يقبل منه شيئاً»[١].

ولكن بعض المفسّرين، قالوا: إنَّ هذه الرّواية لا تنطبق على قصة ثعلبة، ولكن فيها دلالة على أنَّ الإنسان عندما يستغرق في حبّ المال والبنين وتغرّه زخارف الدُّنيا الأخرى، وينخدع بها يتّخذها هدفاً وغايةً في وجوده، تستحوذ عليه وتلهيه عمّا سواها من أبعاد معنويّة روحيّة أو أخلاقيّة أو علميّة، وتنسيه عمّا وراءها، بل تنسيه ذكر الله تعالى، ولعلَّه إلى هذا المعنى أشار تعالى بقوله جلَّ وعلا في آيات عدّة:

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾[٢].

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ

---

(١) أسباب نزول الآيات: ١٧٠-١٧٢.

(٢) الأنعام: ٤٤.

الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾(٢).

الصّفة السّادسة عشرة: المنافق همّاز لمّاز عيّاب طعّان:

الهمز واللّمز لفظتان وردتا في القرآن الكريم، والأصل اللّغويّ فيهما هو التّعييب والتّنقيص بكلام أو إشارة أو غمز في غيبة، أو حضرة، وقيل: إنَّ الهمّاز: المغتاب في الغيب، واللّمّاز المغتاب في الحضرة، وقال أبو إسحاق: الهُمَزة اللُّمَزة الَّذي يغتاب الناس ويغضّهم، وقال ابن الأعرابيّ: الهمز: الغض، واللَّمز الكسر، والهمز العيب(٣).

وفي لسان العرب: «اللَّمْزُ: كالغَمْز في الوجه، تَلْمزُه بفيك بكلام خَفِيٍّ، قال وقوله تعالى: **﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾**(٤)، أَي يحرِّك شفتيه»(٥).

بعد أن اتّضح المعنى اللّغويّ لكلا اللفظين، وموارد استعمالهما نستطيع أن نتأمل في همز المنافقين ولمزهم لعباد الله المتصدّقين

---

(١) التّوبة: ٦٧.

(٢) الأعراف: ٥١.

(٣) التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ١١/٣٠٧-٣٠٨.

(٤) التّوبة: ٥٨.

(٥) لسان العرب: ٥/٤٠٦.

الصّادقين، وبمختلف مستويات صدقاتهم كما في قوله تعالى في آيتين من القرآن الكريم:

الأولى: يوجّهون سهامهم المسمومة إلى رسول الله ﷺ مع كماله وعدالته وعصمته، يقول تعالى: ﴿**وَمِنْهُم مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ**﴾[1].

فترى هنا لم يَسْلم من لمزهم وهمزهم حتّى رسول الله ﷺ؛ «لأنَّ الباعث في الهمز واللّمز: هو التّعلّق بالأمور الدّنيويّة، والمحبّة الشَّديدة بالمال واللّذّات المادّيّة والاضطراب والوحشة عن المحرومين فيها كلاً أو جزءاً: فَعرَّفَ الّذين همزوا ولمزوا بقوله تعالى: ﴿**الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ**﴾[2]»[3].

هذا لمزهم وهمزهم لرسول الله ﷺ.

الثّانية: تعيابهم وتنقيصهم الَّذي تمثّل في الاتّهام والطَّعن والتّوهين للمؤمنين المتطوّعين؛ الّذين بذلوا أموالهم استجابة لدعوة رسول الله ﷺ للتّصدّق لأجل نصرة الإسلام، فتصفهم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ**

---

(١) التّوبة: ٥٨.

(٢) الهمزة: ٢.

(٣) التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم: ٢٥٨/١٠.

أَلِيمٌ﴾[1].

وقد ورد في أسباب نزول هذه الآية أنَّ رسول الله ﷺ دعا المسلمين إلى أن يبذل كلّ مسلم ما يستطيع من أموال كصدقات لتجهيز المقاتلين السّائرين للدّفاع عن حرم الإسلام، فجاء الأغنياء منهم بمال كثير، وجاء الفقراء بما استطاعوا تحصيله، وقَبِل رسول الله ﷺ كلا الصَّنفين: أصحاب الكثرة وأصحاب القلّة، إلا أنَّ المنافقين كانوا يتصيّدون في الماء العكر، ويحاولون توجيه التّهم والمعايب للجميع، فرموا المكثرين من الصّدقات بأنّهم مراؤون، ورموا الفقراء المتصدّقين بما استطاعوا بأنَّ عطاءهم هذا لا يغني ولا يسمن من جوع، وجهلوا أنَّ قيمة العطاء بالدَّوافع الَّتي ينطلق منها المتصدّق لا بكمّيّات المال الَّذي يقدمه.

وخلاصة الكلام: أنَّ المنافقين لمّا كان هدفهم التَّعويق لحركة الرّسالة بتخريب ما ينشئه الصّالحون من أعمال صالحة ومشاريع نافعة تجدهم يفتّشون عن نقاط الضّعف، لِيَنفذوا من خلالها ويبثّوا سمومهم، ويواصلوا الهمز واللّمز والطّعن والسّخريّة والتَّشهير لإسقاط القيم المعنويّة في نفوس النّاس، وهي إحدى وسائلهم الخبيثة، فهم يرون النّاس على شاكلتهم لا يرون في النّاس صلاحاً وخيراً وجمالاً؛ لأَنَّهم

(١) التّوبة: ٧٩.

ينطلقون من سوء الظّنّ بالآخرين مهما كانوا؛ ولذلك أوعدهم الله بـ«الويل»، وهو واد يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، وهو أشدّ العذاب بقوله: ﴿وَيلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[1]؛ فقد قيل لابن عبّاس: «من هؤلاء هم الذين بدأهم الله بالويل؟» قال: «هم المشاءون بالنَّميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغون أكبر العيب»[2].

وبتعبير أدقّ: إنَّ المنافقين لمرض قلوبهم، وسوء أخلاقهم، ودنس نفوسهم، وخبث سرائرهم لا يرون الخير والصَّلاح في أحد مهما كان، ومن كان، ولو كان أكمل خلق الله تعالى؛ إذ لم يسلم من طعناتهم وتعيابهم وهمزهم ولمزهم أحد أبداً، ومثلهم في ذلك كمثل الذُّبابة لا تحطّ إلا على المواضع القذرة، فالمنافقون كذلك لا يرون من النّاس إلا المعايب والنَّواقص، ويغمضون أعينهم عن كلّ جمال وخير وصلاح، فيضخّمون النَّواقص ويهوّلونها، ويجعلون من الذّرّة جبلاً، وما أجمل ما وصفت الحكمة المنسوبة إلى الإمام عليّ عليه السلام:

«الأشرار يتتبعون مساوئ النّاس، ويتركون محاسنهم، كما يتتبّع الذُّباب المواضع الفاسدة»[3].

---

(١) الهمزة: ١.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٣٧٤/٣٠، ح/٢٩٣٤٩.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢٦٩/٢٠، الحكم المنسوبة: رقم ١١٣.

الفصل الرّابع

من قبائح المنافقين

قل أذن خير لكم:

من جملة قبائح المنافقين أنَّهم يعدّون التّغافل عن مفترياتهم، والتّسامح معهم، والتّغاضي عن مساوئهم منقصة يستغلّونها؛ لأجل إيذاء كلّ من يتعامل معهم بروح إنسانيّة تغييريّة إصلاحيّة حتّى لو كان أكمل إنسان على وجه الخليقة كما فعلوه مع رسول الله ﷺ ووصفوه بأنَّه (أُذُن) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[1]، ويقصدون بذلك الطَّعن في فطنة النّبيّ ﷺ وذكائه، ومدى تشخيصه الكذب من الصّدق؛ لأنَّه بحسب تصوّرهم العليل أنَّ الرَّسول ﷺ يُصَدّق كلّ ما يعتذر به المسيء المقصّر، ويسامحه لا لأجل حكمة إصلاحيّة، بل لطيب قلبه، «وغرضهم منه أنَّه ليس له ذكاء ولا بعد غور، بل هو سليم القلب، سريع الاغترار بكلّ ما يسمع، فلهذا السَّبب سمّوه بأنه أُذُن»[2].

وفي تفسير القمّيّ: أنَّ سبب نزول هذه الآية «أنّ عبد الله بن نفيل

(١) التّوبة: ٦١.

(٢) التَّفسير الكبير: ١١٦/١٦.

كان منافقاً، وكان يقعد لرسول الله ﷺ فيسمع كلامه، وينقله إلى المنافقين، وينمّ عليه، فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد، إنَّ رجلاً من المنافقين ينمّ عليك، وينقل حديثك إلى المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: من هو؟

فقال: يا رسول الله، الرّجل الأسود [الوجه]، الكثير شعر الرّأس، ينظر بعينين كأنَّهما قدران، وينطق بلسان الشّيطان، فدعاه رسول الله ﷺ فأخبره، فحلف أنَّه لم يفعل، فقال رسول الله ﷺ: قد قَبلت منك، فلا تفعل، فرجع إلى أصحابه، فقال: إنَّ محمّداً أُذُن، أخبره الله أنّي أنمّ عليه، وأنقل أخباره فقَبل، وأخبرتُه أنّي لم أفعل ذلك، فقَبل فأنزل الله عزَّ وجلَّ على نبيّه: ﴿**وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾، أي يُصَدّق الله فيما يقول له، ويصدّقك فيما تعتذر إليه في الظّاهر، ولا يصدّقك في الباطن. قوله: ﴿**وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾، يعني المقرّين بالإيمان من غير اعتقاد»[(١)].

وقيلَ: «نزَلَت في رجل من المنافقين يقال له: نبتل بن الحارث، وكان رجلاً أدلم[(٢)] أحمر العينين، أسفع الخدّين[(٣)]، مشوّه الخلقة، وكان ينمّ حديث النّبيّ ﷺ إلى المنافقين، فقيل له: لا تفعل، فقال: إنّما محمّد

---

(١) تفسير القمّيّ: ٤٢٨/٢.

(٢) الدلم- بالضم-: جمع أدلم، وهو الشديد السّواد، وقيل: هو الرّجل الطّويل الشّديد السّواد.

(٣) الأسفع: أسود اللّون إلى حمرة.

أُذُنٌ، من حدَّثه شيئاً صدَّقه، نقول ما شئنا، ثمّ نأتيه، فنحلف له فيصدّقنا، وهو الذي قال فيه النّبيّ ﷺ: من أراد أن ينظر إلى الشَّيطان فلينظر إلى نبتل بن الحارث»[١].

وإنّما كان رسول الله ﷺ يستمع لهم، ويصغي إلى كلامهم، فقد كان هذا هو أدبه مع كل النّاس، فـ«لا يقطع على أحد كلامه حتّى يجوزه، فيقطعه بنهي أو قيام»[٢]، وكان ينهى عن مقاطعة المتحدّث، ويقول: «مَنْ عَرَضَ لأَخيهِ الْمُسْلِمِ الْمُتَكَلِّمِ فِي حَدِيثِه، فَكَأَنَّمَا خَدَشَ وَجْهَهُ»[٣].

ويقول ﷺ: «من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه»[٤].

وكان لا يواجه أحداً بما يكره جَذباً له، لعلّه يفتح مسامع قلبه لله، ويدخله الإيمان، ثمّ يعفو عنهم، ويتغاضى عن سيّئاتهم، لا أن يصدقهم فيما أنكروا فعله، وكيف يصدّقه والوحي أخبره بما قالوا؛ فقد «كان عليه الصّلاة والسّلام يعاملهم بأحكام الشَّريعة كما يعامل عامّة المؤمنين بالبناء على الظّاهر»[٥].

ثم إنَّه ﷺ كان «يستمع إلى بعض ما ليس خيراً لهم لكنّه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله، ثمّ يحمل ذلك القول منه على الصّحّة، فلا يهتك

---

(١) بحار الأنوار: ٣٩/٢٢.

(٢) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ٢٨٥/١.

(٣) الكافي: ٧٣٩/٤، ح/٣٧٢١.

(٤) كنز العمال: ٤٠٨/٣، ح/٧١٧٧.

(٥) تفسير المراغي: ١٤٧/١٠.

حرمته، ولا يسيء الظّنّ به، ثمّ لا يرتّب أثر الخبر الصّادق المطابق للواقع عليه، فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه، فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الَّذي جاءه بالخبر»[١].

والمعروف في سيرة الرَّسول المصطفى ﷺ أنَّه كان يرغب في هداية كلّ إنسان يلتقيه مهما كان ذلك الإنسان من الانحراف والعتوّ والتّمرّد عليه، وما دعوته لعتاة قريش كأبي جهل، وأميّة بن خلف، والوليد بن المغيرة... وغيرهم إلا دليلٌ على ذلك فكيف بمن يجيء إليه، وهو يدّعي الإيمان، ويعتذر إليه، ويريد أن يكسب رضاه؛ ولذلك كان ﷺ لا يريد أن يكشف سوءاتهم ويفضحهم على رؤوس الملأ؛ ليحفظ كرامتهم طمعاً بتوبتهم ورجوعهم إلى الله في المستقبل؛ لأنَّه ﷺ هو الرَّحمة المهداة إلى البشرية أجمع، فلا يريد أن يعرّض أحداً لعذاب الله تعالى، بل كان من رحمته ورأفته ﷺ أن يأخذه الحزن الشّديد والأسى لعناد من يدعوهم، ولا يستجيبون جهلاً وعناداً وإصراً، فأنزل الله تعالى عليه قوله تعالى: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾[٢]، «أي حزناً وتلهّفاً ووجداً بإدبارهم عنك وإعراضهم عن قبول ما آتيتهم به لشدّة شفقته عليهم»[٣].

---

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣١٤/٩.

(٢) الكهف: ٦.

(٣) انظر مجمع البيان: ٦٩٤/٦.

وكذلك قوله تعالى: ﴿**لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾[(١)]، حتّى أنّ بعض المفسّرين بيّن أنَّ سبب نزول الآية هو أنَّ النّبيّ ﷺ كان يدعو أهل مكّة إلى توحيد الله باستمرار، إلا أنَّهم لم يؤمنوا، فأسف النّبيّ ﷺ، وتأثّر تأثّراً بالغاً حتى بدت أمارته في وجهه، فنزلت الآية الآنفة الذكر لتسرّي عن قلبه ﷺ[(٢)].

ونستوحي من قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾[(٣)] كم كان رسول الله ﷺ يتحسّر على الّذين يدعوهم فلا يستجيبون لدعوته، وكم كان الأسى عميقاً في نفسه لعناد هؤلاء وإصرارهم على جهلهم وغيّهم وضلالهم، فأنزل الله تعالى: ﴿**فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾[(٤)].

أقول إذا كان هذا شأنه مع المعارضين له من الكُفّار والمشركين الّذين رفضوا الاستجابة له في أمر من دعوته حتّى خطَّطوا لقتله وضياع دمه بين القبائل، فكيف بمن آمن ثمَّ تردّد أو عمل بالخفاء؟، وخلاصة القول: أنَّ رسول الله ﷺ يسمعهم ويسامحهم ويعفو عنهم بأمل أن يعيدهم إلى منهج التّوحيد والعدل.

---

(١) الشّعراء: ٣.

(٢) انظر: أبو الفتوح الرّازيّ، روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن: ٣٠٢/١٤-٣٠٣؛ والأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٢٢٩/١١.

(٣) فاطر: ٨

(٤) المائدة: ٦٨.

والأمر الجدير بالتّأمّل في هذه المسألة أنّهم وصفوا النّبيّ ﷺ بأنّه (أُذُن)، فجاء الرد الإلهي إيجابياً؛ ليبعث الأمل في النفوس: ﴿**قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ**﴾(١)، فهذه الأذن أذن خير وصلاح لحالكم تستمع إليكم، وتصغي لكم؛ لتضعكم على سبيل الرَّشاد، وتغضي عن سيّئاتكم؛ لئلا تفضحكم، بل تريد أن تحفظ كرامتكم.

وبعبارة مختصرة: إنَّ الرَّسول ﷺ كان يقبل اعتذارهم مع علمه بإساءتهم وكذبهم، إلا أنَّه وِفق تَخَلُّقه بأخلاق الله، وكونه مظهراً لرحمة الله، أراد أن يحفظ كرامتهم، ولا يجرح مشاعرهم، ولا يرفع السّتار عن أفعالهم القبيحة على رؤوس الأشهاد، أملاً بتوبتهم وندمهم ورجوعهم إلى سواء السَّبيل؛ لأنَّه ﷺ إذا كشف عيوبهم ونشرها بين الملأ سيسقطون اجتماعيّاً، ويزدادون عتوّاً، ويبتعدون عن المنهج الإلهيّ.

وهذا هو ديدن القائد الإلهيّ الرَّحيم، يعالج أمراض النُّفوس بالرّأفة، والرَّحمة، والعطف، والإحسان، والعفو، والتَّسامح، والهداية، والإرشاد، والنَّصيحة، والموعظة البليغة: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(٢).

كما وصف وصيُّه وخليفته أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «طَبِيبٌ دَوَّارٌ

---

(١) التّوبة: ٦١.

(٢) التّوبة: ١٢٨.

بطبّه، قَدْ أَحْكَمَ مَرَاهِمَه، وَأَحْمَى مَوَاسِمَه، يَضَعُ ذَلِكَ حَيْثُ الْحَاجَةُ إِلَيْه، مِنْ قُلُوبٍ عُمْيٍ؛ وَآذَانٍ صُمٍّ، وأَلْسِنَةٍ بُكْمٍ؛ مُتَتَبِّعٌ بِدَوَائِهِ مَوَاضِعَ الْغَفْلَةِ، وَمَوَاطِنَ الْحَيْرَةِ؛ لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِأَضْوَاءِ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَقْدَحُوا بِزِنَادِ الْعُلُومِ الثَّاقِبَةِ؛ فَهُمْ فِي ذَلِكَ كَالأَنْعَامِ السَّائِمَةِ وَالصُّخُورِ الْقَاسِيَةِ»[1].

ويقصد بقوله: طبيب دوار...الخ أنَّه كان يتحرّك في الأوساط الاجتماعيّة؛ ليذكّر النّاس بالله، ويعالج أمراض القلوب والأرواح كما يتحرّك الأطبّاء لمعالجة أمراض الأبدان.

المنافقون يُقَبّحون سِرّاً ويَعْتذرون علناً:

من أساليب المنافقين أنَّهم دائماً يخطّطون في الزّوايا المظلمة والدّهاليز الخفيّة؛ لجُبنهم وسوء ضمائرهم، وخبث سرائرهم؛ لفساد عقائدهم وانحراف تفكيرهم، وسوء أخلاقهم وتذبذبهم، فلا يملكون الشّجاعة والصّراحة الّتي يواجهون بها من يخطّطون للوقيعة فيه؛ ولهذا تراهم دائماً وأبداً يسيئون، ثمّ يعتذرون؛ لأنَّهم يفتقرون للتّفكير السّليم الّذي يوقفهم على أرضيّة صلبة؛ ولذا تجدهم دائماً في قلق واضطراب وتلوّن وتقلب، كما وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام: «والمنافق كلّ يوم يسيء ويعتذر»[2].

وفي حديث آخر: «وإِنَّ لِسَانَ الْمُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِه، وإِنَّ قَلْبَ

---

(١) نهج البلاغة: ١٨٤-١٨٥، خطبة: ١٠٧.

(٢) تحف العقول: ٢٤٨.

الْمُنَافق منْ وَرَاء لسَانه؛ لأَنَّ الْمُؤْمنَ إذَا أَرَادَ أَنْ يَتكَلَّم بكَلام تَدَبَّرَه في نَفْسه؛ فَإنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإنْ كَانَ شَرّاً وَارَاهُ، وإنَّ الْمُنَافقَ يَتَكَلَّمُ بمَا أَتَى عَلَى لسَانه، لا يَدْري مَاذَا لَه ومَاذَا عَلَيْه»[1].

وهذا ميزان دقيق للتّمييز بين المؤمن والمنافق؛ لأنَّ المؤمن لا يتكلّم إلا بما يعتقده صحيحاً ونافعاً، وأمّا المنافق فإنَّه قد يتكلّم بما لا يعتقده ولا يرتضيه، وإنّما يجري الحديث على لسانه لعباً أو لهواً أو استهزاءً حتّى لو كان كذباً؛ لأنَّ النّفاق يستلزم الكذب؛ «لأنّ لسان المؤمن تابعٌ لقلبه، فلا ينطق إلا بعد تقديم الفكر فيما ينبغي أن يقوله، وقلب المنافق وذكره متأخّر عن نطقه»[2].

فالمنافقون لجبنهم وحماقتهم كانوا حذرين بشدّة من وصول ما يقولونه ويتحدّثون به إلى رسول الله ﷺ وإلى المؤمنين، ولكنّ الوحي المقدّس كان يخبر رسول الله ﷺ، فيصارحهم بما قالوا، فينكرون ويعتذرون كما في قوله تعالى: ﴿**يَحْذَرُ الْمُنَافقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بمَا في قُلُوبهمْ قُل اسْتَهْزئُوا إنَّ اللَّهَ مُخْرجٌ مَا تَحْذَرُونَ * وَلَئنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَباللَّه وَآَيَاته وَرَسُوله كُنْتُمْ تَسْتَهْزئُونَ * لا تَعْتَذرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إيمَانكُمْ إنْ نَعْفُ عَنْ طَائفَة منْكُمْ نُعَذِّبْ طَائفَةً بأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرمينَ**﴾[3].

---

(١) نهج البلاغة: ٢٨٥، خطبة: ١٧٦.

(٢) ابن ميثم، شرح نهج البلاغة: ٣٥٩/٣.

(٣) التّوبة: ٦٤-٦٦.

فقد روي أنَّ هذه الآيات: «نزلت في اثني عشر رجلاً، وقفوا على العقبة، ليفتكوا برسول الله ﷺ، عند رجوعه من تبوك، فأخبر جبريل رسول الله ﷺ بذلك، وأمره أن يرسل إليهم، ويضرب وجوه رواحلهم، وعمّار كان يقود دابة رسول الله ﷺ، وحذيفة يسوقها، فقال لحذيفة: اضرب وجوه رواحلهم، فضربها حتّى نحاهم. فلمّا نزل قال لحذيفة: من عرفت من القوم؟ قال: لم أعرف منهم أحداً. فقال رسول الله ﷺ: إنه فلان وفلان حتى عدَّهم كلّهم. فقال حذيفة: ألا تبعث إليهم فتقتلهم؟ فقال: أكره أن تقول العرب لما ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم، عن ابن كيسان». وروي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله إلا أنَّه قال: «ائتمروا بينهم ليقتلوه، وقال بعضهم لبعض: إن فطن نقول إنّا كُنّا نخوض ونلعب، وإن لم يفطن نقتله»(١).

وقيل: «كان ذلك عند منصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة، وكان بين يديه أربعة نفر، أو ثلاثة، يستهزؤون ويضحكون، وأحدهم يضحك ولا يتكلّم، فنزل جبريل، وأخبر رسول الله ﷺ بذلك، فدعا عمّار بن ياسر، وقال: إنَّ هؤلاء يستهزؤون بي وبالقرآن، أخبرني جبرائيل بذلك، ولئن سألتهم ليقولنّ كُنّا نتحدّث بحديث الرَّكب، فاتّبعهم عمّار، وقال لهم: مِمَّ تضحكون؟ قالوا: نتحدث بحديث الرَّكب. فقال عمّار: صدق الله ورسوله، احترقتم أحرقكم الله. فأقبلوا إلى النّبيّ ﷺ يعتذرون، فأنزل

---

(١) مجمع البيان: ٨١/٥

الله تعالى الآيات»[١].

وكانوا شديدي الحذر والخوف من كشف مخطّطاتهم، وما يدور في دهاليزهم، «وكانت تجاربهم السّابقة تملأ قلوبهم بالخوف من كشف أمرهم فيما ينزل به القرآن في كلّ وقت ليُحَدّث المسلمين عن خفاياهم وأساليبهم الشّيطانيّة في الكيد للإسلام والمسلمين؛ ولذا فإنّهم يعملون ما يعملون بروح قلقة حذرة، وبذهنيّة قلقة مرتبكة، وذلك هو شأن المنافقين في كلّ زمان ومكان، فيما يريدون أن يحصلوا عليه من الثّقة بهم، مع الحفاظ على مكاسبهم في اتّجاه خطّ التّآمر والكيد»[٢].

فهم يحذرون من أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم عمّا في قلوبهم، وتهتك أستارهم، وتفشي أسرارهم؛ ولهذا كانوا في لقاءاتهم واجتماعاتهم يستهزؤون بالرَّسول ودينه، ومع ذلك كانوا يحذرون أن يفضحهم الوحي حتّى قال بعضهم: «والله لا أرانا إلا شرّ خلقِ الله، لوددْتُ أنّي قُدّمت فجُلدْتُ مائة جلدة، وأن لا ينزل فينا شيء يفضحنا»[٣].

وهذه الأساليب الَّتي سلكها المنافقون مع رسول الله ﷺ نرى أنّها تتجدّد في كلّ يوم، وتأخذ أطواراً مختلفة، «بأثواب زاهية وحلل غالية وموديلات عالية، حتّى وصلت هذه الأيّام، فلبست ثياباً أزهى شكلاً

(١) مجمع البيان: ٥/٨١-٨٢

(٢) تفسير من وحي القرآن: ٨/٣١٩.

(٣) الكشّاف: ٢/٢٨٦، تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم: ٦/١٨٢٦، أسباب نزول الآيات للنيسابوري: ١٦٨.

وأغمق لوناً»[1].

وأبشع ما وصلت إليه في عصرنا أنَّها لم تعد مجرّد مجموعة من الأعراب يجلسون ويتحدّثون بسخرية واستهزاء للانتقاص من رسول الله صلى الله عليه وآله ورسالته، وإنّما أصبحت حركات النّفاق اليوم تُدار بتخطيط محكم من منظمات دوليّة كبرى، وبـ(امبراطوريّات) إعلاميّة عابرة للقارّات تحت رعاية دول الاستكبار بأساليب لا مثيل لها فيما سبق في عالم الإعلام بحيث يمكنها أن تصوّر الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً صورةً وصوتاً، بل يمكن لها أن تقلب جميع الحقائق السّياسيّة والاجتماعيّة والفكريّة بما تملك من قدرات مادّيّة تستطيع أن تشتري الضّمائر والنّفوس والأقلام؛ لتسخّرها لخدمة أهدافها التّدميرية؛ وحقّاً ما قاله الإمام الخامنئيّ: «إنَّ وسائل الإعلام في هذا العصر لها قدرة تدميريّة تعادل القنبلة الذّرّيّة»، وما يؤكّد ذلك ما قاله الإمام الخمينيّ رحمه الله: «إنَّ الإعلام يمثّل إدارة العالم».

المنافقون نسيج واحد متعدّد الألوان:

﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾[2].

تعدَّدت كلمات المفسّرين في بيان حقيقة الوحدة الموضوعيّة بين المنافقين، فقيل:

---

(١) فاضل السّودانيّ، النّفاق المفهوم التّأريخ وأثره في سياسة اليهود: ٥٣.

(٢) التّوبة: ٦٧.

* بعضهم مضاف إلى بعض في الاجتماع على النّفاق والشرك، وإن بعضهم على دين بعض، وإن المقت الإلهي لاحق بأولهم كما هو لآخرهم(١).

* إنَّ إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة والأفعال الخبيثة في صفة النّفاق، كما يقول الإنسان: أنت منّي وأنا منك، أي أمرنا واحد لا مباينة فيه(٢).

* متشابهون فيه وصفاً وعملاً، كما تقول أنت منّي وأنا منك، أي أمرنا واحد لا افتراق بيننا(٣).

* متشابهون وصفاً وعملاً كأنَّ كُلاً منهم عين الآخر كما قيل:

تلك العصا من هذه العُصيّة   هل تلد الحيّة إلا الحيّة(٤)

* اشتراكهم في خبائث الصّفات والأعمال، واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم(٥).

* إنَّ المنافقين في أيّ زمان، تجمعهم وحدة الخطط، والضَّرب على نفس الوتر؛ لذا فلهم نغمة واحدة، وهم كثيراً ما يستفيدون ويتّبعون هذه الطّرق(٦).

---

(١) ينظر: مجمع البيان: ٧٤/٦.

(٢) التَّفسير الكبير: ١٢٦/١٦.

(٣) تفسير المراغي: ١٥٤/١٠.

(٤) تفسير المنار: ٥٣٣/١٠.

(٥) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٦/٩.

(٦) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١١٠/٦-١١١.

* متشابهون في النّفاق كتشابه أبعاض الشّيء الواحد، والمراد الاتّحاد في الحقيقة والصّورة كالماء والتّراب(١).

* هم كالشّيء الواحد في الخروج عن الدّين(٢).

* المنافقون والمنافقات من طينة واحدة، وطبيعة واحدة، والمنافقون في كلّ زمان، وفي كلّ مكان. تختلف أفعالهم وأقوالهم، ولكنّها ترجع إلى طبع واحد، وتنبع من معين واحد: سوء الطويّة، ولؤم السّريرة، والغمز والدّسّ، والضّعف عن المواجهة، والجبن عن المصارحة(٣).

* في عمليّة ارتباط عضويّ، من خلال ما يمثّله مجتمع النّفاق، من ارتباط بين أفراده في الأفكار والمشاعر والأعمال(٤).

والحقيقة أنَّ لكلّ ما تقدّم وجهاً من الصّحّة ينطبق على جانب من جوانب النّفاق، ولا يشمل الجميع؛ لأنَّ النّفاق حالة نفسيّة كامنة في النُّفوس، تتشكّل وفق مقتضيات المصلحة، وتتلوّن تلوّن الحرباء، وهي قائمة على أربع دعائم كما تقدَّم في البحث، وكلّ دعامة تتشعّب إلى أربع شعب، وهذه الشُّعب حالات نفسيّة وقوّة فاعلة تستمدّ حركتها ممّا أودع الله في النُّفوس من قوى يمكن للإنسان أن يستثمرها في مجالات

---

(١) روح المعاني: ١٣٢/١٠.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ١٩٩/٨.

(٣) في ظلال القرآن: ٢٤٩/٤.

(٤) تفسير من وحي القرآن: ٣٢٢/٨.

الخير، ويمكن أن يستعملها لسلوك مسالك الشّرّ، فما أودع في النَّفس من قوى هي في تصرُّف الإنسان يوجّهها حيث يشاء، يقول تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا * قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا**﴾(١).

ومن هنا يختلف النّفاق من شخص إلى آخر باختلاف استثمار القوى النّفسيّة بما تحمل من أهواء، وغرائز، وميول، وأمزجة، وأفكار، ورؤى، وغايات، وأساليب، ووسائل... ولكنها كلّها ترجع إلى مصدر واحد هو استغلال ما في النَّفس من هذه القوى، ومدى إخضاعها لقوّة التَّمييز والاختيار، وهي القوّة العقليّة، ومدى قوّتها في معرفة الأسباب والعوامل والطُّرق المؤدّية إلى الهدى أو إلى الضَّلال، فإذا أخضع الإنسان أهواءه وميوله وغرائزه لقوة التَّمييز، وحَكَّمَها فيها فسوف يسلك سبيل الرَّشاد، والعكس بالعكس.

ومع أنَّ المنافقين بما يحملون من صفات سيّئة: دناءة أخلاقيّة، وهبوط فكريّ، وانحراف سلوكيّ على اختلاف درجات تلك السّمات، فهم نسيج واحد في المشاعر النّفسيّة، والغايات الّتي يسعون لتحقيقها، والوسائل الّتي يسلكونها، ولكنّها تختلف باختلاف الزّمان والمجتمعات والقدرات المادّيّة والفكريّة إلا أنَّ النَّتيجة العمليّة واحدة من حيث الأهداف، وهي محاربة القيم الفكرية السَّليمة، والرّوحيّة السّامية،

---

(١) الشّمس: ٧-١٠.

والأخلاق الحسنة مع اختلاف الأساليب والسُّبل الَّتي يسلكونها، وأمّا مختصر أعمالهم الَّتي يقومون بها على طول الزَّمن، والَّتي أشار إليها القرآن الكريم تصريحاً وتلميحاً؛ فهي:

١- ﴿**يأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ**﴾، وهذا العمل النّفاقيّ يجمع جميع القبائح والخبائث؛ لأنَّ أمرهم بالمنكر ونهيهم عن المعروف مطلقٌ لا يتوقّف عند حدّ معيّن، وينبئ عمّا في نفوسهم من انتكاسة عقائديّة وأخلاقيّة؛ فقد انقلبت عندهم المقاييس والموازين في نفوسهم، فصاروا يرون الحقّ باطلاً، والباطلَ حقّاً حيث انحرف «الإدراك العقليّ عن مجرى الحقّ، وسنن الاستقامة مع بقاء موضوع العقل على حاله، كأن يشاهد الإنسانُ العاقلُ الحسنَ قبيحاً وبالعكس، أو يرى الحقَّ باطلاً، وبالعكس جزافاً بتصرّف من الشَّيطان»[١].

ولاستحكام هذه الحالة أصبحوا خطراً على جميع المجتمع البشريّ كما وصفهم به أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً»[٢].

وكأنَّهم مصداقٌ لما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يخبر عن بعض ما سيقع من أحداث في مستقبل هذه الأُمّة بقوله: «كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَدَتْ

(١) ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٤١٣/٢.

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٦، خطبة: ١٩٤.

نسَاؤكُمْ، وفَسَق شبَابُكُمْ، ولَمْ تَأْمُروا بالْمَعْرُوف، ولَمْ تَنْهَوْا عَن الْمُنْكَر؟ فَقيل لَهُ: ويكُونُ ذلك يا رَسُول اللَّه؟ فقَال: نعَمْ، وَشرٌّ منْ ذلك، كَيْفَ بكُمْ إذَا أَمرْتُمْ بالْمُنْكَر، ونَهَيْتُمْ عَن الْمَعْرُوف؟ فَقيل لَهُ: يَا رَسُول اللَّه، ويَكُونُ ذلك؟ قَالَ: نَعَمْ، وَشَرٌّ منْ ذلك، كَيْفَ بكُمْ إذَا رَأَيْتُم الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفاً؟ فَقيل لَهُ: يَا رَسُولَ الله، ويَكُونُ ذَلكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، وشَرٌّ منْ ذَلكَ كَيْفَ بكُمْ إذَا رَأَيْتُمُ الْمَعْرُوفَ مُنْكَراً والْمُنْكَرَ مَعْرُوفا؟»[١]!!!

فهم يجيدون التَّخطيط السّرّيّ- الَّذي يصعب اكتشافه- لاجتثاث جذور الخير والصَّلاح والهدى، ويتحرّكون في جميع الجوانب الاجتماعيّة والسّياسيّة والفكريّة والأخلاقيّة، بل على جميع الصُّعد؛ لأجل الوصول إلى غاياتهم المشؤومة، ويرتكبون جميع المنكرات الشّرعيّة والعقليّة، بل جميع ما تستنكره العقول الرّاجحة، والفطر السَّليمة.. ولا أظنّ أنَّ هناك أقبح ممّن يرى المنكر معروفاً، ويرى المعروف منكراً؛ ولعلَّ هذا ما يُعبَّر عنه (منكوس القلب)، وهو «قلب المنافق، عَرف ثمَّ أنكر، وأبصر ثمَّ عَميَ. وقلب تمُدّه مادتان: مادّة إيمان، ومادّة نفاق؛ وهو لما غلب عليه منهما»[٢]؛ لأنَّ هذا المسلك ينافي العقل والشّرع، ويركّز الرّذائل في النُّفوس، ويقتلع الفضائل؛ ولهذا نجدهم مرتكسين في مستنقع الرَّذائل: الكذب، الخيانة، نقض العهد، الغدر، الفجور، سوء الظّن...

(١) الكافي: ٩/٤٩٣-٤٩٤، ح/٨٣٣٢

(٢) إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان: ١/١٦.

ولحماية المجتمع البشريّ من هذه الآفات المهلكة الّتي تَخَلّق بها المنافقون جاءت السُّنَّة الشَّريفة مُعَرّفة بعلاماتهم كما ورد عنه ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»(١).

وفي حديث آخر: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خصلةٌ منهنّ كانت فيه خصلة من النّفاق حتّى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر»(٢).

وفي حديث آخر: «أربع من كُنَّ فيه كان منافقاً خالصاً، ومن كانت فيه خُلّةٌ منهنّ كانت فيه خلّة من نفاق حتّى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»(٣).

٢- ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾: هو تعبير مجازيٌّ كناية عن بخل المنافقين وشُحّهم عن أداء الحقوق الماليّة في الشَّرع المقدّس، وبعبارة أخرى: هم يكنزون أموالهم، ويبخلون عن أدائها طاعة لله، والتماساً لمرضاته، وقيل: إمساك الأيدي عن الجهاد في سبيل الله.

والسّرّ في ذلك أنّهم يرون أنَّ إنفاق هذه الأموال في سبيل الله ضياع وخسارة؛ لأنّهم في الواقع لا يؤمنون بالله واليوم الآخر، وعلى فرض أنَّ في أنفسهم لمظة إيمان فهو إيمان شكليّ لا يلامس القلب، ولا يؤثّر

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٣١٤/١٤، ح/٨٦٨٥؛ صحيح البخاري: ١٤/١.

(٢) صحيح البخاريّ: ١٤/١.

(٣) صحيح مسلم: ٥٦/١.

في السُّلوك، لأنه تَصنُّع وكيدٌ وخداعٌ، وفي هذه الحالات هم للكفر أقرب منهم للإيمان كما وصفهم تعالى: ﴿**هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ**﴾، والسَّبب هو أنَّهم ﴿**يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ**﴾[1]؛ فهو ادّعاء إيمان لا يتعدى اللّسان، ولا يصل منه شيء إلى الجنان، وهذا هو النّفاق بأدقّ معانيه؛ لأنَّهم ﴿**قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ**﴾[2]، تلك هي حقيقتهم، وهذا هو جوهرهم، كفر مغلّف بادّعاء الإيمان كذباً، وزوراً، وبهتاناً.

ومع أنَّ ﴿**اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً**﴾[3] إلا أنَّ دركات[4] المنافقين اسفل من دركات الكافرين كما في صريح قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾[5].

٣- ﴿**نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ**﴾: ممّا لا شكَّ فيه أنَّ المنافقين المرتكسين في مستنقع النّفاق مستغرقون في أوهامهم وخيالاتهم المنبعثة من روح الكيد والمكر والاحتيال والمخادعة؛ وهذه الحالات عندما تتحوّل إلى ملكة في نفوسهم تستوعب جميع وجودهم المادّيّ

---

(١) آل عمران: ١٦٧.

(٢) المائدة: ٤١.

(٣) النّساء: ١٤٠.

(٤) جمع دركة، وهي الدَّرجة إذا اعتبرت النزول: ويقابلها الدّرجة للصّاعد؛ فالدرجات صعود، والدَّركات نزول، فالجنّة درجات، والنّار دركات.

(٥) النّساء: ١٤٥.

والمعنويّ إلى درجة لا يستطيعون التّفكير بسواها، ويصبحون كالأعراب الّذين إذا عاتبتهم يقولون: ﴿شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾[1].

هذا الاستغراق لا يدع لهم فرصة ليعودوا إلى أنفسهم فيفكّروا بسرّ وجودهم وعلّة إيجادهم؛ فقد استوعبتهم الغفلة، فعطّلت عقولهم وحواسّهم وبصيرتهم حتّى لم يعد يخطر ببالهم أنّ لله عليهم حقّ الطّاعة والامتثال لأوامره تعالى، والالتزام بأحكامه، والشّكر على نعمه وإنعامه، وهكذا يستمرّون هائمين بغيّهم وجهلهم وحماقتهم حتّى ينسيهم الله أنفسهم، ليحقّ عليهم جزاءه وعقابه بجزاء مكرهم؛ لأنّ الله عزّ وجلّ «يجازيهم جزاء المكر، وجزاء المخادعة، وجزاء الاستهزاء، وجزاء السّخرية، وجزاء النّسيان، وهو أن ينسيهم أنفسهم كما قال عزّ وجلّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾[2]، لأنّه عزّ وجلّ في الحقيقة لا يمكر، ولا يخادع، ولا يستهزئ، ولا يسخر، ولا ينسى، تعالى الله عزّ وجلّ عن ذلك علوّاً كبيراً»[3].

وقد ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ﴾[4]، عن الإمام الرضا عليه السلام أنّه قال: «إنّ الله تعالى لا ينسى، ولا يسهو، وإنّما ينسى ويسهو

(١) الفتح: ١١.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) الشّيخ الصّدوق، الاعتقادات: ٥١-٥٣.

(٤) التّوبة: ٦٧.

المخلوق المُحْدَث، ألا تسمعه عزّ وجلّ يقول: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً**﴾(١)، وإنّما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه بأن ينسيهم أنفسهم، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿**وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا الله فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾(٢)، وقال تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**﴾(٣)، أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا»(٤).

وكما ورد عن أمير المؤمنين عليه السلام في تفسير الآية: «إِنَّمَا يَعْنِي نَسُوا اللهَ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَمْ يَعْمَلُوا بطَاعَته، فَنَسِيَهُمْ في الآخرة أَيْ لَمْ يَجْعَلْ لَهُمْ في ثَوَابه شَيْئاً، فَصَارُوا مَنْسِيِّين منَ الْخَيْر، وكَذَلكَ تَفْسيرُ قَوْله عَزَّ وجَلَّ: ﴿**فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا**﴾، يَعْنِي بالنِّسْيَان أَنَّهُ لَمْ يُثِبْهُمْ كَمَا يُثيبُ أَوْلِيَاءَهُ الَّذِين كَانُوا في دَارِ الدُّنْيَا مُطيعين ذَاكرين حين آمَنُوا به وبرُسُله وخَافُوهُ بالْغَيْب، وأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً**﴾؛ فَإِنَّ رَبَّنَا تَبَارَكَ وتَعَالَى عُلُوّاً كَبيراً لَيْسَ بالَّذي يَنْسَى ولا يَغْفُلُ، بَلْ هُوَ الْحَفيظُ الْعَليمُ، وقَدْ يَقُولُ الْعَرَبُ في بَاب النِّسْيَان قَدْ نَسِيَنَا فُلانٌ، فَلا يَذْكُرُنَا أَيْ إِنَّهُ لا يَأْمُرُ لَنَا بخَيْرٍ، ولا يَذْكُرُنَا به»(٥).

ومن خلال هذه الأحاديث الشَّريفة يتّضح أنَّ ارتكاس المنافقين

---

(١) مريم: ٦٤.

(٢) الحشر: ١٩.

(٣) الأعراف: ٥١.

(٤) عيون أخبار الرّضا عليه السلام: ١/١١٤-١١٥.

(٥) الشّيخ الصّدوق، التّوحيد: ٢٥٩-٢٦٠.

في مستنقع تصوّراتهم السَّقيمة، وأوهامهم العليلة أنَّ سرّ جميع تقلّباتهم ونفاقهم هو أنَّهم نسوا الله تعالى، وبذلك ارتكسوا في مستنقع الفسوق، فغرقوا إلى آذانهم، فحجب تعالى عنهم نوره، فبقوا يتخبّطون في ظلمات نفاقهم، وهكذا خرجوا من محيط الإيمان، وتاهوا في صحاري الضَّلال والفسق، فأصبحوا «يجسّدون الفسق واقعاً حيّاً يشير إلى المفهوم العمليّ للفسق بأوضح صورة فيما يمثّله سلوكهم، وتتكشّف عنه نفسيّاتهم من خبث وتعقيد وانحراف عن طريق الله»(١)، بكلّ وجودهم وهكذا نسوا عواقب أعمالهم، واستغرقوا في دنيا الفناء، ولكن مع ذلك لم ينفعهم شيئاً لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وأنتم مِثْلهم استمتعتم بدنياكم، وخضتم كما خاضوا في جهلهم وغيّهم وطغيانهم، فما لكم لا ترجعون عن ضلالكم، وتعودون إلى سبيل الرّشد؛ فإنَّ الَّذي أصابهم سيصيبكم، وما حلَّ بهم سيحلّ بهم.

ثمّ يُذكّرهم النّصّ الشّريف بأقوام قبلهم تمرَّدوا على رسل الله عليهم السلام، وكانت عاقبتهم هي العاقبة، وبأسلوب الاستفهام الاستنكاريّ؛ لغفلتهم وعدم تفكّرهم بسنن التّأريخ الَّتي جرت على قوم نوح عليه السلام الَّذي دعاهم إلى الله أطول ما دعا نبيٌّ قومه، فعتوا عنه وتمرّدوا، فأهلكهم بالطّوفان، فبادوا وبقي نوح ومن معه يحرّكون عجلة البشريّة بصبرهم، ويوقظون القلوب السّابتة، وبقوم هود الّذين أهلكهم الله بالأعاصير والرّياح العاصفة، وبقوم صالح الّذين أبادهم الله بالزّلازل والهدم والدّمار،

(١) تفسير من وحي القرآن: ٣٢٤/٨.

وبقوم إبراهيم الّذين سلب منهم النّعم، وبقوم شعيب الّذين أهلكهم الله بالصّواعق، وبقوم لوط الّذين خسف الله بهم الأرض، وجعل عاليها سافلها، هذه الأحداث التّأريخية ذكّرهم الله بها، وكأنَّه يقول لهم: إنَّ ما جرى على أولئك سيجري عليكم إن بقيتم على جهلكم وغيّكم، ولم ترجعوا إلى رشدكم..

ونستفيد من ذلك أنَّ التَّذكير، والإرشاد، والنّصح، والوعظ، والهداية إلى دين الله تعالى يجب على كل هادٍ ومهتدٍ أن يمارسه مع أشد النّاس عتوّاً وضلالاً، ولا ييأس من هدايته مهما بلغ من النّفاق والكفر والشّرك، والأدلّ من ذلك أنَّ رسول الله ﷺ وهو سيّد الدّعاة، وأكمل الهادين واصلَ دعوته مع أعتى عتاة قريش كأبي جهل وأضرابه الّذين لاقى منهم من الأذى ما لم يُؤذَ نبيٌّ قبله، ومن قبله نوح عليه السلام الَّذي ضرب المثل الأعلى في الهداية والإرشاد إلى أن أوحى الله له ﴿**أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلا مَنْ قَدْ آَمَنَ**﴾(١)، وقد حلَّ عليهم البوار والهلاك.

والأدلّ من ذلك جميعاً هو أنَّ الله تعالى أمر كليمه موسى وأخاه هارون عليهما السلام أن يدعُوَا فرعون الَّذي ادّعى الألوهيّة، ومع ذلك أمر الله موسى وهارون عليهما السلام بدعوته إلى الإيمان بالله تعالى لعلَّه يتذكر أو يخشى ويتراجع عن طغيانه بقوله تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَو يَخْشَى**﴾(٢).

---

(١) هود: ٣٦.

(٢) طه: ٣٣-٣٤.

كلّ ذلك تأكيدٌ لكلّ داعية أن لا يزهد، ولا يستهين بدعوة أحد مهما بلغ من الطُّغيان والكفر والشّرك والنّفاق والفساد والانحراف عن منهج التّوحيد؛ فعليه أن يدعوه إلى عبادة الله تعالى حتّى لو علم علماً يقينيّاً أنه لا يستجيب؛ فإنَّ الله عزَّ وجلَّ يعلم أنَّ فرعون لا يستجيب، ومع ذلك أمر موسى وهارون عليهما السلام أن يذهبا إليه ويدعواه إلى توحيد الله؛ ليثبت عليه الحجة، وليس عليه أن يستجيب المدعو أو لا يستجيب، وإنّما عليه أن يدعوه امتثالاً لأمر الله عزَّ وجلّ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**﴾(١)، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**﴾(٢).

وقد أوضح الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حين سُئِلَ عن تفسير قوله تعالى: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾، فقال: «أمّا قوله: ﴿**فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً**﴾ أي كنّياه، وقولا له: يا أبا مصعب، وكان اسم فرعون: أبا مصعب الوليد بن مصعب، وأما قوله: ﴿**لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾، فإنّما قال ليكون أحرص لموسى على الذّهاب، وقد علم الله عزَّ وجلَّ أنَّ فرعون لا يتذكّر ولا يخشى إلا عند

---

(١) النّحل: ١٢٥.

(٢) فصّلت: ٣٣.

رؤية البأس، ألا تسمع الله عزّ وجلّ يقول: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[١]، فلم يقبل الله إيمانه، وقال: ﴿الآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾[٢]»[٣].

إذن الدّعوة إلى الله تعالى لهداية جميع النّاس أمر مفروغ عنه في الإسلام، وهو واجب على كلّ مسلم قادر عليه، ومجيد لفنونه ضمن شروطه المعروفة الشّرعيّة، والفنّيّة، والأسلوب الحكيم على أن يكون على بصيرة من أمره، ويقين من صحّة دعوته، وإخلاص في نيّته، عاملاً بما يدعو إليه، وبتعبير الحديث الوارد عن الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْ قَامَ بِشَرَائِطِ اللَّهِ- عَزَّ وَجَلَّ- فِي الْقِتَالِ وَالْجِهَادِ عَلَى الْمُجَاهِدِينَ، فَهُوَ الْمَأْذُونُ لَهُ فِي الدُّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٤].

وهذا منهج رسل الله وأنبيائه وجميع السّائرين على عقيدتهم والدّاعين بدعوتهم من أول رسل الله إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليه وعليهم جميعاً؛ فـ«إنَّ الدُّعاء إلى الله لم ينقطع عن كلّ أمة. إمّا بمباشرة من أنبيائهم، وما ينقل إلى وقت بعثة محمَّد صلى الله عليه وآله، والآيات الَّتي تدلُّ على أنَّ قريشاً ما جاءهم نذير معناه لم يباشرهم، ولا آباؤهم

---

(١) يونس: ٩٠.

(٢) يونس: ٩١.

(٣) علل الشّرائع: ٦٧/١.

(٤) الكافي: ٣٧٩/٩، ح/٨٢٢٠.

القريبين، وإمّا أنَّ النّذارة انقطعت، فلا»[1]، ما انقطعت، ولكنّها قَلَّت وضعفت للظّروف الاجتماعيّة القاهرة.

(١) تفسير البحر المحيط: ٤٠٨/٧-٤٠٩.

الفصل الخامس

جهاد المنافقين

الجهاد فريضةٌ إسلاميّةٌ جعلها الإسلام أشرف الفرائض وأعظمها؛ لأنَّها تتقوّم بها جميع الفرائض، وإذا ما أريد تعطيل الفرائض بفعل فاعل جاهل، أو مغرض برزت فريضة الجهاد قوّة محرّكة وفاعلة وحامية لجوهر الإسلام عقيدةً ونظاماً؛ لتبعث روحه بقوّة، وتفجّر طاقاته بفاعليّة، وحركيّة بنّاءة؛ ولذلك بدونها يصبح الإسلام بدناً بلا روح.

وهذه الفريضة العظيمة تختلف باختلاف موضوعها، فجهاد الكفار معروف باستعمال السّلاح المناسب للقضاء على الكفر واستئصال جذوره من النُّفوس، وأمّا جهاد المنافقين فأمره مختلف كثيراً عن جهاد الكافرين.

وقد اختلف المفسرون في كيفيّة جهاد المنافقين، فقيل: إنَّ جهادهم باللّسان وعظاً، وتخويفاً، وإرشاداً، وتذكيراً، وتحذيراً، وقيل: إنَّ جهادهم بإقامة الحدود الشّرعيّة؛ لأنَّهم أكثر النّاس الّذين تقام عليهم الحدود، وتصيبهم أكثر من غيرهم لكثرة خبائثهم وجرائمهم إلا أنَّه أشكل على ذلك أنَّ إقامة الحدود لم تكن محصورة بهم، وإنّما لجميع العصاة والمخالفين، وليس بالضّرورة أن يكون كلُّ فاسقٍ منافقاً، وإن

كان كلُّ منافقٍ فاسقاً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(١).

وقيل: جهادهم بحسب الإمكان باليد، فإن لم يستطع فباللسان، فإن لم يستطع فبالقلب، فإن لم يقدر فليعبس ويكفهرّ في وجوههم(٢).

وإنّما اختلف جهادهم عن جهاد الكافرين؛ لأنَّ الكافرين أعداء الإسلام بصراحة ووضوح تامّين، ويمكن معرفة أساليبهم وخططهم، أمّا المنافقون فأمرهم أخطر وأفظع من الكافرين؛ لأنَّهم العدوّ الدّاخليّ، وهو أخطر من العدوّ الخارجي لخفاء خططه ومؤامراته؛ ولأنَّه يأتي بوجه المحبّ، ويطعن بخنجره في القفا.

وهكذا فإنَّ المنافقين أشدُّ أعداء الإسلام، فهم يبطنون الكفر والشّرك، ويظهرون الإسلام، ويعملون خلافه، ويكيدون له من داخله؛ فهم العدوّ الأخطر للإسلام كما وصفهم تعالى بقوله: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ الحقيقيّ، ولذا أوجب تعالى الحذر الشّديد منهم ﴿فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾(٣).

ولأنَّ العدوّ الدّاخليّ أكثر خطراً من العدوّ الخارجيّ، فهو بمثابة سرطان داخليّ يفتك بجسم الأمّة بصورة خفّيّة؛ ولذلك عدَّ الإمام

(١) التّوبة: ٦٧.

(٢) ينظر: مجمع البيان: ٧٧/٥.

(٣) المنافقون: ٤.

الخمينيّ رحمه الله أنَّ مشكلة المنافقين من أكبر مشاكل الإسلام، وأكَّدَ «أنَّ التَّعامل مع هؤلاء صعبٌ جدّاً. مشكلة المنافقين لم يستطع حتى الرّسول الأكرم صلى الله عليه وآله معالجتها، والإمام عليّ عليه السلام ابتُلِيَ أيضاً بهؤلاء، ولم يتسنَّ له الحل. فمعالجة هذه المشكلة صعبة»(١).

ولهذا كان جهادهم «أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواصِ الأمّة وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ في العالم، والمشاركون فيه والمعاوِنون عليه وإن كانوا هم الأقلّين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً»(٢).

ومن هنا يمكن القول أنَّ جهادهم يختلف بحسب مقتضيات مصلحة الإسلام والمسلمين كما أكّد ذلك فيلسوف المفسّرين العلامة الطباطبائي رحمه الله إذ قال:

«ربما يسبق إلى الذّهن أنَّ المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم، فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا، وإن اقتضت وعظوا باللّسان، وإن اقتضت أخرجوا وشرّدوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذا أخذ عليهم الرّدّة، أو غير ذلك. وربما شهد لهذا المعنى أعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله: ﴿**جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ**﴾ بقوله:

(١) صحيفة الإمام: ١٩٨/١١.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: ٥/٣-٦.

﴿**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾، أي شدّد عليهم وعاملهم بالخشونة»[1].

وقال المَقداد السّيوريّ في تفسير ﴿**واغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾: «أي أسمعهم الكلام الغليظ ولا تحابّهم ولا ترقّ لهم، وعن ابن مسعود: إن لم يستطع بيده فبلسانه، فإن لم يستطع فليكفهرّ في وجهه، فإن لم يستطع فبقلبه بالبغض له والتّبرّي منه»[2].

وقد يُثار هنا تساؤل: وهو أنَّ رسول الله ﷺ كان يعرف المنافقين، ويعاني من كيدهم ومكرهم وخبثهم، وطالما خطَّطوا لإيقاف حركة الدَّعوة، وعرقلة مسيرتها وهو يعلم بذلك، بل قد يعرفهم بأعيانهم، وتصله أخبارهم عن طريق الوحي، وما يكيدون به من خطط وصلت إلى حدّ أنَّهم خطَّطوا لقتله بعد عودته من تبوك، وأخبره الوحي بذلك، وأرسل أصحابه الخُلّص عمّار وحذيفة؛ لإفشال مؤامراتهم، ومع ذلك تركهم، وعندما قيل له: «ألا تقتلهم فإنَّهم أرادوا قتلك»؟ وفي أكثر من حادثة كحادثة عبد الله بن أُبَّي الَّذي توعّد بإخراج الرسول من المدينة، وفي حادثة العقبة كان جوابه واحداً: «معاذ الله أتتسامع الأمم أنَّ محمّداً يقتل أصحابه!»[3].

وفي رواية أخرى: «بل نحسن صحبته ونترفّق به ما صحبنا، ولا

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٣٣٩/٩.

(٢) كنز العرفان في فقه القرآن: ٣٦٠/١.

(٣) مجمع الزّوائد: ٢٣١/٦.

يتحدّث الناس أنَّ محمّداً يقتل أصحابه»[١].

وهذا الحديث تكرّر مع كل حادثة افتعلها المنافقون، وكأنَّه يشير إلى أن قتل هذا المنافق أو غيره في مناسبات أخرى لا تحلّ الإشكال[٢].

ولعلَّ السّرّ في ذلك أنَّه ﷺ بذل غاية جهده وجهاده لجذب العقول والنّفوس، ولئلا تُولّد هذه الحوادث النّفرة عن الإسلام، وتوقف توجّه النّاس إليه، وإيمانهم به؛ ولهذا كان ﷺ يتآلف النّاس، ويعاملهم بالأخلاق الإلهيّة، ويصفح عن جفائهم، وسوء معاملاتهم؛ لتغيير نفوسهم، وليجذبهم إلى نور الإسلام، ويضعهم على جادة الصّواب.

ومن هنا كان ﷺ مع علمه بما يعمله المنافقون «يعرض عنهم، ويكتفي بظاهر إسلامهم، ويسمع أخبارهم، فيلغيها بالبقاء عليهم، وانتظار الفيئة إلى الحقّ بهم، وإبقاء على قومهم؛ لئلا تثور نفوسهم عند قتلهم وحذراً من سوء الشّنعة في أن يتحدّث النّاس أنَّ محمّداً يقتل أصحابه؛ فكان لمجموع هذه الأمور يقبل ظاهر إيمانهم وبادئ صلاتهم وغزوهم، ويَكِلُ سرائرهم إلى ربّهم، وتارةً كان يبسط لهم وجهه الكريم، وأخرى كان يظهر التَّغيير عليهم»[٣].

ومن ناحية أخرى: يصحّ ما قاله أحد الفقهاء المفسّرين لكتاب الله

---

(١) أسد الغابة: ١٩٣/٣.

(٢) ينظر: زهير بيطار، الإمامة تلك الحقيقة القرآنيّة: ١١٣.

(٣) ابن العربي، أحكام القرآن: ٥٤٤/٣.

بقوله: «لم يجاهدهم [رسول الله ﷺ] عسكريّاً، ولم يقابلهم بحدّ السَّيف؛ لأنَّ المنافق هو الذي أظهر الإسلام، فهو يتمتّع بكلّ حقوق المسلمين وحماية القانون الإسلاميّ، بالرَّغم من أنَّه يسعى لهدم الإسلام في الباطن، فكم من الأفراد لا حَظَّ لهم من الإيمان، ولا يؤمنون حقيقةً بالإسلام، غير أنَّا لا نستطيع أن نعاملهم معاملة غير المسلمين.

إذن، فالمستفاد من الرّوايات وأقوال المفسّرين هو أنَّ المقصود من جهاد المنافقين هو الأشكال والطّرق الأخرى للجهاد غير الجهاد الحربيّ والعسكريّ، كالذّمّ والتّوبيخ والتّهديد والفضيحة، وربما تشير جملة: ﴿**وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ**﴾ إلى هذا المعنى.

ويحتمل في تفسير هذه الآية: أنَّ المنافقين يتمتّعون بأحكام الإسلام وحقوقه وحمايته ما دامت أسرارهم مجهولةً، ولم يتّضح وضعهم على حقيقته، أمّا إذا تبيّن وضعهم، وانكشفت خبيئة أسرارهم، فسوف يحكمون بأنَّهم كفار حربيّون، وفي هذه الحالة يمكن جهادهم حتى بالسَّيف»[١].

وهكذا يتّضح أنَّ الرسول ﷺ كان يعرض عن المنافقين، ويصفح عنهم، ويعاتبهم في كثير من الأحيان برفق، ويعفو عنهم ليس إكراماً لهم، ولا خوفاً من مكائدهم، وإنَّما طمعاً في إصلاحهم وهدايتهم، واحترازاً من تنفير النّاس من الإقبال على الانضمام إلى الدَّعوة

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٢٥/٦-١٢٦.

الإلهيّة؛ وليبقى سبيل الهداية والرّشاد مفتوحاً أمام البشريّة أجمع؛ ليرجعوا إلى سبيل الهدى متى أدركتهم رحمة الله وهداهم إلى سبيل الرَّشاد، ولئلا يترك أثراً سلبيّاً، يحتجّ به أعداء الإسلام على طول الزَّمن كما دلَّ على ذلك قولُه ﷺ المتقدّم: «معاذ الله أتتسامع الأمم أنَّ محمّداً يقتل أصحابه!»، ويتخذونه ذريعةً لتشويه مبادئه وأحكامه السّماويّة، ويطعنون به ﷺ، ويشوّهون سيرته النّيّرة المعصومة، كما نرى اليوم ما تبثّه بعض الإذاعات المناوئة للإسلام المحمّديّ الأصيل المسموعة والمرئية من افتراءات وأكاذيب وبهتان من خلال التَّفسير المعاكس لبعض الحوادث الَّتي اُتُّخذ فيها قرارٌ؛ لقتل بعض المجرمين الّذين ارتكبوا أفظع الجرائم بحق الله والإنسانيّة، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى: إنَّ الوجه في «ترك رسول الله ﷺ المنافقين بالمدينة أنَّهم لم يكونوا مجلحين[1]، بل كان كلّ مغموص[2] عليه إذا وقف ادّعى الإسلام، فكان في تركهم إبقاءٌ وحياطةٌ للإسلام، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أنَّ محمّداً ﷺ يقتل من يُظْهِر الإسلام»[3].

المواقف العمليّة من حركة المنافقين:

بعد هذا العرض الموجز عن جهاد المنافقين فلنتابع المواقف

(١) مظهرين عداءهم للإسلام.

(٢) أي مطعون في دينه متّهم بالنّفاق.

(٣) المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٥٩/٣.

العمليّة منهم الَّتي تمثل جزءاً من مجاهدتهم، ومحاصرتهم كما نصَّت عليه النُّصوص الشَّريفة، نذكر منها:

١- عدم اتّخاذهم أولياء مقرّبين والحذر من اطّلاعهم على الأسرار الخاصّة؛ لأنَّهم غير مأمونين في كلّ تصرّفاتهم وأفكارهم ومعاملاتهم، ولعلَّ هذا ما أشار إليه تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ**﴾[١].

والسّرّ في ذلك أنَّ المنافقَ- كما تقدَّم- أشدُّ خطورةً من الكافر؛ لأنَّه هو العدوّ الدّاخليّ؛ ولذا يجب الاحتياط من التّقرّب إليه ومودّته وموالاته وصداقته، وقد روى بعض المفسرين أنَّ هذه الآية نزلت في قوم من المسلمين كانوا يخالطون اليهود، وأهل النّفاق، فنهاهم الله تعالى عن مواصلة هذا السُّلوك، وأن لا يتّخذ المؤمنُ بطانةً له من دون المؤمنين، وقد شبّه «الصّديق الصدق بما يباشرُ بطن الإنسان من ثوبه، يقال: له بطانة ووليجة»[٢].

وهذا بيان لمدى خطورتهم لمماسّتهم وملاصقتهم لكيان الأمة؛ لأنَّ «"البطانة" مأخوذة من بطانة الثّوب، وهي الوجه الَّذي يلي البدن لقربه

(١) آل عمران: ١١٨.

(٢) تفسير البحر المحيط: ٣/٥٧.

منه، ونقيضها "الظّهارة"؛ والبطانة في المقام كناية عن خاصّة الرّجل الَّذين يستبطنون أمره ويطّلعون على أسراره»[١].

والمقصود أنَّهم خاصّة الرّجل الّذين ينفتحون عليه في كلّ أمورهم، وكان مجاهد يقول: «نزلت هذه الآية في المنافقين»، وقيل: «إنَّ المؤمن ليحبّ المنافق ويأوي له ويرحمه، ولو أنَّ المنافق يقدر على ما يقدر عليه المؤمن منه لأباد خضراءه»[٢].

وقد روي عن ابن عبّاس أنَّ الآية نزلت في قومٍ من المؤمنين كانوا يصافّون المنافقين، ويواصلون رجالاً من اليهود لما كان بينهم من القرابة والصّداقة والجوار والرّضاع والحلف، فنهوا عن بطانتهم[٣].

وخلاصة القول: إنَّ الموقف السّليم من المنافقين أن لا يُتّخذوا من دون المؤمنين أصدقاء أو أولياء أو مقرّبين، وأن لا ينفتحوا عليهم، بل يجب أن يقفوا منهم موقفاً سلبيّاً يَحْذَرونهم ويُحَذّرون منهم، ويتجنّبوا مخالطتهم بقدر الإمكان وإلا بمقدار الضَّرورة، وأن يحذروا من اطّلاعهم على خفاياهم الَّتي إذا اطّلع عليها العدوّ أضرّ الإسلام والمسلمين.

وقد شدَّد أئمّة الهدى عليهم السلام على أصحابهم في منع مجالسة المنحرفين عن منهج التَّوحيد الخالص من المنافقين وغيرهم؛ فقد روى

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٦٦١/٢.

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٨٧/٤.

(٣) زاد المسير في علم التّفسير: ٢١/٢.

بَكْر بْن مُحَمَّد، عَن الْجَعْفَرِيّ، قَالَ: «سَمعْتُ أَبَا الْحَسَن عليه السلام يَقُولُ: مَا لِي رَأَيْتُكَ عِنْدَ عَبْد الرَّحْمن بْن يَعْقُوبَ؟، فَقَالَ: إِنَّهُ خَالِي، فَقَالَ: إِنَّه يَقُولُ فِي اللَّه قَوْلاً عَظِيماً، يَصفُ اللَّهَ وَلا يُوصَفُ، فَإِمَّا جَلَسْتَ مَعَهُ وَتَرَكْتَنَا، وَإِمَّا جَلَسْتَ مَعَنَا وَتَرَكْتَهُ. فَقُلْتُ: هُوَ يَقُولُ مَا شَاءَ، أَيُّ شَيْءٍ عَلَيَّ مِنْهُ إِذَا لَمْ أَقُلْ مَا يَقُولُ؟ فَقَالَ أَبُو الْحَسَن عليه السلام: أَمَا تَخَافُ أَنْ تَنْزِلَ بِه نَقمَةٌ، فَتُصِيبَكُمْ جَمِيعاً؟ أَمَا عَلِمْتَ بِالَّذي كَانَ مِنْ أَصْحَاب مُوسى عليه السلام، وَكَانَ أَبُوهُ مِنْ أَصْحَاب فِرْعَوْنَ، فَلَمَّا لَحِقَتْ خَيْلُ فِرْعَوْنَ مُوسى تَخَلَّفَ عَنْهُ لِيَعِظَ أَبَاهُ، فَيُلْحِقَهُ بِمُوسى، فَمَضَى أَبُوهُ وَهُوَ يُرَاغِمُهُ حَتّى بَلَغَا طَرَفاً مِنَ الْبَحْرِ، فَغَرِقَا جَمِيعاً، فَأَتى مُوسى عليه السلام الْخَبَرُ، فَقَالَ: هُوَ فِي رَحْمَة اللَّه، وَلكِنَّ النَّقمَةَ إِذَا نَزَلَتْ لَمْ يَكُنْ لَهَا عَمَّنْ قَارَبَ الْمُذْنِبَ دِفَاعٌ»(١).

٢- أن يتدرّج المؤمن في تذكيرهم بحكمة، ويعظهم ببلاغة، ويزجرهم بقوّة، وإلا أعرض عنهم بشدة، واكفهرّ وعبس في وجوههم، لعلّهم يرتدعون عن غيّهم؛ فإنَّ المنافق مريض القلب ملوّث النَّفس بما ران على قلبه من أدران، وما انساق له من شهوات؛ ولهذا يمكن هزّ مشاعره؛ لنفض ما تراكم على قلبه من أدران، وأقذار مع الحذر الدّقيق في التّعامل معه، فينبغي تذكيره بعواقب سلوكه، وما سوف توقعه به من أخطار على مستقبله تصريحاً إن لم ينفع التّلميح، ثمّ الانتقال إلى الوعظ الدَّقيق، والضّرب على الأوتار الحسّاسة في نفسه، وإذا لم يُجدِ الوعظ

---

(١) بحار الأنوار: ١٩٥/٧١.

نفعاً انتقل الأمر إلى الزّجر الشّديد والعبوس بوجهه والاكفهرار، كما زجر أمير المؤمنين عليه السلام الأشعث بن قيس حين اعترضه، وهو يخطب، فردَّ عليه بقوّة وقسوة، قائلاً: «عَلَيْكَ لَعْنَةُ الله، ولَعْنَةُ اللاعنين؛ حَائكٌ ابْنُ حَائك، مُنَافِقٌ ابْنُ كَافِر، والله لَقَدْ أَسَرَكَ الْكُفْرُ مرَّةً، والإسْلامُ أُخْرَى، فَمَا فَدَاكَ مِنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا مَالُكَ ولا حَسَبُكَ، وَإنَّ امْرَأً دَلَّ عَلَى قَوْمه السَّيْفَ[1]، وَسَاقَ إلَيْهِمُ الْحَتْفَ، لَحَرِيٌّ أَنْ يَمْقُتَهُ الأَقْرَبُ، وَلا يَأْمَنَهُ الأَبْعَدُ»[2].

وإذا لم يجد ذلك كلّه انتقل إلى مرحلة الإعراض والصُّدود؛ ليشعره بحقارته ومهانته، ولعلَّ هذا ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا**﴾[3].

٣- جهادهم والغلظة عليهم كما تقدّم في فصل جهاد المنافقين، والغلظة هي الشّدّة في التّعامل معهم لردعهم وزجرهم عن مواصلة بثّ سموم نفاقهم، وإسماعهم الكلام الغليظ الشّديد في حال عدم نفع النّصح

(١) قال السّيّد الشّريف الرّضيّ: «فأراد به: حديثاً كان للأشعث مع خالد بن الوليد باليمامة، غرَّ فيه قومه، ومكر بهم حتّى أوقعَ بهم خالدٌ، وكان قومه بعد ذلك يسمّونه (عُرْفَ النّار)، وهو اسمٌ للغادر عندهم».

(٢) نهج البلاغة: ٧١-٧٢، خطبة: ١٩.

(٣) النّساء: ٦٢-٦٣.

والوعظ والإرشاد، وعدم التساهل والليونة والرفق بهم، وهذا واضح من قوله تعالى: ﴿وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[١]، وهذا لا يتنافى مع وجوب الرّفق في الدَّعوة إلى الله بالقول الحسن.

ولعلَّ السّرّ في وجوب الغلظة أنَّ المنافق فاسدُ العقل والقلب، فلا تنفع معه اللّيونة والرّفق؛ ولذا قد يكون الردع له بالكلام الشَّديد زجراً له وتأديباً وتحذيراً لغيره، لئلا يتأثّر غيره به.. كما أنَّ لكل موضوع وسيلته، فلا يصح اللين في مكان الخشونة ولا العكس جائز؛ لأنَّ «للّين مواضعه، وللشّدّة مواضعها. فإذا انتهى أمد اللّين فلتكن الشّدّة؛ وإذا انقضى عهد المصابرة فليكن الحسم القاطع.. وللحركة مقتضياتها، وللمنهج مراحله. واللين في بعض الأحيان قد يؤذّي، والمطاولة قد تضرّ»[٢].

وكما قال المتنبّي: [من الطّويل]

ووضع النّدى في موضع السّيف بالعُلا

مضرٌّ كوضع السّيف في موضع النّدى

٤- تحقيرهم وإذلالهم والعمل على منعهم من الوصول إلى المواقع السّياديّة، وعدم مخاطبتهم بما يشعرهم بالسّيادة والعلوّ، كما ورد في حديث بُريدة أنَّ الرَّسول ﷺ قال: «لا تَقُولُوا لِلْمُنَافِقِ سَيِّدَنَا؛ فَإِنَّهُ إِنْ يَكُ سَيِّدَكُمْ فَقَدْ أَسْخَطْتُمْ رَبَّكُمْ»[٣].

---

(١) التّوبة: ٧٣.

(٢) في ظلال القرآن: ٢٥٥/٤.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢٢/٣٨-٢٣، ح/٢٢٩٣٩.

وفي نصّ آخر أيضاً عن بريدة قال: «قال رسول الله ﷺ: إذا قال الرّجل للمنافق يا سيّد، فقد أغضب ربَّه تبارك وتعالى»[1].

و عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبَّادٍ، قَالَ: «سَمِعْتُ أَبَا عُثْمَانَ، يَقُولُ: كَانَ حُذَيْفَةُ يَؤَيِّسُ الْمُنَافِقَ»[2].

ولعلَّ السّرّ في ذلك هو لأجل تحجيم المنافقين وتقزيمهم؛ لئلا يكونوا ذوي وجاهة ومواقع ينشرون من خلالها مفاسدهم الفكريّة أو الأخلاقيّة والسّياسيّة.

٥- عدم الصَّلاة على جنائز أمواتهم، ولعلَّ الحكمة هنا اجتماعيّة؛ لأنَّهم وإن تظاهروا بالإيمان والإسلام إلا أنَّهم بقوا على الكفر والفسوق حتّى الممات، كما صرَّحت الآية الكريمة: ﴿**إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ**﴾[3].

ولكي يبقى تحقيرهم وإذلالهم وهوانهم وتحجيم دورهم وتقزيمهم مستقرّاً في النفوس لا بُدَّ من أن يلاحقهم الذُّلّ والحقارة والهوان إلى آخر لحظة من حياتهم، وبعد موتهم؛ بل لا بُدَّ من محو آثارهم من عالم الوجود الاجتماعيّ «ليقتلع وإلى الأبد- جذور النفاق والأفكار الشّيطانيّة، وليعلم المنافقون بأنّهم لا محل لهم في المجتمع

(١) المستدرك: ٣١١/٤.

(٢) أحمد بن حنبل، كتاب السّنّة: ٣٧٢، ح/٨٠٧.

(٣) التّوبة: ٨٤

الإسلاميّ، وكخطوة عملية في مجال تطبيق هذا الأسلوب الجديد، صدر الأمر الإلهيّ: ﴿**وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ**﴾[(١)]، إنَّ هذا الأسلوب- في الواقع- هو نوع من الكفاح السّلبيّ الفاعل في مواجهة المنافقين؛ لأنَّ النّبيّ ﷺ لم يستطع- للأسباب الَّتي ذكرناها آنفاً- أن يأمر بقتل هؤلاء صراحة لتطهير المجتمع الإسلاميّ منهم، أمّا هذا الأسلوب السّلبيّ فهو مؤثّر في احتقار هؤلاء وتحجيم دورهم، وتقزيمهم وطردهم من المجتمع الإسلاميّ»[(٢)].

ولهذا نهى الله نبيّه ﷺ أن يصلّي عليهم أو يقوم على قبورهم للدّعاء بعد موتهم، وهذا إمعان وتأكيد على إخراجهم من حوزة الإيمان..

كلّ ذلك لأجل أن يستأصل جذور النّفاق من القلوب، وبناء على ذلك منع الإسلام من الصّلاة على المنافق؛ «لأنَّه ملحق بالكافر، بل هو أسوأ منه، كالنّواصب والخوارج وسائر الملل المنتحلة للإسلام المحكوم بكفرهم... وصلاة النّبيّ ﷺ على المنافقين لا تدلّ على الوجوب، وإنّما تدلّ على المشروعيّة، والظّاهر أنَّه كان ضرباً من السّياسة تأليفاً لقلوب عشائرهم وذراريهم، وحينئذٍ فلا تشرع إلا في مثل تلك الموارد»[(٣)].

---

(١) التّوبة: ٨٤

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ١٥١/٦-١٥٢.

(٣) موسوعة الإمام محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء، الآثار الفقهية: ٢١١/٧-٢١١.

والدَّليل على ذلك أنَّه ﷺ حين طلب منه ابن رأس النّفاق عبد الله بن أُبَيّ أن يكفّن أباه بقميصه دفعه إليه إكراماً لولده المؤمن؛ «ولأنَّ الظّنّة بالقميص تخلّ بالكرم»، وحين قيل له ﷺ: «لمَ وجَّهتَ إليه بقميصك يكفّن فيه وهو كافر؟ فقال: إنَّ قميصي لن يغني عنه شيئاً من الله، وإنّي أؤمل من الله أن يَدْخُلَ في الإسلام خلقٌ كثيرٌ بهذا السَّبب، فيروى أنه أسلم من الخزرج ألفٌ لما راوه يطلب الاستشفاءَ بثوب رسول الله»[1].

بل حتّى الصلاة الظّاهريّة على المنافق هي لعنة عليه، فقد ورد في خبر عَامر بْن السّمْط عَنْ أَبي عَبْد اللَّه عليه السلام: «أَنَّ رَجُلاً من الْمُنَافقينَ مَاتَ، فَخَرَجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَليّ صَلَوَاتُ اللَّه عَلَيْهمَا- يَمْشي مَعَهُ، فَلَقيَه مَوْلًى لَهُ، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام: أَيْنَ تَذْهَبُ يَا فُلَانُ؟ قَالَ: فَقَالَ لَهُ مَوْلَاهُ: أَفرُّ منْ جَنَازَة هذَا الْمُنَافق أَنْ أُصَلّيَ عَلَيْهَا، فَقَالَ لَهُ الْحُسَيْنُ عليه السلام: انْظُرْ أَنْ تَقُومَ عَلَى يَميني، فَمَا تَسْمَعُني أَقُولُ فَقُلْ مثْلَهُ، فَلَمَّا أَنْ كَبَّرَ عَلَيْه وَليُّهُ، قَالَ الْحُسَيْنُ عليه السلام: اللَّهُ أَكْبَرُ، اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلاناً عَبْدَكَ أَلْفَ لَعْنَة مُؤْتَلفَة غَيْر مُخْتَلفَة، اللَّهُمَّ أَخز عَبْدَكَ في عبَادكَ وَبلادكَ، وَأَصْله حَرَّ نَارِكَ، وَأَذقْهُ أَشَدَّ عَذَابكَ؛ فَإنَّهُ كَانَ يَتَوَلّى أَعْدَاءَكَ، وَيُعَادي أَوْليَاءَكَ، وَيُبْغضُ أَهْلَ بَيْت نَبيّكَ ﷺ»[2].

---

(١) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: ٤٦٤/٢.

(٢) الكافي: ٤٨٢/٥-٤٨٣، ح/٤٥٢٤.

قال الإمام محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء قُدِّسَ سِرُّه تعليقاً على الحديث: «ولكنّ المنافق لا يختصّ بالنّاصبيّ، بل ويعمّه، وكلّ من أبطن أحد أسباب الكفر مع إنكار المبدأ أو المعاد أو الرّسالة»[1].

(١) موسوعة الإمام محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء، الآثار الفقهيّة: ٢١٣/٧.

الفصل السّادس

طبيعة نفوس المنافقين

نفوس المنافقين غير قابلة للتّطهير:

نفسيّات المنافقين مستنقع الرَّذائل بأصنافها كلّها، وبؤرة القبائح بألوانها كلّها، ومنبع الخبائث بروائحها كلّها، ومبعث الجرائم بدوافعها كلّها؛ فما من سيّئة فكريّة أو سياسيّة أو اجتماعيّة أو اقتصاديّة إلا ولها جذر نفاقيٌّ متأصّل في نفس المنافق، وما من شرّ وقع أو يقع في المجتمعات البشرية إلا وللنّفاق فيه أصل في دوافعه.

ولهذا يمكن القول: إنَّ أرضية نفس المنافق بعد أن تأصَّلت فيها ألوان الشّرور كلّها أصبحت منبعاً ومصدراً للأمراض القلبيّة والرّوحيّة والأخلاقيّة، تفسد كل ما يلامسها أو تمرّ عليه، فهي تفسد الماء والهواء، وتنشر الخراب والبلاء؛ لأنّها أصبحت كأرض قاحلة مالحة تبتلع الماء، ولا تنبت الزَّرع النّافع، بل تخرج الأشواك الجارحة، والنباتات الخبيثة، وتنتج الموادّ المفسدة، والسّموم القاتلة: ﴿**والّذي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلا نَكِداً**﴾[1].

---

(١) الأعراف: ٥٨.

ومُثّل بالنَّكد لقلّته وشدّته وعسره؛ لأنَّ النَّكد هو: العسر والخشونة في المعاشرات، أو قلّة العطاء والبخل، وهو أظهر، تقول: «نَكِدَ عيشهم- بالكسر- ينكد نكداً: اشتدَّ»[١] وعسر، فـ«كلّ شيءٍ خرج إلى طالبه بتعسُّر»[٢] هو نكد، ولذلك قيل: «فالخبيث من الأرض، وإن طاب بذرُهُ، وعذُبَ ماؤه لا ينبت إلا خبيثاً، والطّيّب من الأرض وإن كدر بذره وملح ماؤه لا ينبت إلا طيّباً»[٣].

فأرضيّة نفوس المنافقين فقدت قابليّة الإصلاح، وصارت غير قابلة للغفران؛ لأنَّ الفساد تأصَّل فيها، فأصبحت نجسة العين كما وصف الله تعالى المنافقين: ﴿**إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾[٤]، «أي: نجس، ومعناه: أنَّهم كالشّيء المنتن الَّذي يجب الاجتناب عنه، فاجتنبوهم كما تجتنب الأنجاس ﴿**وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ**﴾ أي: مصيرهم، ومآلهم، ومستقرّهم: جهنّم ﴿**جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾، أي: مكافاة على ما كانوا يكسبونه من المعاصي»[٥].

وقيل: «إن خبث باطنهم رجس روحانيّ، فكما يجب الاحتراز عن الأرجاس الجسمانيّة، فوجوب الاحتراز عن الأرجاس الرّوحانيّة أولى،

---

(١) الصّحاح: ٥٤٥/٢.

(٢) مفردات ألفاظ القرآن: ٦٩٤.

(٣) تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين: ٣٩.

(٤) التّوبة: ٩٥.

(٥) مجمع البيان: ١٠٧/٥.

خوفاً من سريانها إلى الإنسان، وحذراً من أن يميل طبع الإنسان إلى تلك الأعمال»(١).

وقيل: «نزلت الآيات في جدّ بن قيس، ومعتب بن قشير، وأصحابهما من المنافقين، وكانوا ثمانين رجلاً، ولما قدم النّبيّ ﷺ المدينة راجعاً من تبوك قال: لا تجالسوهم، ولا تكلّموهم، عن ابن عباس. وقيل: نزلت في عبد الله بن أُبّي، حلف للنّبيّ ﷺ أن لا يتخلّف عنه بعدها، وطلب إلى النّبيّ ﷺ أن يرضى عنه، عن مقاتل»(٢).

وبهذا يتضح لنا لَغْويّة الاستغفار(٣) لهم، وعدم قبوله إن وقع؛ لأنَّ أرضيّة نفوسهم غير قابلة للغفران لتمحّضها بالكفر والشّرك والنّفاق حتّى أمست غير قابلة للإصلاح أو التَّطهير، بل أصبحت عين النّجاسة، وحتّى عندما يُدْعَون للتّراجع والتّوبة عن موبقاتهم تراهم يستكبرون، ويعرضون بلَيِّ رؤوسهم كما وصفهم تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**﴾(٤).

قيل لرأس النّفاق عبد الله بن أُبي بن سلول: «يا أبا حباب، إنّه قد أنزل فيك آي شداد، فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك»، فلوى رأسه، وقال: «أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة

(١) التَّفسير الكبير: ١٦/١٦٤.

(٢) مجمع البيان: ٥/١٠٦.

(٣) انظر الميزان في تفسير القرآن: ٩/٣٦٦.

(٤) المنافقون: ٥.

مالي فأعطيت، فما بقي إلا أن أسجد لمحمّد»[١].

ومع ذلك كان ابن أُبيّ يحاول أن يغطّي على خبثه، فيتظاهر أمام رسول الله ﷺ والمسلمين بنصرة الإسلام؛ فيقف بعد خطاب رسول الله ﷺ يوم الجمعة، ويدعوهم إلى الإيمان، ونصرة الرّسول، فقال لهم: «أيّها النّاس، هذا رسول الله ﷺ بين أظهركم، أكرمكم الله وأعزّكم به، فانصروه وعزّروه، واسمعوا له وأطيعوا [له]»، ثمّ جلس، حتّى إذا صنع يوم أحد ما صنع، ورجع بالنّاس، قام ففعل ذلك كما كان يفعله، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه، وقالوا: «اجلس، أي عدوّ الله، لست لذلك بأهل، وقد صنعتَ ما صنعت»، فخرج يتخطّى رقاب النّاس، وهو يقول: «والله لكأنّما قلتُ بجراً أن قمت أشدد أمره»، فلقيه رجل من الأنصار بباب المسجد، فقال: «ما لك؟ ويلك!» قال: «قمت أشدد أمره، فوثب عليَّ رجال من أصحابه يجذبونني ويعنفونني، لكأنّما قلتُ بجراً أن قمت أشدد أمره»، قال: «ويلك! ارجع يستغفر لك رسول الله ﷺ»، قال: «**والله ما أبتغي أن يستغفر لي**»[٢].

وهكذا يتّضح أنَّ استغفاره لا ينفعهم، فقال: ﴿**سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾[٣]، أي يتساوى

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ١٤٠/٢٨.

(٢) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٦١٨/٣-٦١٩.

(٣) المنافقون: ٦.

الاستغفار لهم، وعدمه ﴿**لَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ**﴾؛ لأنَّهم يبطنون الكفر، وإن أظهروا الإيمان ﴿**إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾، أي لا يهدي القوم الخارجين عن الدّين والإيمان إلى طريق الجنّة»[١].

وهكذا نقف على سرّ قوله تعالى لرسوله الكريم: ﴿**اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾[٢]؛ لأنَّ نفوسهم فقدت قابليّة الإصلاح كالأرض السّبخة الّتي لا تصلح لزراعة شيء فيها، ولا يزيدها الماء إلا خشونة وعفونة.

وأخيراً: إنَّ رقم (سبعين) وارد على سبيل المبالغة في الكثرة، وليس للعدد (وهذا أسلوب مستعمل في الكلام العربيّ).

وقد جاء نفي قبول الاستغفار لهم بـ (لن) المفيدة للتّأبيد؛ لأنَّ قلوبهم لم تلامس الإيمان بالله، ورسوله، وهذا ما يدلّ عليه قوله تعالى في آخر الآية الّتي علّلت عدم قبول الاستغفار لهم: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾، «أي جرت سنّته [تعالى] في الرّاسخين في فسوقهم وتمرّدهم المصرّين على نفاقهم، الّذين أحاطت بهم خطاياهم أن يفقدوا الاستعداد للتّوبة والإيمان، فلا يهتدون إليهما سبيلاً»[٣].

---

(١) مجمع البيان: ٢٤/١٠.

(٢) التّوبة: ٨٠

(٣) تفسير المنار: ٥٦٧/١٠.

إذن عدم قبول الاستغفار لهم لعدم إيمانهم بالله ورسوله واليوم الآخر، وإن تظاهروا فيه لكنّهم أخفوا حقيقتهم، وهي أنَّهم كافرون بالله، ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾(١).

المنافقون عبيد الأهواء والشّهوات:

المنافق محكوم لأهوائه وشهواته ومصالحه الذّاتيّة؛ ولأجل ذلك نجده دائماً يقف على مفترق طريقين متأمّلاً بعمق أيّهما يحقّق له مصالحه الذّاتيّة، ويشبع شهواته مهما كان هذا المسلك ولو كان مخالفاً للعقل والشّرع والمنطق، ومعاكساً للحق والعدل والجمال؛ لأنَّ الميزان لديه إشباع الأهواء والشَّهوات، لا اتّباع المبادئ الحقّة الرَّشيدة، وتطبيق أحكام الله تعالى، ولمّا كانت المسالك مختلفة الأغراض، متعدّدة الأساليب تتأرجّح وفق ميول النَّفس الأمّارة بالسّوء؛ ومن هنا نجد أهل النّفاق لا يستقرّون على حالة إنسانيّة صالحة، فتراهم يظهرون بوجوه متعدّدة، وألوان متباينة، ومسالك متعرّجة باسم الحقّ والحقيقة، ويبطنون الخبث والقبح والزَّيف؛ وقد تَخْفى حقيقتهم على كثير من النّاس؛ لكيدهم وحيلهم وخدعهم وليونة أقوالهم، وتظاهرهم بالتّواضع، وتصنّعهم بحسن الخلق والفضائل الإنسانيّة؛ ولهذا قد ينقسم المجتمع

(١) التّوبة: ١١٣.

الَّذي يعيشونه في النَّظر إليهم إلى فئات وأقسام مختلفة ومتباينة في الموقف منهم، وتحليل مواقفهم وأفكارهم وسلوكهم، وقد عالج القرآن الكريم اختلاف مواقف المسلمين منهم باستفهام استنكاريّ شديد «على ما حصل من المؤمنين من التفرقة في أمر المنافقين إلى فرقتين مختلفتين، فرقة تتبرّأ من المنافقين وترى قتالهم، وفرقة أخرى تتولاهم وتشفع لهم»[1]، يقول تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً﴾[2].

وبهذا أصبحوا (ضالّين مضلّين)، ضالّون لفساد عقيدتهم وأفكارهم، ومضلّون لغيرهم؛ لمخادعتهم، ومكرهم، واحتيالهم، وعدم وضوح مسالكهم للآخرين؛ ولهذا قد ينخدع بهم الغافل من ذوي الظّنّ الحسن من حيث لا يدري، فلنتأمّل بأحوالهم من خلال الآية الكريمة: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ﴾.

ففي سَبب نزوَلها قَيل: إَنَّها نزلت في قوم أقاموا في المدينة، فأظهروا الإسلام، ولم يرق لهم المقام في المدينة، بل استثقلوها ولم يطيقوا المقام فيها، فرأوها وبالاً عليهم، فلم توافق أَبدانَهم، فأرادوا أن يحتالوا لأجل الفرار، فاستأذنوا النّبيّ للخروج، فأذن لهم وخرجوا،

(١) انظر: مواهب الرّحمن: ١٢٢/٩.

(٢) النّساء: ٨٨.

وتنقّلوا من منطقة إلى أخرى إلى أن لحقوا بالمشركين، فاختلف المسلمون بهم، فقالت فئةٌ من المسلمين: إنَّهم لو كانوا مؤمنين لبقوا معنا، وقال آخرون: إنَّهم مسلمون فليس لنا الحق أن ننسبهم إلى الكفر، فأنزل الله فيهم الآية الكريمة.

وقيل: نزلت في قوم من النّاس أظهروا الإسلام في مكّة، وكانوا يتعاطفون مع المشركين على المسلمين، فاختلف المسلمون في تحديد الموقف منهم.

وقيل: نزلت في المتخلّفين والمرجفين في معركة أحد، فاختلف فيهم المسلمون، وقيل: غير ذلك.

وعلى كل حالّ فالنّتيجة واحدة، وهي اختلاف الموقف تجاه المنافقين؛ لأنَّهم دائماً وأبداً يظهرون بوجوه متعدّدة، ويتلوّنون ألواناً متباينة، ويتغيرون تغيّر الحرباء، ويتقلّبون بحسب مقتضيات المنفعة، ومن هنا يجب على المؤمن أن لا يطمئن لهم بأيّ حال من الأحوال؛ والسّرُّ في ذلك أنَّ الله تعالى أركسهم في مستنقعاتهم الآسِنَة.

(والارتكاس) كلمة موحية بالاحتقار لهم بنغمها لفظاً ومعنًى لبيان مدى درجة الانحطاط والارتداد على الأعقاب؛ لأنَّ معنى (الركس): «ردّ الشّيء من آخره إلى أوّله، فالرّكس والنّكس والمركوس والمنكوس واحد، ومنه يقال للرّوث: الرّكس؛ لأنَّه ردّ إلى حالة خسيسة، وهي حالة النَّجاسة، ويسمّى رجيعاً لهذا المعنى أيضاً، وفيه لغتان: ركسهم وأركسهم

فارتكسوا، أي ارتدّوا. وقال أميّة: [من البسيط]

فأركسوا في حميم النّار إنّهم

كانوا عصاة وقالوا الإفك والزّورا»[١]

«والحاصل أنَّ الرّكس والإركاس شرّ ضروب التّحوّل والارتداد، وهو أن يرجع الشّيء منكوساً على رأسه إن كان له رأسٌ، أو مقلوباً أو متحولاً عن حالة إلى أردأ منها، كتحوّل الطّعام والعلف إلى الرّجيع والرّوث، والمراد هنا تحوّلهم إلى الغدر والقتال أو إلى الشّرك. وقد استعمل هنا في التّحوّل والانقلاب المعنويّ، أي من إظهار الولاء والتّحيّز إلى المسلمين إلى إظهار التّحيّز إلى المشركين، وهو شرّ التّحوّل والارتداد المعنويّ كأنَّ صاحبه قد نكس على رأسه وصار يمشي على وجهه، ﴿**أَفَمَنْ يَمْشِي مُكِبّاً عَلى وَجْهِهِ أَهْدى أَمَّنْ يَمْشِي سَوِيّاً عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[٢]»[٣].

ولا أظنّ أنَّ هناك وصفاً لحالة التّردّي والسّقوط والانحدار أقسى من هذا الوصف، وهذه هي النّتيجة الحتميّة لمن يسلك مسالك المنافقين على كل حال؛ ومن هنا جاء الاستفهام شديد الاستنكار؛ لأجل بيان حالة التّردّي الأخلاقيّ والفكريّ للمتمحّضين بالنّفاق، وتوعيةً وتذكيراً

(١) التّفسير الكبير: ٢١٩/١٠.

(٢) الملك: ٢٢.

(٣) تفسير المنار: ٣٢٢/٥.

للمدافعين عنهم بأنَّه لا فائدة من دعوتهم، وإرشادهم، ونصحهم، وتذكيرهم بقوله تعالى: ﴿**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ**﴾(١)؛ فمن يضلّه الله لا سبيل لهدايته إذا تمحَّض بالنّفاق، وصار له النّفاقُ طبعاً وفكراً وعادةً وسلوكاً؛ لأنَّ الله يريد للإنسان أن يهتدي، بل هداه إلى سبيل الرَّشاد والصَّلاح، فاستحبّوا العمى على الهدى، وسلكوا سبيل الضَّلال والفساد؛ فانحطّوا من القمّة إلى القاع ﴿**فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى**﴾(٢)، بانحرافهم عن الفطرة السَّليمة بسلوك مسلك الخداع والمكر والتّحايل حتّى أصبحت أرضيّة نفوسهم فاسدة، وقلوبهم عليلة لا تقبل الهدى والرَّشاد لسوء أعمالهم، وخبث سرائرهم، وهذا هو السَّبب الرَّئيس في ضلالهم وكفرهم بما ترسّخ في نفوسهم من بذور الفساد والانحراف عن جادّة الصَّواب، ولم يتوقّفوا عند هذا الحدّ من الانحدار والسُّقوط والضَّياع، وإنَّما صاروا يسعون لإضلال الآخرين، ويحبّون أن يجرّوهم معهم؛ ليكونوا على شاكلتهم، وليركسوهم معهم في مستنقع النّفاق والكفر والضلال الَّذي أسقطوا أنفسهم فيه، كما وصفهم تعالى: ﴿**وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً**﴾(٣)، أي يريدون منكم أن تكونوا مثلهم وعلى مسلكهم.

---

(١) النّساء: ٨٨.

(٢) فصّلت: ١٧.

(٣) النّساء: ٨٩.

وهذا هو ديدن أئمة الكفر ودعاة الضَّلال، فلا يتوقّفون عند حدود ضلالهم، وإنّما يريدون أن يضلّوا البشرية كلها لو استطاعوا..

ولذلك حدَّد تعالى الموقف من هؤلاء صريحاً واضحاً حدّيّاً يقطع حبال الولاء لهم والابتعاد عنهم، بل أوجب كشف حقيقتهم؛ لئلا يطمعوا في إضلال الآخرين، ﴿**فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾(١)؛ لأنَّ الولاية بين المؤمنين تقوم على الصّدق والإخلاص والوعي لهدى الله تعالى، ولما كان المنافقون مجرّدين عن ذلك كلّه، فلا يجوز تولّيهم، بل العكس هو الصَّحيح؛ لأنَّهم هم الأعداء الحقيقيّون لله ورسوله والمؤمنين، ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾(٢).

بل نفى تعالى الإيمان عمّن يوالي أعداء الله ورسوله: ﴿**لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَو أَبْنَاءَهُمْ أَو إِخْوَانَهُمْ أَو عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(٣).

---

(١) النّساء: ٨٩.

(٢) المنافقون: ٤.

(٣) الحشر: ٢٢.

هكذا جاء النَّهي حاسماً لقطع حبال المودّة والولاء مع المنافقين: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾(١).

بل لا يتوقّف الأمر عند عدم الولاء، بل يجب العمل على اجتثاث جذورهم في حالة إصرارهم ومواصلة إفسادهم وكيدهم في الوسط الاجتماعيّ؛ لنشر ضلالاتهم وأباطيلهم؛ ولهذا أمر الله تعالى بوجوب رصدهم، ومتابعة ألاعيبهم والحذر منهم، يقول تعالى: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾(٢).

أَخْبَثُ مَسَالِكِ الْمُنَافِقِينَ:

الأصل في سلوك المنافقين أنَّهم لا يظهرون على حقيقتهم، بل يُظهرون شيئاً ويبطنون أشياء، يتظاهرون بالخير والجمال والطَّهارة، ويبطنون الشَّرَّ والقبح والقذارة، ويعرضون أفكارهم ورؤاهم ومشاريعهم بأسلوب جذّاب مقنع يحمل في طيّاته السُّموم والآفات وبكلمات معسولة، وبعروض خادعة تجذب المخاطب وتقنعه إذا لم يكن عارفاً بهم كما وصفهم تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ**﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿**مِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي**

(١) الممتحنة: ١.

(٢) المنافقون: ٤.

(٣) المنافقون: ٤.

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ﴾[1]؛ لليونة كلماتهم، وخلابة أساليبهم وتبجّحهم بإرادة الصَّلاح والإصلاح والخير للمخاطب، وبأسلوب عاطفيّ جذّاب، وتَزْيين لما يريدون تحقيقه من إيصال الفكرة، أو تنفيذ مشروع يبغون من ورائه مكاسب مادّيّة أو معنويّة، وقد يبالغون في إخفاء مقاصدهم؛ لأجل تحقيق أهدافهم؛ لأجل إقناع الشَّخص أو الجهة الَّتي يُراد إسقاطها في شباكهم، وقد يبرزون حرصهم على مصلحة المخاطب ظاهراً أكثر ممّا هو يريده؛ ليركسوه في مستنقعاتهم، وهذا مسلك قديم في تاريخ النّفاق، كما كان يصنع رأس النّفاق ابن أُبَيّ كما تقدّم ذكره في ما سبق؛ ليكسب قناعة مخاطَبيه، ولِيَنفذ إلى كيانهم ويفسده.

ومن أقذر هذه المسالك وأخطرها هو التّسلّل الفكريّ إلى الأديان والمذاهب الفكريّة لإفسادها وتدميرها، وتغيير مسارها، وتحريف عقيدتها، وتبديل حقيقتها الأصليّة بدسّ الأفكار والعقائد الغريبة عنها في منظومتها الفكريّة؛ تلك الأفكار الَّتي يريدون ترويجها وإضلال النّاس بها، بطرق خفيّة فظيعة أطلق عليها بعض الباحثين **(التّسميم الفكريّ)**، وهي عمليّة إعلاميّة فنّيّة مغرضة تتضمّن زرع أفكار ورؤى وتصوّرات مخرّبة فاسدة في الأذهان الَّتي يراد حرفها عن منهجها الأصيل وزعزعة ثقتها بفكرها وخطّ سيرها أو إطلاق إشاعات بقصد بلبلة الأفكار، وبعث

(١) البقرة: ٢٠٤.

القلق في النُّفوس وخلق الاضطراب الاجتماعيّ، وإحداث الفوضى لخلط الحقّ بالباطل، والصّدق بالكذب، والهدى بالضَّلال لتضييع الحقيقة على النّاس الّذين لا يستطيعون أن يميّزوا الأوهام والأساطير عن الحقائق النّيّرة المتمثّلة بالعقائد السَّليمة والأفكار الصحيحة، وما أكثرهم في الأوساط الاجتماعيّة!

وموجز القول: إنَّ التَّسميم الفكريّ هو: «عمليّة غرس مفاهيم معيّنة لا بُدَّ وأن تقود الخصم أو الصّديق إلى الاقتناع بأفكار هي في حقيقتها لا تعبّر عن الحقيقة، ولكن من مصلحة من يقوم بعملية التَّسميم أن يُقْنع خصمه بها، فإذا بذلك الاقتناع يقوده إلى موقف معين من الضّعف لا يمكن أن يؤدّي إلا إلى الهلاك»(١).

ومن هذه الأساليب الشّيطانيّة الجهنّميّة تنبعث الفتن الهوجاء كليلٍ مظلمٍ لا يميّز فيه العدوّ من الصّديق، والمحقّ من المبطل.

وحمايةً للمسلمين من السقوط في بؤر النّفاق هذه، كان أئمّة الهدى عليهم السلام يلفتون الأنظار؛ ليحفّزوا العقول، ويوقظوا الضَّمائر بأمثلة حيّة من الواقع لا تنسى؛ نذكر من ذلك قول أمير المؤمنين عليه السلام: «ما لي أرى النّاس إذا قرب إليهم الطَّعام ليلاً تكلّفوا إنارة المصابيح ليبصروا ما يدخلون بطونهم، ولا يهتمّون بغذاء النَّفس بأن ينيروا مصابيح ألبابهم بالعلم ليسلموا من لواحق الجهالة والذُّنوب في اعتقاداتهم وأعمالهم»(٢).

---

(١) الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ: ٢١٣.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج البلاغة: ٢٦١/٢٠، الحكم المنسوبة: حكمة ٥٣.

وقال الإمام الحسن بن علي عليه السلام: «عجب لمن يتفكّر في مأكوله، كيف لا يتفكّر في معقوله، فيجنّب بطنه ما يؤذيه، ويودع صدره ما يزكّيه»(١).

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى حذّروا من الوقوع في شراك المنافقين ببيان أسباب إثارة الفتن، وما تتركه من آثار سلبيّة في الأوساط الاجتماعية والسياسية كما جاء عن أمير الحكمة والبيان سيّد الأوصياء عليّ عليه السلام بقوله: «إِنَّمَا بَدْءُ وُقُوعِ الْفِتَنِ أَهْوَاءٌ تُتَّبَعُ، وَأَحْكَامٌ تُبْتَدَعُ، يُخَالَفُ فِيهَا كِتَابُ الله، ويتولّى عَلَيْهَا رِجَالٌ رِجَالاً عَلَى غَيْرِ دين الله، فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ؛ وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لَبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ، وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ، فَيُمْزَجَانِ! فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَى أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الله الْحُسْنَى»(٢).

وهكذا «إذا وقعت الفتن، فسيعيش المجتمع ظاهرة الاضطراب الفكريّ والنّفسيّ والسّلوكي بتبادل النّظرة السّلبيّة، والموقف المتشنّج، ويدخل في صراع دائم مستمرّ بتبادل الاتّهامات ودفعها، ويصبح النّبز بالكفر والانحراف والفسق هو الحاكم على العلاقات دون الاستناد إلى الأصول الواضحة للمنهج الإسلاميّ؛ ويدفع التّعصّب أفراد المجتمع إلى اتّخاذ المواقف تبعاً للمتعصّبين له، ويختلط الحقّ بالباطل، وتلتبس

(١) الرّاونديّ، الدّعوات: ١٤٤-١٤٥.

(٢) نهج البلاغة: ١٠٦، خطبة: ٥٠.

المفاهيم والقيم على النّاس، فيندفعون دون رويّة ودون بحث عن الحقيقة أو رغبة في المعرفة، ويتخلّل اندفاعَهم جدالٌ لا ينتهي إلى شيء، تصحبه المواقف المتشنّجة من اتّهامات وتعيير وتحقير، فتعمى بصائر المتعصّبين، وتنغلق منافذ الهدى في عقولهم ونفوسهم ومواقفهم، ففي مثل هذه الحالة لا تنفع معهم المواعظ والإرشادات والنَّصائح، ولا يدركون الخطر المحدق بهم، بل يحسبون أنَّهم يحسنون صنعاً»[١].

والعجيب في الأمر: أنَّ المنافق الَّذي يعمل على بثّ السُّموم الفكريّة والسّياسيّة، ولا سيّما إذا كان يعمل ضمن خطّ النّفاق الدّوليّ يحاول أن يخترق أدقّ المؤسّسات الفكريّة والمواقع السّياسيّة، وقد يقضي وقتاً طويلاً، ويبذل جهداً كبيراً لدراسة أوضاع الّذين يريد الإيقاع بهم بصورة غير مباشرة، من حيث أفكارهم العقائديّة، وأوضاعهم الاقتصاديّة، وثرواتهم القوميّة، وعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم، وقد يتظاهر باعتناق دينهم، ويتزيّى بأزيائهم، وقد يصبح من علمائهم ودعاتهم ومن أشدّ المدافعين عن عقيدتهم ودينهم؛ كلّ ذلك ليكسب ثقتهم كي ينفّذ مخطّطاته فيهم بصورة كاملة ومن خلالهم... وهذا ليس ضرباً من الخيال، وإنَّما هناك حقائق تاريخيّة برهنت أنَّ بعض المتسلّلين- ولا سيّما اليهود الّذين مهروا في هذا المسلك العسير الخطير- إلى بعض الأديان والمذاهب، فحَرَّفوها عن منهجها العقائديّ، وغيّروا أحكامها،

---

(١) مركز الرّسالة، الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر: ٣٤-٣٥.

ودسّوا فيها خرافتهم وأساطيره حتّى أمست مناقضة بصورة كاملة عمّا كانت عليه.

وخير مثال على ذلك ما حدث للنّصرانيّة حين تظاهر كبير علماء اليهود آنذاك (شاؤول)، وأعلن اعتناقه للنصرانية، وأصبح من العلماء البارزين فيها الّذين يحملون أفكارها وعقائدها، ويبشرون بها حتى حيَّر انتقاله هذا العلماء والباحثين من اليهود والنَّصارى، ثمَّ أطلق على نفسه اسم (بولس)، وبدأ مخطّطه كما قال صاحب كتاب بابوات من الحيّ اليهوديّ (يواكيم برنز): «لقد كان بولس سبّاقاً إلى قبول فكرة (انفصال) المسيحيّة عن اليهوديّة، و(مهّد) (بإنشاء) (العقيدة) (المناسبة)..».

وهذا المؤلف اليهوديّ يتفاخر بمقدار ما أحرزه اليهود من إنجازات، ويتفاخر بـ(بولس)، فيقول: «إنَّه حرر المسيحية من القيود الَّتي وضعها المسيح»[1]، أي أنَّه حرَّف عقائدها وأحكامها، فأصبحت عقيدة يهوديّة بعد أن كانت إلهيّة، وخلاصة ما عمله بولس، وهو رجل على مستوى عالٍ من الثّقافة مفطوراً على فرط الخيال، وكانت نفسه مملوءة بذكريات الفلاسفة.. فاستطاع أن يدسّ أفكاره الَّتي خطَّط لها؛ ليقلب المسيحيّة من تعاليم التَّوحيد الَّتي بشّر بها المسيح عليه السلام إلى أفكاره المبتدعة، والَّتي استطاع أن يُغَيّر بها عقيدة النّاس في المسيح عليه السلام من عبد لله، ورسول منه تعالى إلى إلهٍ يعبد من دون الله بخُطّة شيطانيّة تشبه

(١) عقيدة المسيح الدّجّال: ٤٩، وقد نقلها من كتاب (باباوات من الحيّ اليهوديّ: ص٧٤).

الأفلام الخياليّة قائلا: «ولما كنتُ ذاهباً في ذلك إلى دمشق بسلطان ووصية من رؤساء الكهنة. رأيتُ في نصف النّهار في الطّريق أيّها الملك نوراً من السّماء أفضل من لمعان الشَّمس قد أبرق حولي، وحول الذّاهبين معي. فلمّا سقطنا جميعنا على الأرض سمعتُ صوتاً يكلّمني، ويقول باللُّغة العبرانيّة: شاوُل شاوُل، لماذا تضطهدني؟ صعبٌ عليك أن ترفس (مناخس). فقلتُ أنا: من أنت يا سيّد؟ فقال: أنا يسوع الَّذي تضطهده»[(١)].

وفي رواية أخرى: ادّعى أنَّه رأى المسيح ذات ليلة على طريق دمشق، وأعطاه الإنجيل، وأمره أن يبشّر به، فجاءهم حاملاً الإنجيل المزعوم، فوقف مخاطباً لهم: «أيّها الأخوة: إنَّ الإنجيل الَّذي أبشّركم به ليس إنجيلاً بشريّاً!! فلا أنا تسلّمته من إنسان، ولا تلّقنْته تلقيناً، بل جاء بإعلان من يسوع المسيح..»[(٢)].

وخلاصة المخطّط الَّذي رسمه كبار علماء اليهود؛ لتحريف ما جاء به روح الله عيسى بن مريم عليه السلام من عبادة الله إلى عبادة مخلوقاته كما نقل ابن حزم الأندلسيّ، فقال: «وفيما سمعنا علماءهم يذكرونه ولا يتناكرونه معنى أنَّ أحبارهم الَّذين أخذوا عنهم دينهم والتّوراة وكتب الأنبياء عليهم السلام اتّفقوا على أن رشوا بولس البنياميني لعنه الله، وأمروه بإظهار

(١) ظاهرة النّفاق وخبائث المنافقين في التّأريخ: ٥٠٣/٢؛ وقد نقله عن الإصحاح السّادس والعشرين.
(٢) عقيدة المسيح الدّجّال: ٥١.

دين عيسى عليه السلام، وأن يضلّ أتباعهم ويدخلهم إلى القول بإلهيّته، وقالوا له: نحن نتحمّل إثمك في هذا، ففعل وبلغ من ذلك حيث قد ظهر»[١].

وهكذا استطاع أن يدسّ في المسيحيّة أفكاره الضالّة المضلّة، وحرَّف دين الله تعالى، وأخرج النّاس من خط التّوحيد إلى منهج الشّرك حين جعل المسيح ابناً لله، بل جعله ربّاً وإلهاً، وأدخل في المسيحيّة عقيدة التَّثليث، وجاء بما لا عهد للمسيحيّة به من عقائد وأفكار وأحكام، «فأسَّس رسالة أخرى جديدة لا تمت إلى عقائد ومبادئ المسيح في شيء».

فبولس رجل يهوديّ الأب والأم، شديد التّعصّب لدينه (اليهوديّة)، درس الفلسفة على يد أشهر معلّميها في زمانه، حاقداً أشدّ الحقد على النصرانية، مشمّراً عن ساقه في معاداة هذا الدّين الجديد، بل كان لصّاً يسطو على الكنائس، وفي لعبة يهوديّة شيطانيّة تحوَّل (بولس) إلى (رسول) من عند (ربّ المجد يسوع)، إذ ادّعى أنَّ (الرَّب يسوع) ظهر، وهو في طريقه لدمشق، وعاتبه على معاداته له ولأتباعه، وأمره أن يكون رسولاً يتكلّم بلسان المسيح عليه السلام، فأحلَّ وحرّم، وكتب الرَّسائل إلى البلاد، وضُمّت رسائله فيما بعد إلى الكتاب المقدّس، فأحدث أخطر انحراف عقديّ عرفته البشريّة، وهو ما يعرف بالمسيحيّة اليوم[٢].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنّحل: ٢٢١/١.

(٢) الشّبكة العنكبوتيّة، مادة بولس، بتصرّف واختصار.

وهكذا قد أدّى (بولس) أخطر دور نفاقيّ صنعه منافقٌ في تأريخ النّاس، إذ استطاع بادّعاءاته مع أنصاره اليهود المنافقين في النَّصرانيّة أن يجعلوا ما وضعه (بولس) هو دين النّصرانيّة الَّذي أقرَّته الدّولة الرّومانيّة فيما بعد لا ما أنزله الله على عيسى عليه السلام(١).

وكما كاد المنافقون للمسيحيّة، فقد كان كيدهم للإسلام أكبر إلا أنَّ الله حفظ كتابه من التَّحريف، فلم يستطيعوا أن يتسلّلوا إليه، ويفرّغوا سمومهم، إلا أنَّ السّنّة الشَّريفة بما أنَّها غير مدوّنة، والمدوّن منها أحرق مبكراً قبل أن ينشر(٢)؛ ولذلك استطاعوا أن يدسّوا بعض سمومهم المتضمّنة أساطير وخرافات وألوان من الأكاذيب والافتراءات؛ لتشويه حقيقة الإسلام، والطَّعن بالنّبيّ الأكرم صلى الله عليه وآله بما نسبوه إليه من أكاذيب،

---

(١) انظر: ظاهرة النّفاق وخبائث المنافقين في التّأريخ: ٢/٥٠٢.

(٢) قال الذّهبيّ: «قالت عائشة جمع أبي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله، وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلّب كثيراً، قالت: فغمّني، فقلتُ: أتتقلّب لشكوى أو لشيء بلغك؟ فلمّا أصبح قال: أي بنيّة، هلمّي الأحاديث الَّتي عندك فجئته بها، فدعا بنار فحرقها» تذكرة الحفّاظ: ١/٥؛ وأورده المتّقي الهنديّ في كنز العمّال: ١٠/٢٨٥، ح/٢٩٤٦٠.

وأمّا عمر بن الخطاب فقد روى الخطيب البغداديّ عن القاسم بن محمد: «أنَّ عمر بن الخطّاب بلغه أنَّه قد ظهر في أيدي النّاس كتب، فاستنكرها، وكرهها، وقال: "أيّها النّاس، إنَّه قد بلغني أنّه قد ظهرت في أيديكم كتب؛ فأحبّها إلى الله أعدلها وأقومها، فلا يبقينّ أحدٌ عنده كتاب، إلا أتاني به، فأرى فيه رأيي"، قال: فظنّوا أنَّه يريد أن ينظر فيها، ويقوّمها على أمر لا يكون فيه اختلاف؛ فأتوه بكتبهم، فأحرقها بالنّار، ثمّ قال: "أمنية كأمنية أهل الكتاب"»، تقييد العلم: ٥٢.

وقد فصّل في ذلك المحامي الرّاحل أحمد حسين يعقوب في كتابه (أين سنّة الرّسول وماذا فعلوا بها)، فلينظر.

وهو ما عُرِفَ عند علماء الحديث بـ(الإسرائيليّات)، وقد برز في ذلك من علماء اليهود الّذين تظاهروا بالإسلام، وتصنّعوا بالعلم والإيمان والورع والتّقوى احتيالاً وكذباً؛ وبحسب تعبير ابن إسحاق: «تعوَّذوا بالإسلام» إذ قال: «وكان ممّن تعوَّذ بالإسلام، ودخل فيه مع المسلمين، وأظهره وهو منافق، من أحبار يهود. من بني قينقاع: سعد بن حنيف، وزيد بن اللُّصيت، ونعمان بن أوفى ابن عمرو، وعثمان بن أوفى»(١).

وهكذا تدرّجوا في تخطيطهم إلى أن وصلوا درجةً كسبوا فيه ثقة شريحة واسعة من المسلمين بإسناد من خلفاء عصورهم وملوكهم الّذين تسلّلوا إلى بلاطهم، وأصبحوا مستشارين ومحدّثين يبثّون أفكار اليهود والنَّصارى بين المسلمين حتّى أصبح بعضهم واعظاً في بعض مساجد المسلمين، بل في مسجد رسول الله ﷺ وبحضور كبار الخلفاء(٢).

وأبرز هؤلاء «كعب بن ماتع الحميريّ اليمانيّ العلامة الحبر، الَّذي كان يهوديّاً، فأسلم بعد وفاة النّبيّ ﷺ، وقدم المدينة من اليمن في أيّام

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٦٩/٢.

(٢) عن يحيى بن عبد الرّحمن بن حاطب عن أبيه قال: «جلسنا إلى كعب الأحبار في المسجد، وهو يحدّث، فجاء عمر، فجلس في ناحية قوم، فناداه، فقال: ويحك يا كعب! خوّفنا، فقال: والَّذي نفسي بيده! إنَّ النّار لتقرب يوم القيامة، لها زفير وشهيق... ولو كان لك يا ابن الخطّاب عمل سبعين نبيّاً لظننت أن لا تنجو، قال عمر: والله إنَّ الأمر لشديد»، المصنّف لابن أبي شيبة الكوفيّ: ٩٣/٨؛ وينظر في جلوس الخليفة عمر لسماع وعظ كعب الأحبار: الزّهد لأحمد بن حنبل: ١٠٠، ح/٦٤١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهانيّ: ٣٦٨/٥-٣٧١؛ تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: ١٦٦/٥٠.

عمر، فجالس أصحاب محمّد ﷺ، فكان يحدّثهم عن الكتب الإسرائيليّة، ويحفظ عجائب، ويأخذ السّنن عن الصَّحابة»[1].

ومنذ أن أعلن كعب الأحبار إسلامه، راح يدسّ سمومهم بين المسلمين بما يحمله من الفكر اليهوديّ، وقد اتّسم بسعة علمه في أخبار اليهود، وأساطيرهم، وراح بمكره ودهائه وخبثه اليهوديّ يُحَدّث المسلمين على رؤوس الأشهاد، وبحضور الحُكّام كعمر ومعاوية، فراجت أكاذيبه وأساطيره، وصارت تحسب جزءاً من السّنّة فيما يسمى بـ(الصّحاح).

قال الدّكتور طه حسين: «.. ورجل.. كان يقيم بالمدينة، ولكنّه كان غريب الأطوار، عَرف كيف يخدع كثيراً من المسلمين ومنهم عمر، وهو كعب الأحبار، وكان كعب يهوديّاً من أهل اليمن، زعم أنّه سأل عليّاً رحمه الله عن النّبيّ حين ذهب عليٌّ إلى اليمن مرسلاً من رسول الله ﷺ، فلمّا أنبأه عليٌّ بصفة النّبيّ عرف هذه الصّفة ممّا كان يجد بزعمه في التّوراة، ولم يأتِ المدينة أيّام النّبيّ، وإنّما أقام على يهوديّته في اليمن، وزعم هو بعد ذلك للمسلمين أنَّه أسلم ودعا إلى الإسلام في اليمن، وقد أقبل إلى المدينة أيّام عمر، فأقام فيها مولى للعبّاس بن عبد المطلب رحمه الله، وكان بارعاً في الكذب على المسلمين، يزعم أنَّه يجد صفاتهم في التّوراة، وربّما زعم لهم أنّه يجد صفاتهم في الكتب، وكان المسلمون

---

(١) سير أعلام النّبلاء: ٤٨٩/٣.

يُعجَبون بذلك ويعجبون له. ولم يلبث أن كذب على عمر نفسه، فزعم له أنَّه يجد صفته في التّوراة، فعجب عمر، وقال: تجد اسم عمر في التّوراة؟! قال كعب: لا أجد اسمك، وإنّما أجد صفتك...».

ثمّ قال: «وعاد إلى المدينة في صحبة عمر، وفي ذات يوم أنبأ عمر أنَّه سيموت شهيداً، قال عمر: أنّى لي بالشّهادة، وأنا بين ظهراني جزيرة العرب؟! ولكنَّ كعباً أصرَّ على ذلك... وجاءه آخر الأمر ذات يومٍ، فقال: إنَّك مقتول بعد ثلاث، فلم يحفل عمر بما قال، فلمّا كان من الغد قال له: ذهب يوم وبقي يومان، فلم يلتفت عمر إليه، فلمّا كان من غد جاءه، فقال له: مضى يومان، وبقي يوم، فلم يأبه عمر له. والغريب أنَّه لم يسأله عن مصدر علمه بذلك، ولم يسأله أحد من المسلمين عن مصدر علمه ذلك بعد مقتل عمر. وأشدّ من ذلك غرابة أنَّ الرواة يزعمون أنَّه دخل على عمر بعد أن طُعِن، فقال: ﴿**الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ**﴾(١)، ألم أقل لك: إنّك تموت شهيداً؟ فكنتَ تقول: أنّى لي الشّهادة وأنا بين ظهراني جزيرة العرب؟».

ثمّ قال طه حسين محلّلاً لهذه المعلومات الّتي جاء بها: «وإذا كان كلّ ما رُوِيَ عن كعب بشأن موت عمر صحيحاً، فلستُ أشكُّ في أنَّه كان على علم بما دبّر أبو لؤلؤة، أو بما دبّر الّذين اشتركوا مع أبي لؤلؤة

---

(١) البقرة: ١٤٧.

في الإعداد لهذه الجريمة»[١].

ومن هؤلاء عبد الله بن سلام، ويُكنّى أبو الحارث، وهو من أحبار اليهود المتبحّرين في علومهم، وشهد له قرينه وهب بن منبه[٢] الَّذي يُعدّ قطباً من أقطاب الإسرائيليّات: «أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم منه»[٣].

ولا يزال علماء الحديث والدّراية يعانون من ثقل ما دُسَّ في كتب الحديث، «ويَسَّرَ لهم كيدهم أن وجدوا الصّحابة يرجعون إليهم في معرفة ما لا يعلمون من أمور العالم الماضية، واليهود بما لهم من كتاب، وما فيهم من علماء، كانوا يعتبرون أساتذة العرب فيما يجهلون من أمور

(١) الأعمال الكاملة طه حسين: ١٢٥/٥-١٢٦؛ من كتاب (الشيخان).

(٢) لقد أضفت بعض كتب الدّراية الرّجاليّة لأهل السّنّة أهمّيّة كبيرة لوهب بن منبه، وعدَّته من الثّقات في رواية الأحاديث الشَّريفة، قال عنه الذّهبيّ في تذكرة الحُفّاظ: «وهب بن منبه الحافظ أبو عبد الله الصّنعانيّ عالم أهل اليمن، وُلِدَ سنة أربع وثلاثين، روى عن أبي هريرة يسيراً، وعن عبد الله بن عمر وابن عبّاس وأبي سعيد وجابر بن عبد الله وغيرهم، وعنده من علم أهل الكتاب شيءٌ كثيرٌ؛ فإنَّه صرف عنايته إلى ذلك، وبالغ، وحديثه في الصَّحيحين عن أخيه همام؛ ولهمام عن أبي هريرة نسخة مشهورة أكثرها في الصّحاح رواها عنه معمّر».

ثمّ نسب إليه الذّهبيّ الالتزام الدّيني المتين، فقال: «وكان ثقةً واسع العلم ينظر بكعب الأحبار في زمانه. قال العجليّ: كان ثقةً تابعيّاً على قضاء صنعاء، وقيل: كان والده منبه من أهل هراة ممّن بعثهم كسرى لأخذ اليمن، فأسلم في حياة النّبيّ ﷺ. وعن وهب قال: يقولون عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه، وكعب أعلم أهل زمانه، أفرأيت من جمع علمهما؟ يعني نفسه».

ثم بالغ فعدّه في درجة عليا من التّمسّك بالسّنّة الشّريفة، فيروي عنه بقوله: «قال مثنى بن الصّباح: لبث وهب عشرين سنة ولم يجعل بين العشاء والصّبح وضوءاً»؛ ينظر: تذكرة الحُفّاظ: ١٠٠/١-١٠١؛ كلّ ذلك لكي تعطى الإسرائيليّات الَّتي دسوها في كتب الأحاديث أهمّيّة كبيرة فإنّا لله وإنّا إليه راجعون.

(٣) تذكرة الحُفّاظ: ١٠١/١.

الأديان السّابقة»[١].

وفي العصور المتأخّرة اتّخذ النّفاق السّياسيّ أطراً أخرى وأساليب متعدّدة وأهداف مختلفة كيداً للإسلام والمسلمين بدراسات موسّعة، وبحوث معمّقة، ومتشعّبة الجوانب للطّعن بالإسلام، وتشويه عقائده وأحكامه وعرضه بصورة مشوّهة كما في أغلب دراسات المستشرقين إلا من ندر منهم، وهم أندر من الكبريت الأحمر... وهناك أهداف سياسيّة واقتصاديّة توسّعيّة، فمع احتلالهم لبلاد المسلمين لم يعلنوا عداءهم للإسلام، بل تظاهروا بالإيمان به، بل ادّعوا الدّفاع عنهم، وخير شاهد على ذلك ما بذله نابليون حين غزا مصر، وراح يعلن بقوله: «إنّنا نحن المسلمون الحقيقيّون».. ولقد حاول أن يبرهن للمسلمين أنَّه يحارب من أجل الإسلام، وتُرجم كلّ ما قاله إلى عربيّة قرآنيّة.. بل حاول أن يجعل الأئمّة والقضاة ورجال الإفتاء والعلماء يؤوّلون القرآن بما يخدم مصالحه؛ وتحقيقاً لهذا الغرض دُعي أساتذة الأزهر العلماء السّتّون إلى مجلسه، واستُقبلوا استقبالاً رسميّاً، ثمّ منحوا فرصة أن يتمتّعوا بإطراء نابليون، وإعجابه بالإسلام، وبمحمّد وبإجلاله للقرآن[٢].

ولم يختلف الأسلوب بين نابليون قبل أكثر من أربع قرون وبين الرئيس الأمريكيّ (باراك أوباما) في عصرنا الحاضر حين ادّعى في

---

(١) أضواء على السُّنّة المحمّديّة: ١٤٦.

(٢) انظر: الاستشراق لادوارد سعيد: ١٠٧-١٠٩.

خطابه في جامعة القاهرة سنة ٢٠٠٩م قائلاً بالنّصّ: «لقد أتيتُ إلى هنا للبحث عن بداية جديدة بين الولايات المتّحدة والعالم الإسلاميّ استناداً إلى المصلحة المشتركة والاحترام المتبادل، وهي بدايةٌ مبنيّةٌ على أساس حقيقة أنَّ أمريكا والإسلام لا يعارضان بعضهما البعض الآخر، ولا داعي أبداً للتَّنافس فيما بينهما، بل إنَّ لهما قواسم ومبادئ مشتركة يلتقيان عبرهما، ألا وهي العدالة والتَّسامح وكرامة كلّ إنسان»[1].

أرأيتَ كيف يطرح الكلام المعسول بعد أن أغلق عينيه عن كلّ الجرائم الغربيّة الصَّليبيّة، وما صبَّه على المسلمين في مختلف بقاع العالم من مصائب وجرائم يندو لها جبين الإنسانيّة، وما سلبته من خيرات المسلمين، وامتصّته من دمائهم، بل راح يتمادى أكثر حتى تظاهر باستشهاده بآية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: ﴿**اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً**﴾[2]، وراح يخادع المسلمين بأنَّه كان يستمع أذان الفجر والمغرب عندما كان في إندونيسيا، إذ قال: «ولما كنتُ شابّاً عملت في المجتمعات المحلية بمدينة (شيكاغو) حيث الكثير من المسلمين في عقيدتهم روح الكرامة والسّلام، إنَّني أدرك بحكم دراستي للتّاريخ أنَّ الحضارة مَدينةٌ للإسلام الَّذي حمل معه في أماكن مثل جامعة الأزهر نور العلم الَّذي ساد المجتمعات عبر قرون عدّة...»[3]، إلى آخر خطابه

(١) راجع تفصيل ذلك في الشَّبكة العنكبوتيّة.

(٢) الأحزاب: ٧٠.

(٣) انظر خطاب الرّئيس الأمريكي اوباما في الشَّبكة العنكبوتيّة.

في جامعة القاهرة الَّذي يحاول أن يبرهن على سلامة نيّته، ويثبت للمسلمين حبّه وحب الأمريكان للإسلام، وما هي إلا دسّ السّمّ في العسل.

وهذا هو أسلوب النّفاق السّياسيّ الدّوليّ، فلا يستطيعون أن يكشفوا عداءهم للإسلام صراحة؛ لئلا يثيروا حساسيّة المسلمين، والأمثلة على ذلك كثيرة، وما حركة الاستشراق الواسعة إلا دليل على ذلك نكتفي بذلك خشية أن نخرج عن الموضوع(١).

ومن أخطر المشاريع النّفاقية على طول خطّ التّأريخ هو ما قامت به إسرائيل في مشروع ضخم لإعداد عناصر التَّخريب والفساد من اليهود وتلبيسهم بالإسلام كذباً وزوراً للكيد للإسلام والمسلمين، وهو تأسيس (الجامعة الإسلاميّة في تل أبيب) في أواخر الخمسينات من القرن الماضي، والَّتي يشرف عليها الموساد، ويتولّى مسؤوليّة جميع ما يتعلّق فيها من مواد دراسية وأساتذة، وأساليب الاندساس، وتحديد المواد الدّراسيّة، ومنهاج كلّ مادة لأساتذة الجامعة وطُلابها وفق خُطّة مدروسة بعناية بالغة؛ لتحقيق أهدافها، وهي مغلقة على اليهود فقط بانتقاء خاصّ ومواصفات خاصة، ويمنع دخول غير اليهوديّ إليها، حيث يتم اختيار طلاب الجامعة من اليهود بعناية بالغة من الموساد، ولا بُدَّ من أن يكون الطُلاب مرتبطين به مباشرة، ويدرّس الطُلاب فيها مختلف الموادّ

---

(١) لأجل الاطّلاع الموسع على هذا الموضوع راجع كتاب (المتظاهرون بالإسلام) للأستاذ حسن السَّعيد.

الإسلاميّة من عقيدة وفكر وتفسير وفقه وحديث ولغة... الخ، ويصبح عالماً بها ملمّاً بكلّ جزئيّاتها.

ويُدْخل الطلاب دورات خاصة يتدرّبون على كيفية التَّعايش بين المسلمين والتَّعامل معهم والتَّحايل عليهم وخداعهم، وتأخذ هذه الدّورات التّدريبيّة وقتاً طويلاً من الدّراسة الجامعيّة، ويشرف على تدريبهم علماء نفس وخبراء اتصال وعلماء اجتماع وسياسة متخصّصين في فنّ التَّواصل الاجتماعيّ، وأساليب التّحايل والخداع للاندساس في المجتمعات الإسلاميّة والتَّعايش معها لتحريف عقائدها وإفساد أخلاقها.

ويتخرّج الطّالب وقد تزوَّد بثقافة إسلاميّة واسعة في مختلف فروع العلوم الإسلامية، ويتكفّل الموساد بإعداد أماكن إسلاميّة خاصّة مُعَدّة مسبقاً؛ ليعين إماماً وخطيباً لمسجد، أو مدير مؤسّسة إسلاميّة، أو قائد مجموعة تبليغيّة أو جهاديّة، أو قاضي محكمة شرعيّة، أو مفتياً للمجاميع الجهاديّة الإرهابية، كما رأينا ذلك في حركة الإرهاب العالميّ في حركة القاعدة وداعش الإرهابيّتين، ويُقَدّم على أنّه عالمٌ كبير يحمل شهادات علميّة من ذوي الاختصاص، ويسمّى باسم إسلاميّ، ويكنّى بكنية محبّبة عند المسلمين كأبي حفص، وأبي أيّوب، وأبي بكر، وأبي عمر... ليمارس العمليّات التَّخريبيّة بثقة واطمئنان من عدم كشفه، ويبدأ عمله بفتاوى يصدرها له الموساد، وبخطط يرسمها له، وهناك تفصيلات موسّعة منشورة على الشبكة العنكبوتية بعنوان (الجامعة الإسلاميّة في تل

أبيب) اختزلت منها ما تقدّم، وإن شئتَ الاطّلاع على خطورة هذه الجامعة فاقرأ قصة (أبو حفص الإسرائيلي) في ليبيا، واسمه (بنيامين افرايم) الَّذي يخدم في فرقة المستعربين التّابعة لجهاز الموساد للتّخصّص بالتّجسّس على الدول العربية والإسلامية! وأبو حفص هذا (بنيامين) هو جاسوس إسرائيليّ دخل مع تنظيم داعش الإرهابيّ، وانتقل معهم إلى (بنغازي)، وهناك استطاع التَّغلغل في المجتمع اللّيبيّ، وهناك أصبح إماماً لأحد المساجد! وبعدها تحوَّل إلى (داعية) ومجاهد كبير ومسؤول عن حوالي مئتين مقاتل هم الجماعة الأكثر دمويّة[1].

---

(١) للاطّلاع المفصل راجع موقع جريدة أخبار الخليج البحرينيّة، من مقال فوزية رشيد بعنوان: (أبو حفص الإسرائيليّ نموذج للقادة الدواعش).

الفصل السّابع

المنافقون في بيان أمير البلاغة والبيان عليّ عليه السلام

إنَّ أبلغ من تحدَّث عن المنافقين بعد كتاب الله وسنة رسوله بأخصر قول، وأجزل عبارة، وأوضح بيان، وأجمع المعاني محذّراً منهم، ومبيّناً صفاتهم كأنَّها ظاهرةٌ متجسّدةٌ في صفحات وجوههم، ونغمات أصواتهم، وحركات جوارحهم، وخسّة أساليبهم، ودناءة أهدافهم، ومخاطر مخطّطاتهم هو أمير الحكمة والبلاغة والبيان الإمام عليّ عليه السلام؛ إذ أبرز البيان القرآنيّ عنهم، والّذي شغل مساحة واسعة من الآيات الكريمة، وأوجز صورة لما تحدّثت به السّنّة المشرّفة عنهم، فقال عليه السلام:

«أُوصيكُمْ عبادَ الله، بتَقْوَى الله، وأُحَذّرُكُمْ أَهْلَ النّفاق؛ فَإنَّهُمُ الضَّالُّونَ الْمُضلُّونَ، وَالزَّالُّونَ الْمُزلُّونَ، يَتلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ افْتَنَاناً، وَيَعْمدُونَكُمْ بكُلّ عمَاد، وَيَرْصُدُونَكُمْ بكُلّ مرْصَاد.

قُلُوبُهُمْ دَوِيَّةٌ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ، يَمْشُونَ الْخَفَاءَ، وَيَدبُّونَ الضَّرَاءَ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شفَاءٌ، وَفعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ، حَسَدَةُ الرَّخَاء، وَمُؤَكّدُو الْبَلاء، وَمُقَنطُو الرَّجَاء.

لَهُمْ بكُلّ طَرِيق صَرِيعٌ، وَإلَى كُلّ قَلْب شَفِيعٌ، وَلكُلّ شَجْو دُمُوعٌ، يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقَبُونَ الْجزَاءَ، إنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَإنْ عَذَلُوا كَشَفُوا،

وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا، قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ؛ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ. يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ، قَدْ هَيَّأُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ، وَحُمَةُ النِّيرَانِ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

وإن كنت بحثتُ من خلال كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيما تقدَّم، فلنتأمّل في بيان مفردات هذا النّصّ ودرره، والّتي تشير إلى الصّفات العمليّة والسّلوكيّة للمنافقين.

صفات المنافقين في تنفيذ مخطّطاتهم:

١- **إنّهم الضّالّون المضلّون**: الضّالّ هو كلّ من عدل عن المنهج الإلهيّ سواء في الجانب العقائديّ في التّوحيد والعدل والنّبوّة والإمامة والمعاد، أو في الجانب النّظاميّ الشّرعيّ في الأحكام العمليّة في التّشريع الإسلاميّ، وسلك غير سبيل الله تعالى؛ لأنَّ «الضَّلال: العدول عن الطّريق المستقيم، ويضادّه الهداية، قال تعالى: ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾[(٣)]، ويقال الضّلال لكلّ عدولٍ عن

(١) المجادلة: ١٩.

(٢) نهج البلاغة: ٣٣٥-٣٣٦، خطبة: ١٩٤.

(٣) يونس: ١٠٨، الإسراء: ١٥.

المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً، فإنَّ الطَّريق المستقيم الَّذي هو المرتضى صعبٌ جدّاً»(١).

وقد وصف تعالى الضَّلالَ بالبعيد، وهو إشارة إلى الكفر بالله تعالى كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالا بَعِيداً﴾(٢).

هذا الضَّلال هو الضَّلال العقائديّ، وفي آيات أخرى وصف العصيان والتّمرّد على الأحكام بالضَّلال المبين: ﴿وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُبِيناً﴾(٣).

وبتوضيح أدقّ: «الضَّلالُ من وجه آخر ضربان: ضَلالٌ في العلوم النّظريّة، كالضَّلال في معرفة الله ووحدانيّته، ومعرفة النّبوّة، ونحوهما المشار إليهما بقوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾(٤)، وضَلالٌ في العلوم العمليّة، كمعرفة الأحكام الشّرعيّة الَّتي هي العبادات، والضَّلالُ البعيدُ إشارةٌ إلى ما هو كفرٌ كقوله على ما تقدّم من قوله: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللهِ﴾»(٥).

وضلال المنافقين جامعٌ لكلّ أنواع الضَّلال البعيد والمبين والكبير،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: ٤١١-٤١٢.

(٢) النّساء: ١٣٦.

(٣) النّساء: ١٣٦.

(٤) الأحزاب: ٣٦.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: ٤١٢.

فمن ناحية العقيدة هم ضلال؛ لأنَّهم أضمروا الكفر، وأظهروا الإيمان، ومن ناحية الأحكام الشّرعيّة هم يؤدّونها، ولكنّها رياء وسمعة، وتسترٌ على كفرهم، وبأدائهم لها شرك آخر عبَّرت عنه الأحاديث الشَّريفة بالشرك الخفيّ كقوله ﷺ: «إنَّ الشّرك في أمّتي أخفى من دبيب النَّمل على صفاة سوداء في ليلة ظلماء»[1].

إنَّ وصفَ المنافقين بأنَّهم (ضالّون) وصفٌ دقيقٌ لحالتهم النّفسيّة والفكريّة الطّافحة بالقلق والاضطراب والتّلوّن والتّقلّب، فهم يقفون على رمال متحرّكة بهم يتحرّكون حيثما تهب الرّياح، فحالهم كريشة في مهب الريح، تحرّكها الأهواء والشَّهوات، والأماني الوهميّة، والميول الشّيطانيّة، فلا يستقرّ لهم قرار، بل يعيشون العذاب بأبشع أشكاله ذلك هو عذاب الأمراض النَّفسيّة الكامنة في قلوبهم، ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً**﴾[2].

ومع ضلالهم هذا فهم مُضلّون لغيرهم ممّن لا يعرف حقيقتهم، وتنطلي عليه أكاذيبهم وألاعيبهم الَّتي يتظاهرون بها بالصَّلاح والخير فهم يزيّنون للآخرين أباطيلهم بصورة ناصعة، فيظهرونها جذّابة مقبولة يبرز في ظاهرها الجمال، وتستبطن في طيّاتها القبح، وقد تكون من الخفاء بمكان لا يظهر قبحها وشناعتها؛ لتزويرهم الحقائق وتمويههم وكذبهم

(١) وسائل الشّيعة: ٢٥٤/١٦-٢٥٥، ح/٢١٥٠١.

(٢) البقرة: ١٠.

وإخراج أكاذيبهم لامعة تعجب النّاظر، وتخدع السّامع، كما وصفهم تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ﴾[1].

ولكنَّ الله تعالى بفضله ورحمته حمى المؤمنين منهم بكشف هذه الأباطيل، وفضحهم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾[2]؛ ففي قصّة معروفة قضائيّة عرضها اليهود على رسول الله صلى الله عليه وآله لعلّهم يخدعونه، فكشفها الوحي وفضح ألاعيبهم، وأبطل كيدهم؛ ولذلك لا بُدَّ للمؤمن من أن يكون على يقظة وفطنة وحذر من مخادعة المنافقين، وتلبيساتهم الّتي يقلبون بها الحقائق، ويصوّرون الحقّ باطلاً، والباطل حقّاً، فهم حقّاً ضالّون مضلّون عليهم لعنة الله والملائكة والنّاس أجمعين.

٢- **زالّون مُزِلّون:** الزّلّة لغةً الخطأ؛ لأنَّ المخطئ هو الَّذي زلَّ عن نهج الصّواب، والزّلّة في الأصل استرسال من غير قصد، زلّة تشبيهاً بزلّة الرِّجْل، قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ﴾، وفي الحديث: «من أزلّت إليه نعمة فليشكرها»[3]، أي من أوصل إليه نعمة بلا قصد من مُسْديها تنبيهاً

(١) المنافقون: ٤.

(٢) النّساء: ١١٣.

(٣) الفائق في غريب الحديث: ٢/ ٩٠.

أنَّه إذا كان الشُّكر في ذلك لازماً فيما يكون عن قصده، وتقول: زلَّ الرّجل زلّة قبيحة إذا وقع أمر مكروه أو خطأ خطأً فاحشاً، ومنه قولهم: نعوذ بالله من زلّة العالِم؛ وقال بعضهم: الزّلزلة مأخوذة من الزَّلل في الرّأي، فإذا قيل: زلزل القوم فمعناه صرفوا عن الاستقامة، والزَّلل هو التّنحّي عن القصد، والعدول عن الطَّريق القويم الَّذي أمر الله به[1].

والمنافقون لمّا ترسَّخ الضَّلال في قلوبهم أصبحوا بؤرة لنشر المفاسد؛ ولذا تراهم في حركة متواصلة لإضلال النّاس، وتركيز الانحراف في الوسط الاجتماعيّ، فهم يعملون على تفعيل هذا الإضلال؛ ليخرجوه من الجوانح إلى الجوارح؛ وليوقعوا النّاس في الخطأ؛ ليصرفوهم من نهج الاستقامة والاعتدال إلى خطّ الانحراف تفريطاً أو إفراطاً يريدون للناس أن يكونوا على شاكلتهم فيُزِلّونهم كما هم زلّوا عن صراط الله تعالى؛ ولأنَّ الكافر يتمنّى لوكان النّاس كلّهم على شاكلته، وبهذا أصبحوا عاملاً فعالاً لإزلال النّاس عن دين الله تعالى، ويمكن أن نقول أنَّ الإضلال فكريٌّ نظريٌّ قلبيٌّ، والإزلال عمليٌّ فعليّ.

٣- **يتلوّنون ألواناً**: المنافق يتلوّن تلون الحرباء، حيثما حلَّ في وسط تلوّن بلونه، وتشكّل بشاكلته، فليس له حالة مستقرة في قول أو فعل، أو موقف، بل يتقلّب من حال إلى حال، ويظهر بوجوه متعدّدة، وأقوال متباينة، ومواقف متناقضة، فلا يثبت على خليقة واحدة، بل تتغيّر

(١) انظر: مفردات ألفاظ القرآن، ومعجم مقاييس اللغة، وتهذيب اللّغة.

أخلاقه من موقف إلى آخر بشكل متناقض، ومن حال إلى حال بصورة فاضحة؛ فمرة يكون كريماً معطاءً جواداً، وأخرى يكون «أبخل من صبي ومن كسع»(١) كما ورد في الأمثال؛ ومرة يكون صادقاً وفيّاً رحيماً يرخي دموعه على مصائب الآخرين، وأخرى يكون غادراً فاتكاً يغدر بأقرب النّاس إليه، وأحياناً يصبح ظالماً غاشماً أظلم من يزيد و«أظلم من حيّة»(٢)، فهو مع الظّالمين ظالم متجاوز لكلّ الحدود الشّرعيّة والعقلية، وأحياناً يكون عادلاً تقيّاً ورعاً يتظاهر بأنّه سائر بركب الأتقياء.

وعلى كل حال: المنافق شخصيّة متناقضة، قلقة، متزلزلة، مضطربة، متلوّنة لا تستقرّ على حال أو مقال أو فكر أو عقيدة أو خلق أو مذهب، أو دين تتقلّب بحسب أهوائها وشهواتها محكومة لمصالحها، والعلّة في ذلك أنّهم ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضاً**﴾(٣).

٤- **التّفنّن في أساليب الكلام**: المنافق شخصيّة مزدوجة تحاول أن تجمع بين قبح الباطن وجمال الظّاهر، وهذا غير ممكن؛ لأنَّ ما في الباطن مهما حاول صاحبه أن يخفيه لا بُدَّ من أن يطفح على الظّاهر لأنَّ القبح إذا تأصَّل في الشَّخصيّة فسيكون هو الحاكم فيها، فمنه تصدر، وإليه ترجع، والجمال حينئذٍ يكون فيها عارض زائل متكلّف يظهر بشكل

(١) مجمع الأمثال: ١٢٦/١، وكسع: هو رجل بلغ من بخله أنّه كوى أُسْت كلبه حتّى لا ينبح، فيدلّ عليه الضّيف.

(٢) المصدر نفسه: ٤٦١/١.

(٣) البقرة: ١٠.

باهت سرعان ما يزول؛ لذا مهما تحاول أن تخفي قبحها، وتبرز جمالها، في فنون من الأقوال المنمّقة، والحركات المصطنعة لإخفاء قبحها، وإظهار جمالها الوهميّ، ومهما سلكت من فنون القول لأجل ترويج بضاعتها، وتحسين صورتها بكلام ليّن ناعم، وبلسان ذلق منمّق، ﴿**يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً**﴾[1] لتجذب السّامع وتجرّه للإصغاء إليها بطلاقة لسانها، وفصاحة بيانها، وبلاغة كلامها، وحسن منطقها، وجمال خطابها؛ مهما حاولت ذلك كلّه سرعان ما سينكشف الزَّيف؛ لأنَّه لم يصدر من القلب، وإنَّما صدر من اللّسان، والكلام ما لم يصدر من القلب لا يمكن أن يؤثّر في السّامع؛ لافتقاره للإيمان والصّدق، ولربما يحمل بين طيّاته ألغاماً غادرة، وسموماً فتّاكة؛ ولعلَّ هذا ما أشارت إليه بعض الرّوايات بقوله عليه السلام: «وَلَكِنّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ كُلَّ مُنَافِقِ الْجَنَانِ[2]، عَالِمِ اللّسَانِ، يَقُولُ مَا تَعْرِفُونَ ويَفْعَلُ مَا تُنْكِرُونَ»[3]، فهؤلاء ينثرون بذور الهلاك والخراب والفساد أينما حلّوا وارتحلوا.

ولخطورة هذه النَّماذج الموبوءة نجد أمير المؤمنين عليه السلام يتوجّع منها، ويعلن شكواه، فيقول عليه السلام: «قطع ظهري رجلان من الدُّنيا: رجل عليم اللّسان فاسق، ورجل جاهل القلب ناسك، هذا يصدُّ بلسانه عن

---

(١) الأنعام: ١١٢.

(٢) منافق الجنان من أضمر وأسرَّ النّفاق في قلبه، وعالم اللسان من يعرف العقائد والأحكام الشَّرعيّة، ويسهل عليه بيانها، فيقول حقّاً يعرفه المؤمنون، ويفعل منكراً يخفيه وينكرونه.

(٣) نهج البلاغة: ٤١١، كتاب: ٢٧.

فسقه، وهذا بنسكه عن جهله، فاتّقوا الفاسق من العلماء والجاهل من المتعبّدين، أولئك فتنة كلّ مفتون، فإنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: يا علي، هلاك أمّتي على يدي [كلّ] منافق عليم اللّسان»[١].

فكيف يمكن أن نتصوّر أمراً بثقله وخطورته يقطع ظهر رافع باب خيبر الّتي (عجزت أكفٌّ أربعون وأربعُ)[٢] عن هزّها؛ إنَّه حقّاً لأمر مرعب خطير!! وإلى الله المشتكى.

٥- الرّصد المتواصل لأجل الإيقاع والغدر بمن يقصدونه

«وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيرْصُدُونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ»: لا شك أنَّ قلوب المنافقين مشحونة بالعداء الشَّديد للمؤمنين كما وصفهم تعالى: ﴿**هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ**﴾[٣]، وهذا العداء ناتج عمّا في نفوسهم من أمراض القلوب، كالحسد والشّرك والمكر والجبن... ولذلك فهم دائماً، وأبداً يرصدون من يستهدفونه بدقّة وتواصل؛ لأجل الإيقاع به بكلّ داهية، وأمر فادح، وخطب مؤلم على وجه الخديعة والمكر والغدر، فهم يواصلون المراقبة للمؤمنين في أي طريق يتوقّعون أن يظفروا بهم؛ ليوقعوهم في التَّهلكة، بل لا يغفلون عنهم، ولا يدعون مراقبتهم، ويسجلون كلّ حركة وسكنة، ويتّبعون كلَّ أساليب الحيلة

---

(١) كتاب الخصال: ١/ ٦٩، ح/١٠٣.

(٢) عجز بيت شعر من عينيّة ابن أبي الحديد: صدره: يا قالع الباب الَّتي عن هزّها...

(٣) المنافقون: ٤.

والخداع لإضلالهم وحرفهم عن منهج الاستقامة والحقّ والرَّشاد.

أقول: هذا قد يهون إذا كان على مستوى شخصٍ أو أشخاص معدودين لا يملكون كثيراً من الإمكانيات الإعلاميّة والسّياسيّة والاقتصاديّة، فكيف إذا كان على مستوى منظّمات كبيرة وأحزاب ضخمة، ودول كبرى، بل وإمبراطوريات إعلاميّة واستخباريّة؛ لمتابعة المؤمنين، والتَّشكيك بهم، وتشويه حقيقتهم، وبعث اليأس في نفوسهم، وإسقاطهم قِيَمهم وقيمتهم في الأوساط السّياسيّة والاجتماعيّة كما هو جارٍ اليوم في الحرب النّاعمة الدّوليّة، الَّتي تمثّل بحقّ أخطر وسائل النّفاق السّياسيّ والإعلاميّ، إذن ما هو مستوى الوعي السّياسيّ الإيمانيّ الَّذي يجب أن يبلغه المؤمنون من اليقظة والفطنة والوعي والانتباه إلى ما يدور حولنا من مخطّطات سياسيّة إرهابيّة، وما يُدَسّ في أوساطنا من كبار المنافقين الّذين يَسِيرون وفق مخطط الاستكبار العالميّ؟

الصّفات الباطنيّة للمنافقين في كلام عليّ عليه السلام:

ما تقدّم هي خمسة أساليب من أساليب المنافقين ووسائلهم الَّتي ينفّذون من خلالها مخطّطاتهم ليحقّقوا بها أهدافهم أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام بعبارات غاية في الإيجاز، وكلّ وسيلة من وسائلهم تمثّل خصلة من خصالهم تلبَّسوا بها، وتحرّكوا على أساسها، ثمَّ انتقل عليه السلام لكشف صفاتهم الباطنية الخبيثة الَّتي يتستّرون عليها، ويظهرون عكسها؛

ولذا وصفهم فقال:

١- قلوبهم دويّة[١]، وصفاحهم نقيّة: صفتان متضادّتان ومتعاكستان إحداها باطنيّة مضمرة في أعماق قلوبهم العليلة بعلّة النّفاق والطّافحة بكلّ الأمراض الخبيثة، و(دويّة) أي فاسدة بأمراض طفحت بها نفوسهم حقداً، وحسداً، وعداءً، وخسّةً، وبخلاً، وشكّاً، وارتياباً، وسوء ظنّ بالله، وبكلّ ما يحيط بهم، ولو من أقرب المقرّبين إليهم، وكلّما ازدادوا حركةً وفعّاليّة ازدادوا مرضاً وعذاباً كما وصفهم تعالى: ﴿**فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضاً وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ**﴾[٢] هذا باطنهم.

أمّا ظاهرهم (صفاحهم نقيّة) لعلّه إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**مِنَ النّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ**﴾[٣]، فبمقدار ما تحمل نفوسهم من خبث وقبح وقذارة مضمرة في أعماقهم، إلا أنّهم يحاولون أن يخفوا ذلك كلّه، ويبذلون قصارى جهدهم؛ ليظهروا بصورة جميلة جذّابة؛ ولذا تراهم يتصنّعون؛ ليبرزوا بوجوه طاهرة نقيّة صافية نظيفة كما وصفهم تعالى: ﴿**وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ**﴾، وهنا نقاء صفحات وجوههم «كناية عن اتّصاف

(١) دويّة أي مريضة من الدّوى بالقصر وهو المرض.

(٢) البقرة: ١٠.

(٣) البقرة: ٢٠٤.

ظاهرهم بالبشر والبشاشة، وإبداء المحبّة والنّصح والصّداقة خلاف ما في باطنهم من الشّرّ والفساد واللّدد[١] والعناد»[٢].

٢- (**يمشون الخفاء ويدبّون الضّراء**)، فمشيهم الخفي بتستّر وتحفّظ كناية عن كون حركاتهم القوليّة والفعليّة فيما يريدون تنفيذه وتمريره على النّاس دون أن تظهر مفاسده وأخطاره عند عرضه بأسلوب جذاب ظاهره الخير وفي باطنه يكمن الشّرّ؛ ولذا أتبعها بقوله: «ويدبّون الضّراء»، والضّراء: «المشي الخفيّ ختلاً ومكراً، يقال للرجل إذا ختل صاحبه: هو يدبّ له الضّراء ويمشي له الخمر[٣]- يعني في ظلّ الشّجر الملتفّ؛ ليواري شخصه وشبحه من أعين النّاس»[٤].

وعبارة (يدبّون الضّراء) «مثل يضرب لمن أراد أن يختل صاحبه يقال: فلان يدبّ له الضّراء إذا أراد بصاحبه سوءاً وأذى من حيث لا يعلم، كمن يمشي في الشّجر الملتفّ السّاتر للاصطياد»[٥].

---

(١) الخصومة الشّديدة مع الميل عن الحقّ.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٧٧/١٢.

(٣) قال أبو بكر الأنباريّ: «قال يعقوب بن السّكّيت: الخَمَر عند العرب: "كلّ ما استتر به الإنسان من شجر وغيره، والضّراء- ممدود-: كلّ ما استتر به الإنسان به من الشّجر خاصة". يقال في مثل يضرب للرّجل الحازم: لا يدبّ له الضّراء، ولا يمشي له الخَمَر، أي لا يختَلُّ ولكنّه يجاهر»، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: ٤٨٦/١.

(٤) بحار الأنوار: ١٧٧/٦٩، (الهامش).

(٥) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٧٧/١٢.

وبالتّالي مشي المنافقين ودبيبهم الخفيّ في الوسط الاجتماعيّ بتستّر ودقّة متناهية كجرثومة تدب في بدن المريض فلا يشعر فيها حتّى تفسد لحمه ودمه دون أن تظهر وتُعرَف إلى أن ترميه جثّةً هامدةً لا حياة فيها ولا حراك، وخفاء المنافقين المحترفين ودبيبهم في دقّته وتستّره لإخفاء مراميه لا يشبهه إلا دابّة الأرض (الأرضة) الّتي أكلت منسأة [عصا] سليمان، ولم يعرف بها حتّى الجنّ القريبين منها؛ فما أشدّ أخطارهم، وأفظع مسالكهم، وأعظم خرابهم وتدميرهم للإنسانيّة حاضراً ومستقبلاً.

٣- التّناقض بين أقوالهم وأفعالهم «وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ»: هذا التّناقض الفاضح يظهر بين ما يقولون وما يفعلون، فتراهم عندما يمارسون الوعظ والتّذكير والإرشاد كأنّهم أتقى الأتقياء، وأعرف العرفاء، وربما بكوا وتباكوا، واستنكروا المعصية على غيرهم وهوّلوها، وإذا وصفوا العلاجات الرّوحيّة كأنّهم من علماء التّربية الرّوحيّة والمعرفيّة الّتي تشفي القلوب من الأمراض الرّوحيّة والأخلاقيّة، ومع ذلك يشعر السّامع لهم أنّ كلامهم هواء في شبك.

هذا في أقوالهم ومدّعياتهم، وأمّا في سلوكهم وفعلهم وتطبيقاتهم تجد أعمالهم بدرجة من الفسق والفجور ما تزكم الأنوف من نتنها، وتفسد القلوب والأبدان من عفونتها بما حوت من منكرات شنيعة أعيت أكابر أطبّاء النّفوس عن معالجتها، فما أدقّ وأروع وأوضح كلامه عليه السلام

في كشف هذه الأخطار المهلكة بقوله ﷺ: «وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ الْعَيَاءُ»، والدّاء العَياء- بالفتح: المرض الّذي أعيا الأطبّاء ولا يمكن منه الشّفاء.

وخلاصة الكلام: أقوالهم أقوال الصّالحين العابدين الأتقياء الورعين، وقد ينصبون أنفسهم وُعّاظ مرشدين مذكّرين بالله وطاعته، ولكنَّ ذلك كلّه ليس له مصداقٌ حقيقيٌّ، بل ظاهره خير وصلاح، وباطنه شرٌّ وفساد وخداع ومكر وغدر، يمرّ على الأسماع دون أن يؤثّر فيها؛ لأنه مجرد لقلقة لسان فارغ المحتوى، وقد قيل: «إنَّ ما خرج من اللّسان لا يتجاوز الآذان، وما خرج من القلب فموقعه القلب»[(١)].

رُوِيَ عن سعيد بن عاصم، قال: «كان قاصٌّ يجلس قريباً من مسجد محمّد بن واسع، فقال يوماً وهو يوبّخ جلساءه: ما لي أرى القلوب لا تخشع، ولا أرى العيون لا تدمع، وما لي لا أرى الجلود لا تقشعرّ. فقال محمد بن واسع: يا عبد الله، ما لي أرى القوم أتوا إثماً من قبلك، إنَّ الذّكر إذا خرج من القلب وقع على القلب»[(٢)].

وممّا لاريب فيه أنَّ المنافقين يقولون ما لا يفعلون، وذلك كلّه يبرز في أفعالهم المنكرة الّتي أعيت الأطبّاء عن علاجها، وهذا هو التّناقض الفظيع بين ما يقولون، وما يفعلون، فهم أصدق مصاديق الّذين ﴿**يَقُولُونَ**

(١) الحدائق النّاضرة: ١١٢/١٠.

(٢) حلية الأولياء: ٣٥١/٢.

بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾(١).

٤- **«حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَمُؤَكِّدُو الْبَلاءِ، وَمُقَنِّطُو الرَّجَاءِ»**: ثلاثة أمراض فتّاكة مترسّخة في قلوب المنافقين تفرز السّموم القاتلة لكلّ حيّ هي:

حسدٌ يتمنى فيه الحاسد زوال نعم الله عن عباده؛ لأنَّ نفس المنافق طافحة بالأحقاد على الأبرياء بدون ذنب ولا جناية للمحسود سوى أنَّ الله تعالى أنعم عليهم بخيراته وفضائله.

وشماتةٌ وتشفٍّ وفرح بما يحلّ بالنّاس من مصائب وبلايا؛ لأنَّ نفس المنافق شحيحة من الخير، فلا تطيق أن ترى الخير والصَّلاح عند أحد، وليس هذا فقط، وإنّما من شحّة نفسه أن يبخل بكلمة مواساة لأحد حلّت به مصيبة؛ ليخفّف عنه شدّة البلاء تواسيه وتشعره بمشاركته في آلامه، فعوضاً من أن يواسيه يُعظم عليه المصاب، ويهوّله، ويؤكّد فداحته وشدّته.

والسّرّ في ذلك أنَّ أرضيّة نفس المنافق قاحلة من الخير، فلا تمتلك الشّعور الإنسانيّ تجاه الآخرين، فالمشاركة الوجدانيّة للآخرين في فرح أو حزن إنّما تصدر من النّفوس الطّيّبة الزّكيّة، أمّا من تكون نفسه مشحونة بكلّ أمراض القلوب فلا تفرز إلا الشّرور والسّموم والآلام، بل حتّى لو رأى المنافقون مبتلًى بمحنة من محن الدّنيا صابراً محتسباً متحمّلاً

---

(١) الفتح: ١١.

لمصائبه، ومتماسكاً في شخصيته راجياً رحمة ربّه منتظراً اليسر بعد العسر، فلا يمكن أن يبعثوا الأمل في نفسه، لزيادة ثباته واستقامته وصبره، بل يحاولون أن يزلزلوا استقامته، ويضعضعوا من ثباته واستقامته؛ ليهدموا كيانه لأنَّ نفوسهم السَّقيمة لا تطيق مشاهدة مؤمن صابر ثابت متماسك الشّخصية، وهذا ديدن كلّ مرضى القلوب اليائسين من رحمة الله والقانطين الّذين يقنطون النّاس من رحمة الله **﴿إِنَّهُ لا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾**(١)، فهم يريدون أن يَرَوا النّاس على شاكلتهم، أعاذ الله المؤمنين من شرورهم.

٥- تفشّي غدرهم وسلاسة مكرهم «لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ»: المنافق حيثما يحلّ، يحلّ معه الخراب والدّمار، وتعمّ الشّرور والأسواء، وبمقدار ما ينشرون من الخبائث والقبائح والفناء والدّمار، يحاولون بمكرهم وخدعهم وسعة حيلهم أن يفتحوا الطُّرق إلى القلوب بسلاسة طرقهم وتمويه أساليبهم، وليونة كلامهم؛ فإنّهم يدسّون السُّمّ بالعسل، ويخفون الشّرّ بمزجه بالخير، ويلبسون الباطل ثوب الحقّ؛ ليمرّروه على النّاس، ويسلبوا خيراتهم ويوقعوهم في شباك غدرهم.

وقد كنّى عن ذلك كلّه أميرُ المؤمنين عليه السلام بقوله: «لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ».

قال ابن ميثم البحرانيّ في تعليقه على النّصّ: «كناية عن كثرة من

---

(١) يوسف: ٨٧.

يقتلونه أو يؤذونه بخديعتهم ومكرهم. وكنّى بالطّريق إمّا عن كلّ مقصد قصدوه، أو عن كلّ حيلة احتالوها ومكر مكروه فإنّه لا بدّ أن يستلزم أذًى. وقوله: «إِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ» أي إنّ من شأن المنافق أن يتّخذ إلى كلّ قلب ذريعةً ووجهاً غير الآخر، فيكون صديق الكلّ حتّى المتعادين ليتوصّل بذلك إلى إثارة الفتن وإيقاع الشرّ بينهم وهو في نفس الأمر عدوّ الكلّ»[1]، أي عدوّ كان من غدر به، ومن خدعه بمكره فانجذب إليه، وتسلّل إلى قلبه؛ ليوقعه في شباكه، فهم يتسلّلون إلى مشاريع الخير والصَّلاح بمكر وخفاء وخديعة، ودهاء؛ ليفسدوها، ويهلكوا القائمين عليها ممّن ينخدع بمداهنتهم، وزخارف أباطيلهم؛ ليظهروها بمظهر الحقّ والخير والصَّلاح والجمال.

٦- تَصَنُّع الحزن والبكاء عند المحزونين «لِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ»:

بما أنَّ المنافقين يتصيّدون الفرص؛ لترويج بضاعتهم النّفاقيّة المبنية على الخداع والتّمويه والتّظاهر بمشاركة الآخرين في أحزانهم، فيبكون معهم لا حزناً لما أصابهم، ولا مواساة لهم في أحزانهم، وإنّما تصنّعاً وخداعاً؛ لكسب القلوب والاستحواذ عليها عاطفيّاً، لمصلحة في نفوسهم؛ لأنَّ وقت المصائب والأحزان من النّاحية العاطفيّة والوجدانيّة عند أيّ شخص كان فرصة مناسبة للدخول إلى قلبه والظّهور بمظهر المحبّ المواسي.

وخلاصة الكلام: دموع المنافق رخيصة لا يبالي أن يريقها بمناسبة

(١) شرح نهج البلاغة: ٤٢٩/٣.

وغير مناسبة، فهو يجيد فنّ التّظاهر والتّصنّع، فتراه يُصَفّق مع المطرب الرّاقص، ويبكي مع الحزين المنكوب كما وصف رسول الله ﷺ: «المنافق يملك عينيه يبكي كما يشاء»(١) تصنّعاً وخداعاً وكذباً ورياءً؛ ولذا قيل: «المنافق يبكي من رأسه، فأمّا من قلبه فلا»(٢)، ويؤيّد ذلك ما جاء في الحديث الشَّريف: «بكاء المؤمن من قلبه، وبكاء المنافق من هامته»(٣).

٧- المجاملات المصلحيّة «يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيتَرَاقَبُونَ الْجَزَاءَ»: المنافق مصلحيٌّ نفعيٌّ عبدٌ لذاته، فلا يبذل شيئاً إلا ويأمل أن يبتزّ أضعافه ممّن يبذل له، فحتّى في مجال المجاملات الشَّخصيّة فيما بينهم تحكمهم مصالحهم الذّاتيّة، فإذا مدح بعضهم بعضاً؛ ليرفعه في عيون الآخرين فإنَّه وضع في حسابه أنَّه لا بُدَّ من أن يبادله ذلك الشّخص بأفضل من مدحه، وهذا ما دلَّت عليه كلمة (يتقارضون) فهو يُقْرضه كلمة ثناء، ويترقّب منه عشر كلمات، فلا يثني على صاحبه إلا وينتظر من صاحبه أن يثني عليه كما هو أثنى عليه، فهي عمليّة مبادلة تجاريّة باهتة.

٨- المنافقون في غاية التّطرّف والغلوّ «إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا»: هذه الحالات السّلوكيّة في حركة

---

(١) كنز العُمّال: ١٦٩/١، ح/٨٥٤.

(٢) الذّهبيّ، تاريخ الإسلام: ١٧٤/٩.

(٣) كنز العُمّال: ١٦٩/١، ح/٨٥٠.

المنافقين تمثّل منتهى التّطرّف في أقصى صوره وأفظعها، والسَّبب في ذلك أنَّ مسلك الاعتدال والوسطيّة ومسلك النّفاق نقيضان لا يجتمعان؛ ولذلك تجد المنافقين على العموم دائماً وأبداً، إمّا في أقصى الشّمال، وإمّا في أقصى الجنوب، إمّا في إفراط أو في تفريط، وهذا ما دلَّ عليه النَّصُّ الشَّريف في أدقّ صورة وأروعها، فمن مسالك النّفاق وطباعهم وعاداتهم أنَّهم إذا طلبوا شيئاً بذلوا أقصى ما في أنفسهم بإلحاف وإلحاح واستقصوا كلّ الوسائل الممكنة، وهذا الأسلوب مذموم عقلاً وشرعاً؛ لأنَّه لا يليق بمن يحترم نفسه، فضلاً عمّن يطبّق أحكام دينه؛ فمن صفات المؤمنين أنَّهم ﴿**لا يَسْأَلُونَ النّاس إِلْحَافاً**﴾[1]، وقد ورد في الأثر: «أنَّ الله يحبّ الحييّ الحليم المتعفّف، ويبغض الفاحش البذيء السّائل الملحف»[2].

«وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا» العذل هو اللّوم بحجّة النّصح، والمنافق لا يبالي في عذله أن يكشف كلّ العيوب والأسرار ولو هتكت الأعراض، وأسقطت الكرامات، بل كما قال ابن أبي الحديد: «وربما لا يستحي أن يذكرها لك بمحضر ممّن لا تحبّ ذكرها بحضرته، وليسوا كالنَّاصحين على الحقيقة، الَّذين يعرضون عند العتاب بالذّنب تعريضاً لطيفاً ليقلع الإنسان عنه»[3].

---

(١) البقرة: ٢٧٣.

(٢) عبد الرّزّاق الصّنعانيّ، المصنّف: ١٤٢/١١، ح/٢٠١٤٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ١٦٣/١٠.

والأنكى من ذلك: «إِذَا حَكَمُوا أَسْرَفُوا» يعني أنَّهم إذا تولّوا أمور النّاس، أو حكموا بين طرفين مختلفين، أو أصدروا حكماً على مخالف لهم تجاوزوا كلّ حدود العقل والشّرع والمنطق، وسقطوا في بؤرة الإسراف، والله ﴿**لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ**﴾(١).

قال شارح النهج ابن ميثم البحرانيّ: «(وَإِذا حَكَمُوا أَسْرَفوا): أي إذا ولّى أحدهم ولاية أسرف فيها بالظُّلم والانهماك في مأكله ومشربه، وعبر في قينات الدّنيا إلى حدّ الإفراط من فضيلة العدل. وذلك لجهله بالعواقب وتصوّره أن لا غاية أشرف ممّا هو فيه»(٢).

هذا غيض من فيض في تطرّف المنافقين في جميع شؤون حياتهم حتّى صار التّطرّف طبعاً وعادةً وسلوكاً، وهكذا كانوا دائماً خارجين عن الصّراط المستقيم، قاتل الله المنافقين ووقانا شرورهم وحمى الإسلام والمسلمين من مخطّطاتهم الشّيطانيّة.

٩- **الخوف والذّعر الدائم:** المنافقون في ذعر دائم وترقّب متواصل، وتوقّع لوقوع الأخطار؛ ولذا تراهم في إعداد واستعداد دائمين لا يستقرّ لهم حال، ولا يهدأ لهم بال؛ وبعبارة مختصرة: يعيشون حالة الطّوارئ القصوى إذا صحَّ التَّعبير.

والسّرّ في ذلك أنَّهم على علم بما يضمرونه في أعماقهم من جرائم

---

(١) الأنعام: ١٤١، الأعراف: ٣١.

(٢) شرح نهج البلاغة: ٣/ ٤٣٠.

فظيعة قد أوقعوها بالأبرياء فهم يتوقّعون الجزاء والانتقام منهم، وما يختزنونه في أنفسهم من قبائح شنيعة وخبائث نتنة، وخلائق وضيعة، ومن أمراض القلوب الفتّاكة كالحسد، والحقد، والكذب والخداع، والغدر، وسوء الظّنّ، والشّعور بالحقارة، والإحساس بالنّقص؛ ولهذا تراهم متحضّرين لكلّ طارئ، متحفّزين متوقّعين حلول الكوارث فيهم.

ولشعورهم بالخطر هذا جعلهم يعدّون العدد، ويضعون الخطط لحماية أنفسهم، فهم في إعداد واستعداد دائمين لمواجهة أيّ خطر يحتملون وقوعه من أيّة جهة كانت كما وصف أمير المؤمنين عليه السلام حالاتهم تلك في استعداداتهم الشّاملة، وقد أوجز أمير المؤمنين عليه السلام حالة الطّوارئ النّفاقية هذه بقوله: «قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مِصْبَاحاً».

وإذا ما تأمّلنا بدقّة في هذا النّصّ الشّامل الدَّقيق في وصف خططهم، واستعداداتهم لما يطرأ لهم من أحداث، ومن خطط وأساليب وحيل وخدع نعرف مستوى الذُّعر والقلق والاضطراب، والتّأهّب؛ لتنفيذ تلك الخطط، كما وصف الفقيه الكبير الشيخ محمَّد جواد مغنية بقوله: «يمثّلون جميع الأدوار في مسرح النّفاق الكبير، ويجيدون التَّمثيل في صنع المقالب والاحتيال، وإثارة الشُّبهات حول الطّيّبين، وإيقاظ الفتن، وفساد كلّ مشروع فيه خير وصلاح»(١).

---

(١) في ظلال نهج البلاغة: ١٧٤/٣.

١٠- أساليبهم في ترويج أباطيلهم: ليس للمنافقين أسلوب واحد، وإنّما يرسمون لكلّ أمر أسلوبه الخاصّ به، ولكن جميع الأساليب قائمة على الكذب والخداع والتّمويه والتّزوير.

والعجيب في الأمر أنّهم يحصلون على الشّيء الّذي يطلبونه بالتّظاهر بضدّه «يَتَوَصَّلُونَ إلى الطَّمَعِ بِالْيَأْسِ»، أي بالتّظاهر بالزُّهد واليأس، وإبداء عدم الرَّغبة بما في أيدي النّاس.

وبعبارة أخرى: يُلبِسون الطَّمع ثوب الزهد؛ ليقنعوا النّاس ويخدعوهم بالزّهد، ويسلبوهم أموالهم كما يفعل كثير من المتظاهرين بالزُّهد والتَّقوى والتّرفّع عمّا في أيدي النّاس، وفي حقيقتهم أنَّهم أطمع من أشعب وكلبه[١]، ونفوسهم أجشع من غراب، وأحرص من غراب[٢]، قال شارح النَّهج البحرانيّ: «ووصفهم بأخذ الشّيء بضدّه أبلغ ما يكون في وصف النّفاق والحيلة»[٣].

وقيل في وصف هذا الأسلوب: «لعلّ المراد أنَّهم يتزهّدون ويظهرون اليأس والاستغناء عمّا في أيدي النّاس وصلة به إلى مطامعهم، ومحصّله أنَّهم يتركون الدُّنيا للدُّنيا، ويستغنون عن النّاس تزويراً»[٤]،

---

(١) قيل: رأى أشعب سلالاً يصنع سلّة، فقال له: أوسعها، قال: ما لك وذاك، قال: لعلَّ صاحبها يهدي لي فيها شيئاً... وقيل: لم يكن أطمع من أشعب إلا كلبه، رأى صورة القمر في البئر، فظنّه رغيفاً، فألقى نفسه في البئر يطلبه، فمات؛ ينظر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٤١٣/١٨.

(٢) من الأمثال السّائرة.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٤٣٠/٣.

(٤) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٨٠/١٢.

وتصنّعاً وخداعاً وتمويهاً وإلباساً للباطل ثوب الحقّ؛ ترويجاً لما في جعبهم من بضاعة فاسدة لا تنفق إلا بالطُّرق الملتوية، وهكذا يموّهون ويشبهون؛ «لِيُقيمُوا به أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفقُوا به أَعْلاقَهُمْ[1]».

وخلاَصَة مسلَكهم هذا كما أَوجزهَ شارح النهج الهاشمي الخوئيّ: «أَنَّهم يظهرون اليأس من النّاس جلباً لقلوبهم إليهم، وتوصّلاً به إلى ما يطمعونه منهم من الإضلال والإغواء، وغرضهم بذلك إقامة أسواقهم أي انتظام معاملتهم معهم، وترويج ما لديهم من متاع الضَّلال الَّذي يزعمون أَنَّه متاع نفيسٌ مع أنَّه خبيثٌ خسيسٌ»[2].

وكلّ ذلك مبنيٌّ على تشبيه الباطل بالحقّ لأجل تسويقه وتمريره باسم الحقّ وتزيينه بصورته والتّحرّك به في طريق الحقّ تمويهاً وتزويراً بعد أن يحرفوا المسار عن الخط السَّليم «قَدْ هَيَّأُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا الْمَضِيقَ» أي «جعلوا الطَّريق المؤدّي إلى الضَّلال سهلاً هيّناً لمن أرادوا إسلاكهم فيه بالخدع والتَّمويهات»[3].

وسبب كلّ هذه الأعمال الَّتي يفعلها أهل النّفاق؛ لأنَّهم «لُمَة الشَّيْطانِ» أي جماعته وأصحابه وجنده وأتباعه، «وحُمَةُ النّيرانِ»، وهنا تشبيه رائع لبيان حقيقتهم؛ فهم كإبرة العقرب السّامّة القاتلة الَّتي تلسع وتفرز سمومها، وتخفي رأسها هرباً من أن تُكشف وتُقتل، فـ«الحُمّة: هي

---

(١) والأعلاق: جمع علق، الشّيء النَّفيس (عندهم)، والمراد ما يزيّنونه من خدائعهم.

(٢) منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة: ١٨١/١٢.

(٣) المصدر نفسه.

حدّة السَّمّ وحرارته، وهي مخفّفة بقول الأصمعي. قال ابن السّكّيت: وتقول حُمَةُ العقرب بتخفيف الميم للسَّمّ، والجمع حُمَات، ولا تقل حُمّةٌ بالتَّشديد. ويقال للّتي تلسعُ بها: الإبرة. والحَمَأ والحمأةُ: طين أسود منتن. وما جاء في حديثه عليه السلام كناية عن الحقد الأسود الَّذي انطوى عليه الباغون عليه»[1].

والعلّة في ذلك كلّه أنَّ اتّصاف المنافقين بكلّ خصالهم السّيّئة، وأعمالهم المشينة، وأخلاقهم الدَّنيئة أنّهم قد ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[2].

(١) نزهة النّظر في غريب النّهج والأثر: ٢٠٣.

(٢) المجادلة: ١٩.

الفصل الثّامن

حركة النّفاق في عصر النّبوّة

(أحداث ووقائع)

النّفاق مرضٌ نفسيٌّ يُصابُ به الإنسان نتيجة عوامل مختلفة منها تربويّة أو بيئيّة أو سياسيّة عاشها الإنسان في مراحل حياته المتوالية، وهو ينبئ عن هبوط في الهمّة، وانحطاط في الأخلاق، واضطراب في الرّوح، وخلل في العقل، وتردٍّ في السُّلوك، وهو يلازم الإنسان (المصاب به) في حياته ملازمة شيطانه، ويتراءى له عوناً وساعداً كُلَّما تقلّبت به الأحوال، وأعوزه الحظّ أو تراكمت عليه المحن، وهو الينبوع الَّذي تفجّرت من أعماقه جميع المآسي والآثام والشُّرور، وله تأريخ بدأ منذ بدأت حركة البشريّة.. وهو يتداخل في الجرائم الخلقيّة الَّتي تنخر كالسّوس في المجتمع كالغيبة، والنَّميمة، والوشاية، وشهادة الزّور، ثمَّ هو إلى جانب ذلك يغرس في حنايا النّفوس أمراضاً عضالاً تقذف به إلى الهلكة كالغرور، والزَّيف، والصّلف، والكبرياء، والحقد، والحسد، والضَّغينة[١].

---

(١) انظر: النّفاق والمنافقون في عهد رسول الله ﷺ لإبراهيم علي سالم: ٥-٨، بتصرّف.

ولا ينحصر النّفاق في مرحلة تأريخيّة، ولا مجتمع خاصّ، بل قد يُصاب به كلّ إنسان، وكلّ مجتمع، إذا وُجدت أسبابه وعلله مع تفاوت درجاته بتفاوت عوامله الفاعلة؛ لأنَّ منبعه الأصل هو أهواء النَّفس الأمّارة بالسّوء، واتّباع الأهواء والشَّهوات، واللّهاث وراء المصالح الذّاتيّة، فما دامت هناك إرادات متصارعة، وأهواء متدافعة، وأمزجة مختلفة، ومصالح متضاربة، وصراعات متواصلة، فلا بُدَّ من أن يوجد النّفاق في كلّ وسط اجتماعي، بل قد يوجد في أنظف وأطهر المجتمعات والتَّشكيلات البشريّة، وفي ظلّ أعظم القيادات كما وُجدَ في عصر النّبوّة الأوّل، ولعلَّ هذا مدلول قوله تعالى: ﴿**وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ**﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿**لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ**﴾[2].

فمع عصمة الرَّسول الأكرم ﷺ، ورصد الوحي، وإخباره عنهم في كلّ حركة يتحرّكونها، ومع ذلك كانوا يحاولون استغفال الرّسول الأعظم ﷺ والعبث في مجتمعه.. وهذا واضحٌ لكلّ دارس لتلك المرحلة، ولكلّ متأمّل بحركة الأحداث الَّتي كان القرآن الكريم يؤشّر عليها بدقة ويشخّصها.

---

(١) التّوبة: ١٠١.

(٢) التّوبة: ٤٨.

والأمر الَّذي نريد أن نبحثه في هذه السُّطور متى بدأت حركة المنافقين في عصر النّبوّة المعصومة، وكيف واجهها ﷺ؟

هناك رأيان في هذا الأمر: رأي يقول: إنَّ حركة النّفاق بدأت حين استقرَّ رسول الله ﷺ في المدينة المنوّرة، وحين أصبح للإسلام قوّة تخيف الكُفّار والمشركين، وأهل الكتاب من اليهود والنَّصارى؛ ولذلك صاروا يتظاهرون بالإسلام، ويتملّقون وينافقون؛ ليحموا أنفسهم ودماءهم؛ لئلا تطبّق عليهم أحكام الشَّرع المقدّس في الكُفّار والمنافقين؛ لأنَّ رسول الله ﷺ أعلن قائلاً: «أُمِرْتُ أن أقاتل النّاس حتّى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله، أحرزوا دماءهم، وأموالهم، إلا بحقّها، وحسابهم على الله»(١)؛ ورأي آخر يرى أنَّ حركة النّفاق ابتدأت في مكّة مع بداية حركة رسول الله ﷺ.

وعلى ضوء الرّأي الأوّل بأنَّ النّفاق ابتدأ في المدينة، قيل: إنَّ النّفاق لا أصل له في مكّة لعدم وجود قوّة إيمانيّة تخيف قوى الضَّلال، وإنّما كان المسلمون في مكّة مستضعفين محاصرين معذّبين متسّترين على دينهم، فعلامَ يداهنهم الآخرون، ويتملقون لهم، ويسلكون طريق النّفاق معهم.

وهذا الرّأي غير سليم، ولا يثبت أمام البحث؛ لأنَّه حصر أسباب النّفاق في الخوف من القوّة والسُّلطان، بينما الحقيقة أنَّ أسباب النّفاق قد

(١) الصّنعانيّ، المصنّف: ٦٧/٦، ح/١٠٠٢٠.

تنشأ من أمور أخرى كحالات الطّمع للوصول إلى المواقع المتقدّمة في الدّولة، أو المجتمع، أو كحالات القلق النّفسيّ والحيرة والضّياع والتّذبذب، أو لأجل الكيد للإسلام والإيقاع به من داخله، وهذا سبب مهمٌّ ثبت فعلاً في انضمام كثير من اليهود والنَّصارى والأوس والخزرج من الحاقدين على الإسلام كما في انتماء كعب الأحبار ووهب بن منبه، وغيرهما كثيرون قديماً وحديثاً كما أثبتت الوقائع والأحداث[١].

قال ابن خلدون: «ثمّ أسلم عبد الله بن سلام، وكفر جمهور اليهود، وظهر قوم من الأوس والخزرج، منافقون يظهرون الإسلام مراعاة لقومهم من الأنصار، ويصرّون الكفر، وكان رؤوسهم من الخزرج: عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول، والجدّ بن قيس، ومن الأوس: الحرث بن سهيل بن الصّامت، وعباد بن حنيف، ومربع ابن قيظي، وأخوه أوس من أهل مسجد الضّرار، وكان قوم من اليهود أيضاً تعوَّذوا بالإسلام وهم يبطنون الكفر منهم: سعد بن حنيس، وزيد بن اللُّصيت، ورافع بن خزيمة، ورفاعة بن زيد بن التابوت، وكنانة بن خبورا»[٢].

وهذا النَّصُّ صريحٌ بأنَّ هؤلاء إنَّما تظاهروا بالإسلام إمّا كيداً له، وإمّا طمعاً، وإمّا مراعاة لأقوامهم... إذن يجوز انضمام بعض أهل مكّة لأجل ذلك، وقد أوضح ذلك بدقّة العلامة الطّباطبائيّ في الميزان، فقال:

---

(١) راجع كتاب المتظاهرون بالإسلام للأستاذ حسن السَّعيد.

(٢) تاريخ ابن خلدون: ج٢/ق٢/ص ١٧.

«فإنَّ علل النّفاق ليست تنحصر في المخافة والاتقاء أو الاستدرار من خير معجل، فمن علَّله الطَّمع ولو في نفع مؤجّل ومنها العصبيّة والحميّة، ومنها استقرار العادة، ومنها غير ذلك»[١].

صحيح أنَّه لا أثر للمنافقين على المسلمين في المرحلة السّرّيّة في مكّة، والَّتي دامت ثلاث عشرة سنة، ولكن لا نشكُّ أنَّ هناك من ذوي الطّموح السّياسيّ من يطمح أن يضع حركة الرّسالة تحت عباءته، ليستثمرها في مستقبل أيّامه، وما نصيحة عتبة بن ربيعة لقريش بعد لقائه برسول الله وسماعه القرآن منه قائلاً لهم بعد أن اتّهموه بالصّبوة لرسول الله ﷺ إلا دليل على ذلك، قال لهم: «يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، خلّوا بين هذا الرّجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الَّذي سمعت منه نبأٌ عظيمٌ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكنْتُم أسعد النّاس به»، قالوا: «سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه»، قال: «هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم»[٢].

وكان رأي أبي جهل حول كلام عتبة: «والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا صبا إلى محمّد»[٣].

(١) الميزان في تفسير القرآن: ٩٠/٢٠.

(٢) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ١٩١/١.

(٣) ابن كثير، السّيرة النّبويّة: ٥٠٢/١.

وهنا نتساءل: هل كان قول عتبة بن ربيعة- وهو من أضخم الشّخصيّات الجاهليّة- عن قناعة وإيمان برسول الله صلى الله عليه وآله حتّى ينصح قريش بالسُّكوت عن رسول الله صلى الله عليه وآله ومداهنته إلى أن يروا ما يتمخّض عن حركته كما هو واضح من قوله: «وإن يظهر على العرب فملكُه ملكُكم، وعزُّه عزُّكم، وكنْتُم أسعد النّاس به»، إذن الغاية من دعوة الوليد هو الاستيلاء على الملك بعد ظهور الرُّسول الأكرم وليس الإيمان بدينه، بل لا نشكّ أنَّ بعض المهاجرين لم يكن بعيداً عن هذا التّصوّر، وما إبعاد أهل بيت النّبوّة عليهم السلام عن المواقع المتقدّمة في الدّولة بعد رحيل رسول الله صلى الله عليه وآله بمبرّرات أوهى من بيت العنكبوت إلا نتاج هذا التّصوّر.

وما بُغض الإمام عليّ عليه السلام من كثيرين من قريش ومحاربته في ثلاثة حروب طاحنة استغرقت مدّة حكمه كاملة من أقرب المقرّبين إلا بعض نتائج ذلك؛ ولذا نجده مع إيمانه وصبره وشجاعته وسعة أفقه يشكو إلى الله الظلامات الّتي تحَمَّلها من قريش، فيقول:

«فَدَعْ عَنْكَ قُرَيْشاً وَتَرْكَاضَهُمْ فِي الضَّلالِ، وَتَجْوَالَهُمْ فِي الشِّقَاقِ، وَجِمَاحَهُمْ فِي التِّيهِ؛ فَإِنَّهُمْ قَدْ أَجْمَعُوا عَلَى حَرْبِي كَإِجْمَاعِهِمْ عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللهِ صلى الله عليه وآله قَبْلِي، فَجَزَتْ قُرَيْشاً عَنِّي الْجَوَازِي[1]، فَقَدْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَسَلَبُونِي سُلْطَانَ ابْنِ أُمِّي[2]»[3].

---

(١) الجوازي: جمع جازية بمعنى المكافأة، دعاء عليهم بالجزاء على أعمالهم.

(٢) يريد رسول الله صلى الله عليه وآله، فإنَّ فاطمة بنت أسد أمّ أمير المؤمنين ربَّت رسول الله في حجرها، فقال النّبيّ في شأنها: فاطمة أمّي بعد أمّي.

(٣) نهج البلاغة: ٤٣٢، كتاب: ٣٦.

وفي خطاب آخر قال عليه السلام: «اللَّهُمَّ، إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ ومَنْ أَعَانَهُمْ؛ فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي وصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِيَ، وأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي، ثُمَّ قَالُوا: أَلا إِنَّ فِي الْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَه، وَفِي الْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ»(١).

ومن هنا لا يمكن أن نتصوّر أنَّ المرحلة المكّيّة من الدَّعوة قد خلت من المنافقين.

بعد هذه المقدّمة نرجع لبحث بداية ظهور حركة المنافقين، لقد أثبتت الوقائع التّأريخيّة أنَّ هذه الحركة ظهرت بشكل فعليٍّ واضح جليّ لكلّ عاقل منصف منذ وصول الرّسول صلى الله عليه وآله إلى المدينة وانطلاقه من مسجد قبا، ولكنَّ هذا لا يعني عدم وجودها في نفوس بعضهم قبل ذلك، فبعد أن صلى معه مائة رجل ركب ناقته، وأرخى زمامها، فانتهى إلى عبد الله بن أُبَيّ في المدينة، فوقف عليه، وهو يقدر أنَّه يعرض عليه النّزول عنده، فقال له عبد الله بن أُبَيّ بعد أن ثارت في نفسه الغيرة فأخذ كُمّه ووضعه على أنفه، وقال: «يا هذا، اذهب إلى الّذين غرّوك وخدعوك، وأتوا بك، فانزل عليهم، ولا تغشَنا في ديارنا»(٢).

والسَّبب في هذا الاستقبال الصَّلف القبيح الوقح، الّذي يتنافى مع الأخلاق الإنسانيّة خصوصاً العرب الّذين عرفوا بإكرام الضيف، ولوكان

(١) نهج البلاغة: ٢٧٩، خطبة: ١٧٢.

(٢) إعلام الورى بأعلام الهدى: ١/١٥٤.

عدوّاً لهم هو كما قال ابن إسحاق: «وقدم رسول الله ﷺ المدينة- كما حدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة- وسيّد أهلها عبد الله بن أُبَي [ابن] سلول العوفي. ثم أحد بنى الحبلى، لا يختلف عليه في شرفه [من قومه] اثنان، لم تجتمع الأوس والخزرج قبله ولا بعده على رجل من أحد الفريقين، حتّى جاء الإسلام، غيره، ومعه في الأوس رجل، هو في قومه من الأوس شريف مطاع، أبو عامر عبد عمرو بن صيفي بن النعمان، أحد بني ضبيعة بن زيد، وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد، وكان قد ترهَّب في الجاهليّة ولبس المسوح، وكان يقال له: الراهب، فشقيا بشرفهما، وضرَّهما.

فأما عبد الله بن أُبيّ، فكان قومه قد نظموا له الخرز ليتوّجوه، ثم يملّكوه عليهم، فجاءهم الله تعالى برسوله ﷺ، وهم على ذلك، فلمّا انصرف قومه عنه إلى الاسلام ضغن، ورأى أنَّ رسول الله ﷺ قد استلبه ملكاً، فلمّا رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصرّاً على نفاق وضغن.

وأمّا أبو عامر، فأبى إلا الكفر والفراق لقومه حين اجتمعوا على الإسلام، فخرج منهم إلى مكة ببضعة عشر رجلاً مفارقاً للإسلام ولرسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ- كما حدَّثني محمّد بن أبي أمامة عن بعض آل حنظلة بن أبي عامر-: لا تقولوا الرّاهب، ولكن قولوا: الفاسق».

قال ابن إسحاق: «وحدَّثني جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم، وكان قد أدرك وسمع، وكان راوية: أنَّ أبا عامر أتى رسول الله ﷺ حين قدم

المدينة، قبل أن يخرج إلى مكّة، فقال: ما هذا الدّين الَّذي جئتَ به؟ فقال: جئتُ بالحنيفيّة دين إبراهيم، قال: فأنا عليها، فقال له رسول الله ﷺ: إنَّك لستَ عليها، قال: [بلى] إنَّك أدخلتَ يا محمّد في الحنيفيّة ما ليس منها، قال: ما فعلت، ولكنّي جئتُ بها بيضاء نقيّة، قال: الكاذب أماته الله طريداً غريباً وحيداً- يُعرّض برسول الله ﷺ- أي أنّك جئت بها كذلك. قال رسول الله ﷺ: أجل، فمن كذب ففعل الله تعالى ذلك به. فكان هو ذلك عود الله، خرج إلى مكّة، فلما افتتح رسول الله ﷺ مكّة خرج إلى الطّائف، فلمّا أسلم أهل الطّائف لحق بالشّام، فمات بها طريداً غريباً وحيداً»(١).

وهكذا يمكن القول: إنَّ من الأسباب الأساسيّة الَّتي انطلقت منها حركة النّفاق وأحكمت أواصرها ضغينة ابن أُبَي ابن سلول الخزرجيّ على النّبيّ ﷺ؛ إذ كان على وشك أن يتوّج مَلكاً، وقد نظموا له الخرز؛ ليتوّجوه، ثمّ يملّكوه عليهم، ولم يُتَوَّج ملكٌ من العرب قبله إلا قحطان، وقيل: لم يبقَ من الخرز إلا خرزة واحدة، فلما مَنَّ الله تعالى برسوله على أهل المدينة بما فيها الأوس والخزرج فدخلوا الإسلام، واعتنقوا عقائده أضمر حقده على رسول الله ﷺ، لأنَّه رأى أنَّه سلبه ملكاً عظيماً، ولما لم يستطع أن يقف أمام المدّ الإسلامي دخل في الإسلام مضطراً؛ ليحفظ دمه ومكانته، وبقي يخطّط للوقيعة بالرّسول ﷺ(٢)، مع أنَّه كما يقول

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٤٢٢/٢-٤٢٤.

(٢) انظر: السيرة الحلبية: ٢٣٩/٢.

بعض المؤرّخين كان شخصيّة تتمتّع باحترام كبير حيث كان في سابق أمره ليّن العريكة، ويمتلك (دبلوماسيّة) قويّة حيث كان يتكيّف للظُّروف بحسب ما تقضي مصالحه كما هو شأن المنافقين في كلّ زمان ومكان، ولمّا لم يستطع أن يُنَفّذ كلّ ما خُطّط له كانت تظهر منه بين الحين والآخر خبائث وقبائح تزكم الأنوف؛ ليعرقل مسيرة الإسلام.

وكان النّبيّ ﷺ يعالج ما يثيره بحكمة وتأنٍّ، ليحفظ وحدة المسلمين، ويجذب القلوب إليه، ويبطل مؤامراته، وكان يحاول أن يصرف الأنظار عن رسول الله ﷺ، ولكنه كان يلاقي ردوداً عنيفةً من بعض المسلمين؛ ففي إحدى المرّات وبينما رسول الله ﷺ كان قاصداً سعد بن عبادة؛ ليعوده في مرض، وفي الطريق رأى ابن أُبَيّ فنزل وسلّم، ثمّ جلس قليلاً، فتلا القرآن، ودعا إلى الله، وذكّر بالله، وحذّر وبشّر، وابن أُبّي ساكت لا يتكلّم، فما أن انتهى رسول الله ﷺ من حديثه خاطبه قائلاً: «يا هذا إنّه لا أحسن من حديثك هذا إن كان حقّاً، فاجلس في بيتك، فمن جاءك له فحدّثه إيّاه، [و] من لم يأتِكَ فلا تغته[1] به، ولا تأته في مجلسه بما يكره منه».

فقال عبد الله بن رواحة في رجال كانوا عنده من المسلمين: «بلى، فاغشنا به وائتنا به في مجالسنا ودورنا وبيوتنا، فهو والله ممّا نحبّ، وممّا أكرمنا الله به، وهدانا له».

---

(١) الغت هو الضغط والمزاحمة، فيقصد لا تزاحمه وتؤذيه.

فقال عبد الله بن أُبَيّ، حين رأى من خلاف قومه ما رأى:

متى ما يكن مولاك خصمك لا تزل
تذل ويصرعك الَّذين تصارعُ
وهل ينهض البازي بغير جناحه
وإن جذَّ يوماً ريشه فهو واقعُ

فقام رسول الله ﷺ، فدخل على سعد بن عبادة، وفي وجهه ما قال عدو الله ابن أُبَيّ، فقال: «والله يا رسول الله، إنّي لأرى في وجهك شيئاً، لكأنَّك سمعتَ شيئاً تكرهه»، قال: «أجل»، ثمّ أخبره بما قال ابن أُبَيّ، فقال سعد: «يا رسول الله، أرفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنّا لننظم له الخرز لنتوّجه، فوالله إنّه ليرى أن قد سلبْتَه ملكاً»[1].

ومرّة أخرى في أحداث خيانة وغدر يهود بني قينقاع حين حاصرهم الرّسول ﷺ بجيشه، ثمَّ نزلوا على حكمه بعد حصار دام خمس عشرة ليلة، وأمكنه الله تعالى منهم، وبعد ذلك تدخّل رأس النّفاق؛ لينقذ حلفاءه اليهود من القتل، وجاء إلى رسول الله ﷺ، وقال: «يا محمّد، أحسن في موالي»، وكانوا حلفاء الخزرج، ولمّا أعرض عنه رسول الله ﷺ أدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسلني» أي دعني، وغضب رسول الله ﷺ، حتّى رأوا لوجهه ضللاً، ثمّ قال: «ويحك! أرسلني»، قال: «لا، والله لا أرسلك حتّى

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٤٢٥/٢.

تحسن في موالي، أربع مئة حاسر وثلاث مئة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة، إنّي والله امرؤ أخشى الدّوائر»، فقال رسول الله ﷺ: «هم لك»(١).

وهكذا استمرَّ رأس النّفاق ومن معه وممّن على شاكلته من اليهود والنَّصارى والمشركين بمواصلة الكيد للإسلام وبمختلف الأساليب الإعلاميّة أو الاقتصاديّة والاجتماعيّة في إثارة الفتن والأزمات لعرقلة امتداد الإسلام، وإشغال الرّسول ﷺ والمؤمنين عن مواصلة الدَّعوة والهداية لبناء المجتمع الإسلامي، فتراهم مرّة ينشرون الأكاذيب والافتراءات؛ لتضعيف معنويّات المسلمين وبأساليب خسيسة.

ومعلوم أنَّ تضعيف المعنويّات من ديدن المنافقين في كلّ حرب أو شدّة أو أزمة، والحقيقة هم يُعَبّرون عما في أنفسهم من قلق وحيرة وانهزام نفسيّ، كما حكى تعالى عنهم في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلا غُرُوراً**﴾(٢).

ومن الأساليب الَّتي يتّبعها المنافقون نشر الإشاعات المغرضة الَّتي لا أصل لها؛ وذلك لتمزيق وحدة المسلمين، فمثلاً بعد انتصار الجيش الإسلاميّ في ملحمة بدر العظيمة قدم زيد بن حارثة على ناقة رسول الله

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٥٦٢/٢.

(٢) الأحزاب: ١٢.

صلى الله عليه وآله القصواء يبشّر أهل المدينة بقتل طواغيت قريش كأبي جهل وعتبة وشيبة وأميّة بن خلف وأبي البختري، «فقال رجلٌ من المنافقين لأسامة بن زيد: قتل صاحبكم ومن معه. وقال رجلٌ من المنافقين لأبي لبابة بن عبد المنذر: قد تفرَّق أصحابكم تفرّقاً لا يجتمعون منه أبداً، وقد قتل عليّة أصحابه، وقتل محمّد، هذه ناقته نعرفها، وهذا زيد لا يدري ما يقول من الرّعب»[1].

فهم يواصلون نشر الأراجيف والأكاذيب في الوسط الاجتماعيّ لخلق الفوضى والبلبلة الفكريّة والسّياسيّة، وهذا لم ينحصر في عصر رسول الله صلى الله عليه وآله، بل في كلّ زمان يواصل المنافقون حربهم للإسلام بهذه الأساليب الرَّخيصة.

ومن أساليبهم الأخسّ والأرذل التّملّق والتّحبّب للمؤمنين، لأجل خداعهم والتّسلّل في أوساطهم؛ لنشر مفاسدهم، وما إرسال رأس النّفاق قميصه لرسول الله صلى الله عليه وآله، ليكسي عمّه العباس حين أسر إلا أنموذج من ذلك.

وفي بعض الأحيان يحاولون أن يغطّوا جرائمهم وخبائثهم بعرض الأموال والمساعدات للمسلمين، فجاء الرّدّ القرآنيّ لهم حاسماً: ﴿**قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ**﴾[2].

---

(١) كتاب المغازي: ١١٥/١.

(٢) التّوبة: ٥٣.

ثمّ يأتي بيان علة عدم قبول نفقاتهم هو أنّهم يؤدّونها لا عن إيمان وطوع وطيب خاطر، وإنّما دفعاً لما يدور حولهم من الشُّبهات عنهم ﴿**وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ**﴾(١).

ومن أرذل أساليبهم وأقذرها هو محاولة خداع المؤمنين بالتّظاهر بالتّديّن وطرح المشاريع الدّينية، وخير مثال لذلك بناء مسجد ضرار، ودعوة النّبيّ صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ للصّلاة فيه؛ ليكسبوه شرعيّة، ولما كشف الوحي حقيقتهم أمر رسول الله صَلَّىٰاللهُعَلَيْهِوَآلِهِ بهدمه وحرقه.

وما أكثر مساجد ضرار الّتي بنيت في عصرنا من مختلف الطّبقات، ولا سيّما السّلاطين الظّلمة وأعوانهم الّذين بذلوا الأموال الطّائلة لإقامة مثل هذه المشاريع الدّينيّة بلا دين، الّتي أخذت أطواراً مختلفة من المدّعيات، فتسمع بأنَّ الملك الفلانيّ والسُّلطان الفلانيّ والأمير الفلانيّ قد بنى أعظم مسجد في كذا منطقة(٢)، وهكذا تتكرّر هذه الأساليب النّفاقيّة، فهل ننتبه إلى ما يحيكه المنافقون في كلّ زمان وبنفس الأهداف مع اختلاف الأساليب.

ومن حسن الصّدف أنّني وأنا أكتب هذه السُّطور حول مسجد

---

(١) التّوبة: ٥٤.

(٢) لعلَّ هذا مصداق ما وصفه أمير المؤمنين عَلَيْهِالسَّلَامُ بقوله: «مَسَاجِدُهُمْ يَوْمَئِذ عَامِرَةٌ مِنَ الْبُنَى، خَرَابٌ مِنَ الْهُدَى، سُكَّانُهَا وعُمَّارُهَا شَرُّ أَهْلِ الأَرْضِ، مِنْهُمْ تَخْرُجُ الْفِتْنَةُ، وإِلَيْهِمْ تَأْوِي الْخَطِيئَةُ، يرُدُّونَ مَنْ شَذَّ عَنْهَا فِيهَا، ويَسُوقُونَ مَنْ تَأَخَّرَ عَنْهَا إِلَيْهَا»، نهج البلاغة: ٥٤٨، قصار الحكم: ٣٦١.

ضرار فتحت الشّبكة العنكبوتيّة فخرج لي خبر عجيب، وهو أنَّ مجموعة في ألمانيا رفعوا في مسجد من مساجد ضرار عَلم الشّواذّ الجنسيّين (المثليّين)، ودعوا للصّلاة فيه النّساء والرّجال بصورة مختلطة، أتُرى هل هناك أرذل من هذه الأساليب.

ومن وسائل المنافقين الاستهانة والاستهزاء بالمؤمنين قديماً وحديثاً، وبمختلف الأساليب، بل يحاولون بالسّخريّة والاستهزاء أن يتظاهروا بالإيمان؛ ليخدعوا المؤمنين.

رُوِيَ أنَّ «عبد الله بن أُبَيّ وأصحابه خرجوا ذات يوم، فاستقبلهم قومٌ من أصحاب رسول الله ﷺ فيهم أبو بكر وعمر وعلي رضى الله تعالى عنهم، فقال عبد الله بن أُبَي: انظروا كيف أردّ هؤلاء السّفهاء عنكم، فأخذ بيد أبي بكر، فقال مرحباً بالصّديق سيّد بني تيم، وشيخ الإسلام وثاني رسول الله ﷺ في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثمّ أخذ بيد عمر، فقال: مرحبا بسيّد بني عدي الفاروق القويّ في دين الله الباذل نفسه وماله لرسول الله ﷺ، ثمّ أخذ بيد عليّ، فقال: مرحباً بابن عمّ رسول الله ﷺ وختنه سيّد بني هاشم ما خلا رسول الله ﷺ، ثمّ افترقوا، فقال له عليٌّ: اتقّ الله يا عبد الله، ولا تنافق؛ فإنَّ المنافقين شرّ خليقة الله تعالى، فقال له عبد الله: مهلاً يا أبا الحسن إليَّ تقول هذا؟ والله إنَّ إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم، فقال لأصحابه: كيف

رأيتموني فعلت؟ فأثنوا عليه خيراً»[١]، فنزلت الآية المباركة: ﴿**وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آَمَنُوا قَالُوا آَمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ**﴾[٢].

وهذا الأسلوب نراه يتكرّر على طول الزّمن بين المؤمنين والمنافقين، ولكن بصور مختلفة.

ومن أخصّ خصائص المنافقين النّكث للعهود، والغدر بمن يعاهدونه والتّراجع والانهزام في المواقف الحرجة، وتبرير ذلك بأعذار أوهى من بيت العنكبوت، وأصدق مصاديق هذه الحالات ما وقع في معركة أحد حين أقبلت قوى الكفر والشّرك يقودها أبو سفيان، ومن معه من طواغيت قريش بكل ما أوتيت من عدّة وعدد بأحابيشها[٣]، ومن تابعها من بني كنانة، وأهل تهامة؛ ليثأروا لقتلاهم في بدر، وليستأصلوا شجرة الإسلام من جذورها، وقد واجه رسول الله ﷺ هذا الخطر بحكمة ودراية، فأخذ يشاور أصحابه، فمنهم من اقترح عليه أن يبقوا في المدينة، ويدافعوا عنها من داخلها، وكان رأس النّفاق على هذا الرّأي، وخالفه الشّباب المؤمنون المتحمّسون للجهاد، والمتطوّعون للشّهادة، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب، فأشاروا على الرّسول ﷺ

(١) السّيرة الحلبيّة: ٣٣٩/٢.

(٢) البقرة: ١٤.

(٣) الأحابيش: حلفاء قريش من بني كنانة، تحالفوا تحت جبل يقال له (حُبْشِيّ)، فسمّوا الأحابيش؛ الاشتقاق لابن دريد: ١٩٣.

بالخروج من المدينة والدّفاع عنها، ومنازلة الأعداء خارجها، فوافق رسول الله ﷺ على هذا الرّأي، وقاد المقاتلين إلى ميدان النّزال، وقد بلغ عدد المقاتلين آنذاك ١٠٠٠ مقاتل، وبينما هم يسيرون باتّجاه العدوّ، وقد وصلت المعركة إلى النُّقطة الحاسمة، وإذا بابن أُبَيّ يتراجع عن مواصلة المعركة، وينخزل بأصحابه المنافقين البالغ عددهم ٣٠٠ أو ما يعادل ثلث جيش المسلمين، قال ابن إسحاق: «حتّى إذا كانوا بالشَّوط بين المدينة وأحد، انخزل عنه عبد الله بن أُبَيّ [ابن سلول] بثلث النّاس، وقال: أطاعهم وعصاني، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ها هنا أيها النّاس، فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النّفاق والرَّيب»[١].

ولم يكتفِ ابن أُبَيّ وحزبه بالنّكث والتراجع، بل كما احتمل أحد الباحثين أنَّه دسَّ من أصحابه وسط الجيش عناصر منهم، وما أصاب المسلمون من نكبة في أحد إلا لوجود بعض المنافقين الّذين تراجعوا، ولم يلتزموا بأوامر رسول الله ﷺ حين أَمّر عليهم عبد الله بن جبير، وقال لهم: «إن رأيتمونا تتخطّفنا الطَّير فلا تبرحوا حتّى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا ظهرنا على القوم وأوطأناهم، فلا تبرحوا حتّى أرسل إليكم» وزاد في رواية: «وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا»، وفي رواية أنَّه قال للرّماة: «الزموا مكانكم لا تبرحوا منه؛ فإذا رأيتمونا نهزمهم حتّى ندخل في عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل، فلا تغيثونا ولا

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣/٥٨٤.

تدفعوا عنا وارشقوهم بالنّبل؛ فإنَّ الخيل لا تقدم على النّبل، إنّا لن نزال غالبين ما مكثتم مكانكم، اللّهم إنّي أشهدك عليهم»(١).

ومع هذه الوصايا والأوامر المشددة تركوا صاحبهم ابن جبير، وانحدروا، وهم يقولون: «الغنيمة، أي قوم الغنيمة، ظهر أصحابكم فما تنتظرون؟!»، فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، قالوا: إنّا والله لنأتينّ النّاس، فليصيبنّ من الغنيمة»، فلمّا أتوهم صرفت وجوههم فأقبلوا منهزمين(٢).

ونتيجة هذا التَّراجع ومخالفة أوامر الرَّسول ﷺ حدثت نكبة كبرى حيث ألقى بعضهم سلاحه، وجلس جانباً، قال ابن إسحاق: «وحدّثني القاسم بن عبد الرحمن بن رافع أخو بني عدي ابن النّجّار، قال: انتهى أنس بن النّضر، عمّ أنس بن مالك، إلى عمر بن الخطاب، وطلحة بن عبيد الله، في رجال من المهاجرين والأنصار، وقد ألقوا بأيديهم، فقال: ما يجلسكم؟ قالوا: قُتِلَ رسول الله ﷺ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ [قوموا] فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثمّ استقبل القوم، فقاتل حتّى قُتِلَ... عن أنس بن مالك، قال: لقد وجدنا بأنس بن النّضر يومئذ سبعين ضربة، فما عرفته إلا أخته، عرفته ببنانه»(٣).

---

(١) السّيرة الحلبيّة: ٤٩٦/٢.

(٢) تاريخ مدينة دمشق: ٤٤٣/٢٣.

(٣) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٦٠٠/٣؛ وينظر: الرّوض الأنف للسّهيليّ: ٤٤٦/٥؛ الأغاني: ١٢٩/١٥.

بل قيل: «إنّ أنس بن النّضر سمع نفراً من المسلمين يقولون، لمّا سمعوا أنّ النّبيّ ﷺ قتل: ليت لنا من يأتي عبد الله بن أبيّ بن سلول ليأخذ لنا أماناً من أبي سفيان قبل أن يقتلونا. فقال لهم أنس: يا قوم إن كان محمّد قد قتل فإنّ ربّ محمّد لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمّد. اللّهمّ إنّي أعتذر إليك ممّا يقول هؤلاء، وأبرأ إليك ممّا جاء به هؤلاء! ثمّ قاتل حتّى قُتلَ»(١).

وهكذا يبقى المنافقون الّذين تأصَّل النّفاق في صدورهم مشكّكين قلقين متقلّبين لا يستقرّون على حال مهما رأوا من كرامات نبيّ الإسلام وانتصارات المسلمين في كلّ زمان، وما حدث مع رأس النّفاق في الحديبية خير دليل على ذلك؛ فحينما كان رسول الله ﷺ في طريقه إلى الحديبية، قال للنّاس: «انْزِلُوا»، فَقَالُوا: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا بِالْوَادِي مِنْ مَاءٍ يَنْزِلُ عَلَيْهِ النَّاسُ». فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ سَهْماً مِنْ كِنَانَتِهِ، فَأَعْطَاهُ رَجُلًا مِنْ أَصْحَابِهِ، فَنَزَلَ فِي قَلِيبٍ مِنْ تِلْكَ الْقُلُبِ، فَغَرَزَهُ فِيهِ، فَجَاشَ الْمَاءُ بِالرَّوَاءِ حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ عَنْهُ بِعَطَنٍ(٢).

وكان على الماء «نفرٌ من المنافقين الجدّ بن قيس، وأوس، وعبد الله بن أُبّي، وهم جلوسٌ ينظرون إلى الماء والبئر تجيش بالرّواء، وهم

---

(١) الكامل في التّأريخ: ١٥٦/٢-١٥٧؛ ينظر: تاريخ الطّبريّ: ٥٢٠/٢؛ الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ١٧٦/٣؛ نهاية الأرب: ١١٥/١٧؛ البداية والنّهاية: ٢٦/٤.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل: ٢١٣/٣١، ح/١٨٩١٠؛ والعطن: مبرك الإبل حول الماء.

جلوسٌ على شفيرها. فقال أوس بن خولي: ويحك يا أبا الحباب! أما آن لك أن تبصر ما أنت عليه، أبعد هذا شيءٌ، وردنا بئراً يتبرّض ماؤها[١]، فتوضّأ رسول الله ﷺ، ومضمض فاه في الدَّلو، ثمَّ أفرغ الدّلو فيها، ونزل بالسَّهم، فحثحثها فجاشت بالرّواء.

قال: يقول ابن أبي: قد رأيتُ مثل هذا. فقال أوس: قبَّحك الله وقبّح رأيك! فيقبل ابن أُبَي يريد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: أي أبا الحباب أين رأيت مثل ما رأيت اليوم فقال: ما رأيت مثله قطّ. قال رسول الله ﷺ: فلِمَ قلتَ ما قلتَ؟ قال ابن أُبَي: أستغفر الله»[٢].

ومرّة أخرى عندما عطش الجيش، ودعا رسول الله ﷺ، ونزل المطر حتّى رووا، وتزوّدوا من الماء، قال ابن أُبَيّ: «هذا نوء[٣] الخريف مطرنا بالشّعرى»، وحين سمع رسول الله ﷺ ذلك أقبل على النّاس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربّكم؟» قالوا: «الله ورسوله أعلم!» قال: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأمّا من قال مطرت بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأمّا من قال مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكواكب»[٤].

---

(١) يتبرّض: يخرج في القعب جرعة ماءٍ.

(٢) كتاب المغازي: ١/٥٨٨-٥٨٩.

(٣) النّوء: المطر الشّديد.

(٤) كتاب المغازي: ١/٥٨٩-٥٩٠.

كما أنَّ من أخبث خبائث المنافقين، وأفظع جناياتهم أنَّهم يعايشون المسلمين، ويشاركونهم مجالسهم وأعمالهم، ثمّ ينقلون ما يدور في الوسط الإيمانيّ من أحاديث وخطط وعلاقات لأعداء الإسلام من الكُفّار والمشركين واليهود والنَّصارى، وهم بذلك يمثّلون الطّابور الخامس والدّعاية السّوداء[1] الَّتي تستهدف تشويه صورة الرّسالة الإلهيّة والمتمثّلة برسول الله ﷺ بل غالباً ما تكون دعاياتهم (رماديّة)[2] من النّوع الَّذي لا يتحدّد مصدره، وفي خط النّفاق غالباً ما يكشفها الوحي لرسول الله ﷺ، وعندما تُفضح جرائمهم يلجؤون إلى اليمين؛ لأجل التّملّص ممّا قالوا.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحال بقوله تعالى: ﴿**وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ**﴾[3]، يسمعون لليهود والنَّصارى والمشركين والكُفّار، ويقبلون ما يقولونه، ويصدّقونه، ويشيعونه في وسط المؤمنين في الوقت الَّذي يقلبون الحقائق الإيمانيّة، ويفسّرونها عكس مقصدها ابتغاءً للفتنة، وتمزيقاً للكلمة، ونشراً للعداوات كما في تكملة الآية الآنفة: ﴿**لَقَدِ**

---

(١) الدّعاية السّوداء: هي شكلٌ من أشكال الدّعاية الَّتي تهدف إلى خلق الانطباع بأنَّها من صنع أولئك الّذين من المفترض أن تشوّه سمعتهم.

(٢) الدّعاية الرّماديّة: هي دعاية مقنّعة وموجّهة غير واضحة المصدر، وتخفي أموراً غير الَّتي هي معلنة لكن يمكن الوقوف على غاياتها الحقيقيّة من خلال التَّدقيق في أهدافها، وطبيعة القوى الَّتي تقف خلفها.

(٣) التّوبة: ٤٧.

ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الأُمُورَ﴾[١].

فهَم يبَذلون قصارى جهدهم في الحيل الماكرة، والأكاذيب الفاجرة، والخيانة الفاضحة؛ لإيقاع الاختلاف وشقّ الصّفّ الإسلامي، فلا يقتصرون على أسلوب واحد ووجه واحد، بل يَظهرون بوجوه متباينة، فهم يحضرون في مجالس الرَّسول ﷺ والمؤمنين، ويستمعون لما يطرح من رؤى وأفكار وخطط ويتلقّفونها؛ لينقلوها إلى حلفائهم من اليهود والنَّصارى، ويا ليتهم ينقلونها كما هي، بل ينقلونها عكس معناها ومقصدها؛ ليقلبوا حقائقها؛ وليشوّهوا سمعة قائلها حتّى نزل قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ الّذين يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾[٢].

وفي بعض التَّفاسير أنَّ «سبب نزولها أنَّ عبد الله بن نفيل كان منافقاً، وكان يقعد لرسول الله ﷺ، فيسمع كلامه، وينقله إلى المنافقين، وينمّ عليه! فنزل جبرئيل عليه السلام على رسول الله ﷺ، فقال: يا محمَّد، إنَّ رجلاً من المنافقين ينمّ عليك، وينقل حديثك إلى المنافقين، فقال رسول الله ﷺ: من هو؟ فقال: يا رسول الله، الرَّجل الأسود [الوجه]، الكثير شعر الرّأس، ينظر بعينين كأنَّهما قدران، وينطق بلسان الشّيطان، فدعاه رسول الله ﷺ، فأخبره، فحلف أنَّه لم يفعل، فقال رسول الله ﷺ: قد قَبلت منك ذلك، فلا تفعل، فرجع إلى أصحابه، فقال: إنَّ محمّداً أُذُنٌ، أَخبره

(١) التّوبة: ٤٨.

(٢) التّوبة: ٦١.

الله أنّي أنمّ عليه، وأنقل أخباره فقبل، وأخبرته أنّي لم أفعل ذلك فقبل، فأنزل الله عزّ وجلّ على نبيّه: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

ومع أنَّ رسول الله ﷺ يَعرفهم بأعيانهم إلا أنَّه- بحكم سموه الخلقيّ، وطمعه بإصلاحهم وهدايتهم- كان يتغاضى ويتكرّم عن مواجهتهم بعنف وشدّة، ويقول: «ولو شئتُ أن أسمّي بأسمائهم لسمّيت وأن أومئ إليهم بأعيانهم لأومأتُ، وأن أدلّ عليهم لدللتُ، ولكنّي والله في أمورهم قد تكرّمت»[2].

ولأجل أن يوقف الرّسول ﷺ هذه الظّواهر اضطرّ في بعض الأحيان أن يأمر بإخراج بعض المنافقين من المسجد، فمارس بعض أصحابه المخلصين العنف معهم حين لم ينفع اللّطف والتّكرّم، وهل يزيد اللطفُ والإكرامُ اللئيمَ إلا تمادياً بالغيّ والضّلال والإضلال، ومن لا ينفع معه الإكرام فليس له إلا الإهانة والإذلال.

ونتيجة عبثيّتهم وخبثهم ومحاولاتهم خلق الفوضى، ونشر الفساد في مجتمع المؤمنين كان رسول الله ﷺ يأمر بإخراجهم من المسجد، قال ابن هشام: «وكان هؤلاء المنافقون يحضرون المسجد، فيستمعون أحاديث المسلمين، ويسخرون منهم، ويستهزئون بدينهم، فاجتمع يوماً

---

(١) تفسير القمّيّ: ٤٢٨/٢.

(٢) الاحتجاج: ٧٣/١-٧٤.

في المسجد منهم ناس، فرآهم رسول الله ﷺ يتحدّثون بينهم خافضي أصواتهم، قد لصق بعضهم ببعض، فأمر بهم رسول الله ﷺ، فأخرجوا من المسجد إخراجاً عنيفاً».

وقد وصل إخراجهم إلى حدّ اللّطم، والسّحب بقوّة؛ إذ إن أبا أيوب الأنصاريّ جاء إلى أحدهم «فأخذ برجله فسحبه، حتّى أخرجه من المسجد... ثمَّ أقبل أبو أيّوب أيضاً إلى رافع بن وديعة، أحد بني النّجّار، فلبّبه بردائه، ثمَّ نتره نتراً شديداً، ولطم وجهه، ثمّ أخرجه من المسجد، وأبّو أيوب يقول له: أفّ لك منافقاً خبيثا! أدراجك يا منافق من مسجد رسول الله ﷺ... أي ارجع من الطّريق الّتي جئتَ منها»(١).

وكان من أجلى صور خيانة المنافقين ما وقع في غزوة خيبر حين عزم رسول الله ﷺ على تطهير الجزيرة العربيّة من اليهود، وكانت خيبر القلعة الحصينة الّتي جمعت رؤوس اليهود، والقوّة العسكرية الأقوى فيها، وقد كان فيها عشرة آلاف مقاتل، وكانوا لا يظنّون أنَّ رسول الله ﷺ يغزوهم أبداً لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم، بل كانوا يستعرضون قوّتهم، فيخرجون، ويصطفّون، ثمَّ يقولون: محمَّد يغزونا، هيهات هيهات(٢).

هكذا كان الغرور مسيطراً عليهم، ولم يكونوا يتصوّرون أنَّ أحداً

---

(١) ابن هشام، السّيرة النّبويّة: ٣٧٠/٢-٣٧١.

(٢) كتاب المغازي: ٦٣٧/٢.

قادرٌ على مواجهتهم لقوّتهم العسكريّة، وقدرتهم الاقتصاديّة، والحصانة المتينة لمواقعهم.

ولمّا أتمّ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ جهوزية المعركة، وتهيّأ للحركة نحوهم، أرسل إليهم عبدُ الله بن أُبَيّ «يخبرهم بأنَّ محمّداً سائر إليكم، فخذوا حذركم، وأدخلوا أموالكم حصونكم، واخرجوا إلى قتاله، ولا تخافوا منه؛ إنَّ عددكم كثير، وقوم محمد شرذمة قليلون، عزّل لا سلاح معهم إلا قليل»[1].

ومن جانب آخر شغّل الطّابور الخامس داخل المدينة ماكنتهم الدّعائيّة السّوداء، فراحوا يشيعون في المدينة أنَّ قوةَ اليهود في خيبر عصيّةٌ على أعدائها، قال الواقديّ: «كان من كان بالمدينة من اليهود يقولون حين تجهّز النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى خيبر: ما أمنع والله خيبر منكم! لو رأيتم خيبر وحصونها ورجالها لرجعتم قبل أن تصلوا إليهم، حصون شامخات في ذرى الجبال، والماء فيها واتن[2]، إن بخيبر لألف دارع ما كانت أسدٌ وغطفان يمتنعون من العرب قاطبةً إلا بهم، فأنتم تطيقون خيبر! فجعلوا يوحون بذلك إلى أصحاب النّبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فيقول أصحاب

(١) السّيرة الحلبيّة: ٢/٧٣٠.

(٢) الواتن الماء المعين الدّائم.

النّبيّ ﷺ: قد وعدها الله نبيّه أن يغنمه إيّاها»[١].

وكان رسول الله ﷺ قد أرسل بعض رجاله يستطلعون الأوضاع الميدانيّة، ويؤمّنون الطَّريق، وفي طريقهم وقع في أيديهم رجل أرسلته اليهود؛ ليستطلع أخبار المسلمين، وحين استنطقوه، قال لهم: «اعلموا أنَّ أهل خيبر خائفون منكم خوفاً شديداً، واستولى على قلوبهم خوف عظيم ممّا فعلتم بيهود بني قريظة والنّضير؛ ومنافقو المدينة بعثوا إلى أهل خيبر يخبرونهم أنَّ محمّداً يقصدكم، فلا تخافوهم، فإنَّهم قليلون، فأرسلوني لأتجسّس أخباركم، وأحرز أعدادكم ومقداركم»[٢].

وهكذا اتَّضح لنا أنَّ أهل النّفاق محكومون لمصلحيّة مقيتة، وانتهازيّة قذرة متأصّلة في نفوسهم، وقلق واضطراب، وتقلّب في المواقف، فتراهم دائماً وأبداً على أتمّ استعداد أن يظهروا بوجوه متعدّدة، وعلى استعداد دائم لأن يكونوا جواسيس وعملاء على أقرب النّاس إليهم، وربما ازدوجت جاسوسيّتهم لأطراف مختلفة ومتناقضة، وما حلَّ بالإسلام والمسلمين من كوارث ونكبات ومصائب في كثير من المعارك قديماً وحديثاً إلا وللمنافقين يدٌ في ذلك، والأمثلة كثيرة ولا سيّما في عصرنا الحاضر، وما المنظّمات الاستخباريّة العالميّة والمنظّمات الجاسوسيّة إلا دليل على ذلك.

---

(١) كتاب المغازي: ٦٣٧/٢.

(٢) تاريخ الخميس: ٤٤/٢.

الختام

عقاب المنافقين وعذاباتهم

الملاحظ في ذكر عذابات المنافقين وعقوباتهم في القرآن أنَّها أتت في سياق أعمالهم وصفاتهم وأخلاقهم، فما تذكر صفة أو عمل من أعمالهم الخبيثة إلا وجاء بعد ذكر تلك الصّفات، الوعيد بالعقاب والعذاب في الدُّنيا والآخرة، وهذا تكرّر في جميع الآيات الَّتي ذكرت في عذابات المنافقين، وما استحقّوا هذا العقاب إلا لتلبّسهم بهذه الصّفات الَّتي أفرزت أعمالاً مشينة، وأخلاقاً سيّئة، وسلوكاً معوجاً...

فمثلاً في سورة النساء في قوله تعالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً﴾**[1].

فهم في حال مضطربة قلقة تتقلّب من حال إلى حال؛ إيمان بألسنتهم، وكفر بقلوبهم، ثمّ لا يلبث هذا الإيمان الظّاهريّ حتّى يظهر كفراً بواحاً، ثمّ يتصاعد القلق والاضطراب، ليزداد انحطاطاً وتسافلاً وهبوطاً، ولعلَّ هذا مدلول قوله تعالى: **﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً﴾**.

---

(١) النّساء: ١٣٧.

وإنَّما ازدادوا كفراً؛ لتقلّبهم، ومكرهم، ومخادعاتهم، وعدم صدقهم في ادّعاء الإيمان، وعدم استقرارهم النَّفسيّ؛ لأنَّ النَّتيجة تتبع أخسّ المقدمتين؛ ولأنَّ الكفر تمركز في قلوبهم، بل ربما أصبح حالاً انطبعت به شخصيّة المنافق؛ ولهذا فقدوا قابليّة الإصلاح وغفران الآثام والذّنوب، وأصبحوا كالجثة الميتة الَّتي لا تقبل حياة الهدى والرّشاد، فحرمهم الله من غفرانه وهدايته.

وهؤلاء هم الّذين استحوذ عليهم الشَّيطان فأنساهم ذكر الله؛ ولذلك لم يكن الله ليغفر لهم ذنوبهم، ولا ليهديهم سبيل الرَّشاد، ومن هنا فالنتيجة واضحة في قوله تعالى: ﴿**لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً**﴾.

نعم، لا يهتدون إلى سبيل واضح محدّد المسار؛ لأنَّهم في تقلّب متواصل، وتغيّر، وقلق واضطراب مستمرّ لا يستقرّون على حال معيّنة، وهل من عذاب أشدّ من ذلك؟ فالإنسان إذا لم يستقرّ فكريّاً على اتّجاه فكريّ واحد صحيح في مسيرة حياته يبقى يتلوّن ويتقلّب من حال إلى أخرى، فيظهر في كلّ يوم بوجه، وفي كلّ حال بلون، وهكذا يبقى معذّباً في شقاء متواصل، ولو ملك الدُّنيا بأسرها، وسيطر عليها جميعاً سيبقى يتطلّع إلى المزيد، فلا يعرف راحة بال، ولا استقرار حال، فهو في عذاب دائم في حلّه وترحاله.

ولعلَّ هذا مصداق قول أمير المؤمنين عليه السلام: «وَمَنْ لَهِجَ قَلْبُهُ بِحُبِّ

الدُّنْيا الْتَاطَ قَلْبُهُ بِثَلاثٍ: هَمٍّ لا يُغِبُّهُ، وَحِرْصٍ لا يَتْرُكُهُ، وَأَمَلٍ لا يُدْرِكُهُ»[1].

وقال الإمام الصّادق عليه السلام: «مَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بالدُّنْيَا تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بثَلاثِ خِصَالٍ: هَمٍّ لا يَفْنى، وَأَمَلٍ لا يُدْرَكُ، وَرَجَاءٍ لا يُنَالُ»[2].

ثم بعد أن بيَّن تعالى تقلّبهم من الإيمان إلى الكفر، ومن الكفر إلى الإيمان، وازدادوا بتلك التقلّبات كفراً أعقبه بقوله تعالى: ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً**﴾[3].

قال ابن حزم الأندلسيّ: «أمّا هؤلاء فمنافقون النّفاق الَّذي هو الكفر، فلا شكّ لنصّه تعالى على أنَّهم مذبذبون لا إلى المؤمنين ولا إلى المجاهرين بالكفر في نار جهنّم، وأنَّهم أشدّ عذاباً من الكُفّار بكونهم في الدَّرك الأسفل من النّار»[4].

وهذه البشارة جاءت على سبيل التّهكّم والاستهزاء بهم كما تقدّم في فصل سابق؛ لأنَّ البشارة تأتي لما يُسرّ الإنسان، وهنا جاءت لما يؤلمه ويؤذيه، ويعذّبه فهي على سبيل السّخرية من حالتهم المضطربة والقلقة والمترجرجة، فهم كريشة في مهب الرّيح أينما تهبّ الرّياح تقذفهم معها، لأنَّهم فقدوا الإيمان الواقعيّ الَّذي يعطي للإنسان الاطمئنان

(١) نهج البلاغة: ٥٢٢، قصار الحكم: ٢١٨.

(٢) الكافي: ٧٧٧/٣، ح/٢٦٠٢.

(٣) النّساء: ١٣٨.

(٤) المحلّى: ٢٠٤/١١.

النّفسيّ، والاستقامة السّلوكيّة، ومن يكون كذلك فمصيره التّذبذب، والضّياع وفقدان هوية الإيمان، وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿**مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لا إِلَى هَؤُلاءِ وَلا إِلَى هَؤُلاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلاً**﴾(١).

وبعد هذه البشارة التّهكّمية بالمنافقين تسترسل الآيات الكريمة في بيان نتيجة صفاتهم الخبيثة وأخلاقهم الخسيسة، ليتبيّن بعد ذلك مصيرهم المحتوم يوم القيامة، فمن انحرافاتهم الفكريّة والسّلوكيّة طلب العزّة والمتعة والقوّة في تولّي الكافرين، فيقول: ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ....**﴾، وسبب هذه البشارة المؤلمة أنَّهم اتّخذوا الكافرين أولياء، وهجروا المؤمنين طلباً للقوّة والعزّة، وجهلوا أنَّ كلّ أسباب العزّة والقوّة بيد الله تعالى؛ ولجهلهم وحماقتهم، وخبثهم خالفوا الأوامر الإلهيّة الصَّريحة الواضحة بوجوب مقاطعة المجالس الَّتي تعقد لأجل الكفر بالله والاستهزاء بآياته؛ ولذا جاء الإنذار شديداً لمن يواصل حضور هذه المجالس الَّتي تنشر الكفر والشّرك والجهل، ثمَّ أوضحت الآية خطورة هذه المجالس على حياة الإنسان بأنَّه سيتخلّق بأخلاقهم، ويكتسب عاداتهم، ويألف طباعهم... وبالنَّتيجة سيكون مثْلهم، وبذلك يفقد هويّته الإيمانيّة، ويكفر كما كفروا، وعاقبة ذلك أنَّ مصيره كمصيرهم، ويجتمع معهم في جهنّم كما اجتمع معهم في تلك المجالس الموبوءة الَّتي اجتمع فيها الكفر والنّفاق..

---

(١) النّساء: ١٤٣.

وهؤلاء المنافقون لا يكتفون بذلك، بل راحوا يتربّصون بما يجري في ساحة المعركة بين الكفر والإيمان، ويتصيّدون الفرص؛ لينالوا اللقمة الأدسم والحصة الأكثر؛ فإذا كان النَّصر والفتح للمؤمنين تلبّسوا بثوب الإيمان وطالبوا بحصّتهم من الغنائم، وادَّعوا أنَّهم كانوا مع المؤمنين، وإن كان العكس بأن كانت الغلبة لقوى الكفر تسلّلوا في أوساطهم، وراحوا يتملّقون لهم، ويَدّعون أنّهم كانوا شركاءهم في النَّصر؛ لأنَّهم استحوذوا عليهم ومنعوهم من الانضمام إلى صفوف المؤمنين، وتلك هي حال الخداع الَّتي أصبحت لهم طبعاً وعادةً وسلوكاً ﴿**يُخَادِعُونَ اللهَ**﴾ ويظنّون أنَّ ذلك خفيٌّ على الله تعالى.

وبعد هذه الجولة في عذابات المنافقين نتيجة تقلّبهم وتملّقهم ومخادعاتهم وتظاهرهم بالإيمان مرّة، وبالكفر أخرى جاءت النَّتيجة حاسمة لمصيرهم الأسود أنَّهم في الدَّرك الأسفل من النّار، وهي أشدّ درجات العذاب وأعظم العقاب الَّذي ليس له مثيل، أمّا لماذا كان المنافقون في هذه الدرجة من العذاب والجواب، فأجاب صاحب تفسير المنار: «وإنَّما كان المنافقون في الدَّرك الأسفل من النّار لأنَّهم شرُّ أهلها بما جمعوا بين الكفر والنّفاق ومخادعة الله والمؤمنين وغشّهم، فأرواحهم أسفل الأرواح، وأنفسهم أخسّ الأنفس، وأكثر الكُفّار قد أفسد فطرتهم التّقليد، وغلب عليهم الجهل بحقيقة التَّوحيد، فهم مع إيمانهم بالله يشركون به غيره، باتّخاذهم شفعاء عنده، ووسطاء بينهم وبينه، قياساً على

معاملة ملوكهم المستبدّين، وأمرائهم الظّالمين، وهم لا يرضون لأنفسهم النّفاق في الدّين، ومخادعة الله والمؤمنين، والإصرار على الكذب والغشّ، ومقابلة هذا بوجه وذاك بوجه(١)، فلمّا كان المنافقون أسفل النّاس أرواحاً وعقولاً كانوا أجدر النّاس بالدَّرك الأسفل من النّار»(٢).

وهكذا يتّضح من الآية الكريمة: ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**﴾(٣)؛ لأنَّ «النّفاق في نظر الإسلام أشدّ أنواع الكفر، وإنَّ المنافقين أبعد الخلق من الله؛ ولهذا السَّبب فإنَّ مستقرّهم ومكانهم النّهائيّ في أحطّ نقطة من نقاط جهنم، وهم يستحقّون هذا العقاب؛ لأنَّ ما يلحق البشريّة من ويلات من جانب هؤلاء هو أشدّ خطراً من كلّ

---

(١) رُوِي عمار بن ياسر عن النّبيّ ﷺ: «من كان له وجهان في الدُّنيا كان له لسانان من نار يوم القيامة»، وعنه ﷺ: «تجدون من شرّ عباد الله يوم القيامة ذا الوجهين الَّذي يأتي هؤلاء بحديث هؤلاء وهؤلاء بحديث هؤلاء»، وفي حديث آخر: «الَّذي يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه»، وقيل: «مكتوب في التّوراة: بطلت الأمانة والرَّجل مع صاحبه بشفتين مختلفتين»، وقال ﷺ: «أبغض خلق الله إليه يوم القيامة الكذّابون والمستكبرون والَّذين يكثرون البغضاء لإخوانهم في صدورهم، فإذا لقوهم تخلّقوا لهم، والَّذين إذا دعوا إلى الله ورسوله كانوا بطاء، وإذا دعوا إلى الشيطان وأمره كانوا أسراعاً»، وروى الصّدوق بإسناده إلى عليّ عليه السلام قال: «قال رسول الله ﷺ يجيء يوم القيامة ذو الوجهين دالعاً لسانه في قفاه، وآخر من قدّامه يلهبان ناراً حتّى يلتهبان جسده، ثمّ يقال: هذا الَّذي كان في الدُّنيا ذا وجهين وذا لسانين يعرف بذلك يوم القيامة»، وبالإسناد إلى الباقر عليه السلام قال: «بئس العبد.. وعبد ذا وجهين وذا لسانين يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أعطى حسده وإن ابتلى خذله» ينظر: رسائل الشَّهيد الثّاني: ٣٠٨-٣٠٩.

(٢) تفسير المنار: ٤٧٤/٥.

(٣) النّساء: ١٤٥.

الأخطار، فإنَّ هؤلاء بسبب احتمائهم بظاهر الإيمان يحملون بصورة غادرة وبمطلق الحُرّيّة على المؤمنين العُزّل، ويطعنونهم من الخلف بخناجرهم المسمومة، وبديهيّ أن يكون حال أعداء- كهؤلاء- يظهرون بلباس الأصدقاء، أشدّ خطراً من الأعداء المعروفين الَّذين يعلنون عداوتهم صراحة، وفي الواقع فإنَّ النّفاق هو أسلوب وسلوك كلّ فرد أبتر ومنحطّ ومشبوه وجبان وملوّث بكلّ الخبائث ومن لا شخصيّة له»(١).

ثمَّ إنَّ موقعهم في الدَّرك الأسفل من النّار يوحي إلى مستوى سقطوهم العقليّ والنّفسيّ بل الرّوحي والأخلاقيّ كما يشير إلى مستوى خطورتهم على الإسلام والمسلمين، «ولعلَّ في هذا التّأكيد على موقع المنافقين في الدَّرك الأسفل من النّار، إيحاءً بأنَّ واقع النّفاق الَّذي يمثّل الكفر في الباطن والإيمان في الظّاهر، أكثر خطورةً من الكفر الظّاهر، لأنَّ هذا النَّوع من الاستخفاء بالإيمان الظّاهريّ يُمَكّن هؤلاء من الدُّخول إلى قلب المجتمع المسلم للاطّلاع على الثَّغرات الكامنة فيه، ممّا يفسح لهم في المجال للكيد والدّسّ والتَّخريب بأساليبهم الملتوية الَّتي قد يغفل عنها المسلمون؛ لأنَّهم يتحرّكون بينهم كجزء من مجتمعهم بحيث لا يشعر المسلمون بالحاجة إلى الحذر منهم، فيهيّئ لهم ذلك الفرصة الذّهبيّة لإرباك المجتمع الإسلامي في العمق بالفتنة والانحراف والإفساد

---

(١) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: ٥٠٩/٣.

باسم الإصلاح، ولذلك كانت خطورتهم تتحرّك في خطّين، بينما تتحرّك خطورة الكافرين المعلنين للكفر في خطّ واحد، هذا بالإضافة إلى ما يدلّ عليه النّفاق من انحطاط الشّخصيّة، وسقوط الأخلاق، والنّفسيّة المعقّدة»[١].

وممّا يلفت النّظر أكثر أنّ ذكر عذابات المنافقين جاء بعد أن أشار إلى الصّادقين الموفين بعهدهم أو المنتظرين للقاء ربهم في قوله تعالى: ﴿**مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا... لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ**﴾، ثمّ قال تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ...**﴾[٢].

وهنا إشارة صريحة إلى أنّ المنافقين يتّصفون بالكذب، ونقض العهد، والخيانة... ونتيجة اتّصافهم بهذه الصّفات الحقيرة، فعذابهم مستمرّ في الدّنيا والآخرة إلا أن يتوبوا ويقلعوا عن نفاقهم، ويصلحوا أنفسهم ويغيّروا مجالسهم، وإلا فمصيرهم إلى أشدّ العذاب ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ**﴾[٣].

كما أنّ عذاب المنافقين وعقوباتهم جاءت بعد عرض الأمانة على السّماوات، وعلى اختلاف أقوال المفسّرين في هذه الأمانة، وأشار إلى الولاية الإلهيّة، ولا شكّ أنّ قبول الولاية يستبطن المسؤوليّة، وبما أنّ

---

(١) تفسير من وحي القرآن: ٤٣٢/٤.

(٢) الأحزاب: ٢٣-٢٤.

(٣) الأحزاب: ٢٤.

المنافقين يتّصفون من جملة ما يتّصفون بأخبث صفتين هما الظُّلم والجهل، بكلّ أبعادهما، وعلى مختلف الصُّعد النَّفسيّة والفكريّة والأخلاقيّة الفرديّة والاجتماعيّة؛ ولذا لا يمكن للمنافقين أن يكونوا صادقين في ادّعاءاتهم بحمل تلك الأمانة الكبرى بصدق وتجرّد وإخلاص حتّى لو تظاهروا بحملها وادّعوها بألسنتهم؛ لأنَّ تلك الأمانة من أكبر العهود الإلهية، الَّتي ليس للظّالمين فيها نصيب أبداً أبداً، كما في قوله تعالى: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾[1]؛ لأنَّ «الظّالمين ليس لهم عند الله عهدٌ يعطيهم به خيراً، وإن كانوا قد يعاهدون في الدُّنيا، فيوفّي لهم»[2]، فعهد الله لا يمكن أن يوفّيه الظّالمون أو يبلغونه[3].

ومن هنا كانت عاقبتهم هي العذاب في الدُّنيا والآخرة: ﴿**لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ**﴾[4]؛ فهنا ظاهر أنَّ اللام في ﴿**لِيُعَذِّبَ**﴾ إمّا لام الغاية الَّتي تبيّن عاقبة الشّيء ونهايته، أو هي لام العلّة، والَّتي يمكن أنَّها تشير إلى علّة تعذيبهم لعدم التزامهم وتمسّكهم بموجبات الولاية الإلهية ولوازمها الَّتي حَمَّلَها الله لعباده الصّالحين.

ومن أسوأ ما في المنافقين هو سوء ظنّهم بالله تعالى، ولعلَّ سوء

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) مجمع البيان: ٣٧٧/١.

(٣) إشارة إلى الآية المباركة: ﴿**لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ**﴾.

(٤) الأحزاب: ٧٣.

الظّنّ هذا أقبح وأشنع من الكفر الصَّريح؛ وقد جاء النّصّ الشَّريف صريحاً واضحاً بشدّة عقاب المنافقين والمشركين بقوله: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ**﴾[(١)]، فقد يظنّ الإنسان سوءاً بإنسان مثله- وإن كان محرّماً إذا كان بغير حقّ- صديقاً كان أو عدواً، ولا يرتّب عليه أثراً سيّئاً، أمّا أن يظنّ بالله سوءاً- والعياذ بالله- فليس هناك حالة انحطاط وسقوط وانحدار في بؤرة الكفر بأشنع من هذه الحال؛ لأنَّه يأس من روح الله، وقنوط من رحمته، وانعدام للثّقة به تعالى، وافتقاد لرجائه عزَّ وجلَّ، وقد يكون سوء الظّنّ هذا: «أبلغ في الذّنب من اليأس والقنوط (وكلاهما كبيرة) وذلك لأنّه يأس وقنوط وزيادة، لتجويزه على اللّه تعالى أشياء لا تليق بكرمه وجوده»[(٢)].

وليس هناك درجة تبعد الإنسان عن الله من ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿**وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾[(٣)].

قال الفخر الرّازيّ: «واعلم أنّه قدّم المنافقين على المشركين في

---

(١) الفتح: ٦.

(٢) موسوعة نضرة النَّعيم: ٤٦٥٢/١٠-٤٦٥٣.

(٣) الفتح: ٦.

الذّكر في كثير من المواضع لأمور أحدها: أنَّهم كانوا أشدّ على المؤمنين من الكافر المجاهر؛ لأنَّ المؤمن كان يتوقّى المشرك المجاهر، وكان يخالط المنافق لظنّه بإيمانه، وهو كان يفشي أسراره، وإلى هذا أشار النّبيّ ﷺ بقوله: «أعدى عدوّك نفسك الَّتي بين جنبيك»، والمنافق على صورة الشَّيطان؛ فإنَّه لا يأتي الإنسان على أنّي عدوك، وإنَّما يأتيه على أنّي صديقك، والمجاهر على خلاف الشَّيطان من وجه؛ ولأن المنافق كان يظنّ أن يتخلّص للمخادعة، والكافر لا يقطع بأنَّ المؤمن إن غلب يفديه، فأوّل ما أخبر الله أخبر عن المنافق»[1].

فظنّهم السّيّئ بالله تعالى أسخط الله عليهم ووضعهم في دائرة السّوء، وعرَّضهم للعنته وغضبه تعالى، وجعلهم حصب جهنم الَّتي أعدّها لهم، وأوعدهم فيها كما قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ الله عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً**﴾[3].

ثمَّ إنَّ المنافقين يعيشون العذابَ النَّفسيّ بأقسى أشكاله وأشدّها؛ لأنَّهم دائماً يرزحون تحت وطأة الجهل والظّلم والتّذبذب والضّياع في

(١) التّفسير الكبير: ٢٨/٨٣-٨٤

(٢) التّوبة: ٦٨.

(٣) الفتح: ٦.

كواليس الظّلام، فالنّفاق في كلّ مفردات حياتهم، ويؤدّي إلى ظلام الرّوح والقلب والضّمير والوجدان؛ لأنَّ كلّ حركة من حركاتهم وسكناتهم قائمة على أساس متموّج لا يستقرّ على حال؛ ولذا ينقلهم نفاقهم من ظلام الجهل إلى ظلام الكفر، ومن ظلمات المكر والخداع والتَّحايل إلى ظلام التّخبّط والضّياع والتّذبذب، فهم يتخبّطون تخبّطاً عشوائيّاً «كحاطب ليل وغثاء سيل»، لا يدري ماذا يجمع أينفعه أم يضرّه.

ومسلكهم هذا لا يتوقّف في حدود الدُّنيا، بل يمتدّ بهم إلى الآخرة، ويلازمهم في القبر والبرزخ والمحشر إلى أن ينتهي بهم إلى الدَّرك الأسفل من النّار، ولعلَّ أروع صورة رسمها القرآن لهم في مشهد من مشاهد القيامة يوم ينطلق المؤمنون والمؤمنات إلى دار رحمة الله تعالى- عبر الصّراط الَّذي هو «أدقّ من الشّعر، وأحدّ من السّيف»[1]- نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم؛ لينير لهم الطَّريق إلى جنان الخلد الَّتي يتلقّون بشارتها من ملائكة الرَّحمة قائلين لهم: ﴿**بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[2].

وبينما هم منعمّون بأنوارهم الَّتي اكتسبوها في دار الدُّنيا من نور الإيمان والعلم والعمل لله وفي الله بمسيرهم المُنوّر بإشعاعات عقائدهم

(١) الكافي: ١٥/٧٠٠، ح/١٥٣٠١.

(٢) الحديد: ١٢.

السَّليمة، وأعمالهم الصّالحة، وأخلاقهم الكريمة، وسلوكهم القويم كما وصفهم تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ...**﴾[1].

يغمرهم السُّرور والفرح والحبور بالبشارة الكبرى: ﴿ **بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾.

وفي هذا المشهد العظيم الطّافح بالأنوار الإلهيّة، وإذا بالمنافقين والمنافقات حين يرون تلك الأنوار السّاطعة على وجوه نَظِرة مستبشرة برحمة الله، فتأخذهم الدَّهشة ويصيبهم الذُّهول من تلك الأنوار، فينادون المؤمنين نداء استغاثة: ﴿**انْظُرُونَا**[2] **نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ**﴾؛ لنلحق بكم، ونقتبس من أنواركم؛ لنسير معكم، فيأتيهم الجواب قاطعاً: ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾[3]؛ فإنَّ هذه الأنوار لا يتنوّر بها إلا المؤمنون العاملون بما أمر الله تعالى، والمنتهون عن نواهيه.. ثمّ يضرب بين الفريقين سورٌ حاجب لبعضهم عن البعض باطنه فيه الرّحمة، وظاهره من قبله العذاب الَّذي ينذر المنافقين بما ينتظرهم من سعير جهنم، وتغيّظها، وزفيرها، وشهيقها.

---

(١) الحديد: ١٢.

(٢) قيل معنى انظرونا يعني انتظرونا.

(٣) الحديد: ١٣.

ومن شدّة رعبهم يحاولون أن يجدوا سبيلاً للخلاص، فيقولون للمؤمنين: ﴿أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ﴾، فيأتيهم الجواب فوراً: بلى، كنتم معنا في الدُّنيا، ولكنّكم سلكتم طريق العذاب والشَّقاء الَّذي أوصلكم إلى حال هذا العذاب السّرمديّ، وكلّ ما وقعتم به هو من عقائدكم الفاسدة، وأعمالكم الفاضحة، وأخلاقكم السّيّئة، فقد فتنتم أنفسكم بالخداع والمكر والتَّحايل والكذب، وارتكبتم المعاصي والآثام مبرّرين لأنفسكم تلك المخالفات والجرائم، وكما غرَّتكم أنفسكم، فتربّصتم برسول الله ﷺ، وقلتم بأنَّه يوشك أن يموت فنستريح منه كما تآمرتم لقتله في العقبة، فأخزاكم الله بجريمتكم تلك؛ وكلّ ذلك لأنَّ نفوسكم المظلمة طفحت بالرَّيب والشّكّ، ولم تتيقّنوا بدين الله لا في عقيدة ولا حكم، بل كنتم في شك دائم في وعيد الله، وفي نبوّة محمد، وفي قيام السّاعة، ثمّ إنَّكم عشتم الأوهام والضلالات فـ﴿غَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾[1].

و«بالجملة قد ﴿غَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ﴾ والأهوية الفاسدة والآراء الباطلة مدى العمر، فانتظرتم بالمؤمنين ريب المنون، وقد كنتم أنتم على أمانيكم هذه وتطيّراتكم ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ الَّذي هو الموت، فمتّم منافقين مخادعين، وبالجملة قد ﴿غَرَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ الَّذي هو شياطين أمارتكم وأمانيكم وتسويلات نفوسكم وقواكم، وبعد ما قد وقع ما وقع ﴿فَالْيَوْمَ﴾ الَّذي تبلى السّرائر فيه لا ﴿يُؤْخَذُ مِنْكُمْ﴾ أيّها المنافقون

(١) الحديد: ١٤.

المخادعون فدْيَةٌ تفتدون بها؛ لتخليصكم من العذاب لا منكم أيّها المنافقون، ﴿وَلا مِنَ﴾ إخوانكم ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مجاهرين مصرّين على ما هم عليه بلا مبالاة بالدّين والدَّعوة، وبالجملة ﴿مَأْوَاكُمُ﴾ ومحل رجوعكم وقراركم اليوم جميعاً النَّارُ المعدّة المسعرة لكم»[1].

تلك نتائج عقائدكم الفاسدة وأخلاقكم السّيّئة، وأعمالكم المنكرة، وكنتم تتمنّون أن تُوقعوا المؤمنين في المهالك الهائلة بأحابيلكم، وكيدكم، ومكركم، فلا ينفعكم اليوم شيء أبداً تلك عواقب أعمالكم الشّائنة، فليس لكم اليوم مأوى إلا النّار؛ لأنَّ نفوسكم الآسنة لا تستحقّ إلا ذلك المأوى البئيس، ﴿فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[2].

تلك بعض صور الشّقاء والعذاب للمنافقين في الدنيا والآخرة، وهذا مصير كلّ من لا يسكن الجنّة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل: «يا كميل، من لا يسكن الجنّة فبشّره بعذاب أليم، وخزي مقيم، وأكبال ومقامع، وسلاسل طوال، ومقطّعات النّيران، ومقارنة كلّ شيطان. الشّراب صديد، واللّباس حديد، والخزنة فظظة، والنّار ملتهبة، والأبواب موثقة مطبقة، ينادون فلا يجابون ويستغيثون فلا يرحمون، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ * لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ

---

(١) الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: ٣٨٨/٢.

(٢) الحديد: ١٥.

أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[(١)]»[(٢)].

والحمد لله رَبِّ العالمين، وصلّى الله على محمَّد وآله الطّاهرين المعصومين.

اللّهمّ، طهر قلبي من النّفاق، وعملي من الرّياء، ولساني من الكذب، وعيني من الخيانة؛ فإنَّك تعلم خائنة الأعين، وما تخفي الصّدور.

النَّجف الأشرف

الجمعة

٣/ربيع الأول/١٤٤٦هـ

(١) الزّخرف: ٧٧-٧٨.

(٢) بحار الأنوار: ٢٧٦/٧٧.

المصادر والمراجع:

* القرآن الكريم، كتاب الله سبحانه وتعالى.

* أبو حفص الإسرائيليّ نموذج للقادة الدّواعش، (مقال) فوزية رشيد، موقع جريدة أخبار الخليج البحرينيّة.

* الاحتجاج، أحمد بن عليّ الطّبرسيّ (٦٢٠هـ)، دار النّعمان للطّباعة والنّشر، النّجف الأشرف، ١٣٨٦هـ ١٩٦٦م.

* أحكام القرآن، ابن العربي (٥٤٣هـ)، تحقيق علي محمّد بجاوي، دار الجيل، لبنان، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ

* إرشاد القلوب، الحسن بن محمدّ الدّيلميّ، انتشارات الشّريف الرّضيّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤١٥هـ

* الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد، الشّيخ المفيد (٤١٣هـ)، نشر وتحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

* أسباب نزول الآيات، الواحدي النّيسابوريّ (٤٦٨هـ)، مؤسسة الحلبي وشركاه للنشر والتوزيع - القاهرة، ١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.

* الاستشراق، المعرفة السّلطة الإنشاء، إدوارد و. سعيد، نقله إلى العربيّة كمال أبو ديب، دار الكتاب الإسلاميّ، قم- إيران، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٤م.

* أسد الغابة، عزّ الدّين ابن الأثير (٦٣٠هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان.

* الاشتقاق، أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ)، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، منشورات ذوي القربى، إيران، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٣٤هـ

* أضواء على السُّنّة المحمّديّة، أو دفاع عن الحديث، محمود أبو ريّة، نشر البطحاء، مؤسسة مطبوعاتي إسماعيليان، إيران، قم، الطّبعة الخامسة.

* الاعتقادات، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، تحقيق وتعليق: مؤسّسة الإمام الهادي عليه السلام، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٥هـ

* إعلام الورى بأعلام الهدى، الشّيخ الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم المشرّفة، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ

* الأعمال الكاملة طه حسين، مؤسّسة هنداوي للتّعليم والثّقافة.

* أعيان الشّيعة، الإمام السّيّد محسن الأمين (١٣٧١هـ)، حقّقه وأخرجه: حسن الأمين، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت.

* إغاثة اللّهفان في مصايد الشّيطان، ابن القيّم الجوزيّة (٧٥١هـ)، حقّقه: محمّد عزيز شمس، دار عطاءات العلم، الرّياض، الطّبعة الثّالثة، ١٤٤٠هـ ٢٠١٩م.

* الأغاني، أبو الفرج الأصفهانيّ (٣٥٦هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت.

* الأمالي، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، تحقيق ونشر: قسم الدّراسات الإسلاميّة، مؤسّسة البعثة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ

* الإمامة تلك الحقيقة القرآنيّة، الدّكتور زهير بيطار، دار السّيرة،

بيروت، ١٤٢٢هـ

* الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشّيخ ناصر مكارم الشّيرازيّ، د.ت، بلا ناشر.

* الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، مركز الرّسالة، قم، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

* أين سنّة الرّسول وماذا فعلوا بها، المحامي أحمد حسين يعقوب، بلا ناشر، د.ت.

* بحار الأنوار، المحدّث الشّيخ محمّد باقر المجلسيّ (١١١١هـ)، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الرّابعة، ١٣٦٢هـ ش.

* البداية والنّهاية، ابن كثير الدّمشقيّ (٧٧٤هـ)، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

* تاج العروس، مرتضى الزّبيديّ (١٢٠٥هـ)، تحقيق: علي شيري، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، ١٤١٤هـ ١٩٩٤م.

* تاريخ ابن خلدون، ابن خلدون (٨٠٨هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الرّابعة.

* تاريخ الإسلام ووفيّات المشاهير والأعلام، الحافظ شمس الدّين محمّد بن أحمد الذّهبيّ (٧٤٨هـ)، تحقيق: الدّكتور عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

* تاريخ الخميس في أحوال أنفس النّفيس، الشّيخ حسين الرّيار بكري (٩٦٦هـ)، دار صادر، بيروت.

* تاريخ الطّبريّ، تاريخ الأمم والملوك، أبو جعفر محمّد بن جرير

الطّبريّ (٣١٠هـ)، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار التّراث، بيروت.

* تاريخ مدينة دمشق، ابن عساكر (٥٧١هـ)، دراسة وتحقيق: محبّ الدّين العمرويّ، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

* التّبيان في تفسير القرآن، شيخ الطّائفة الطّوسيّ (٤٦٠هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان.

* تحف العقول عن آل الرّسول، ابن شعبة الحرّانيّ، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاريّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطَّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ.

* التَّحقيق في كلمات القرآن الكريم، المحقّق المفسّر العلامة المصطفويّ، مركز نشر آثار العلامة المصطفويّ، القاهرة، لندن، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطَّبعة الثّالثة، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

* تذكرة الحفّاظ، شمس الدّين الذّهبيّ (٧٤٨هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان.

* تذكرة الخواصّ من الأمّة بذكر خصائص الأئمّة، سبط ابن الجوزي (٦٥٤هـ)، تحقيق: حسين تقي زاده، المجمّع العالميّ لأهل البيت عليهم السلام، الطّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ.

* تسنيم في تفسير القرآن، العلامة الشّيخ عبد الله الجواديّ الآمليّ، دار الإسراء للطّباعة والنّشر، بيروت، الطَّبعة الثّانية.

* تصنيف غرر الحكم ودرر الكلم، عبد الواحد الآمديّ، المحقّق: مصطفى الدّرايتي، مكتب الإعلام الإسلاميّ، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى.

* تفسير ابن عربي، ابن عربي (٦٣٨هـ)، ضبطه وصحّحه: عبد الوارث

محمّد علي، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

* تفسير أبي السّعود، أبو السّعود محمّد بن محمّد العماديّ (٩٥١هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان.

* تفسير البحر المحيط، أثير الدّين محمّد بن يوسف بن عليّ بن يوسف، أبو حيّان الأندلسيّ (٧٤٥هـ)، حقّق أصوله وعلّق عليه وخرّج أحاديثه: د.عبد الرّزّاق المهدي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطَّبعة الأولى.

* تفسير جوامع الجامع، الشّيخ الطّبرسيّ (٥٤٨هـ)، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ

* تفسير العياشيّ، محمّد بن مسعود العيّاشيّ (٣٢٠هـ)، تحقيق: الحاجّ السّيّد هاشم الرّسوليّ المحلاتيّ، المكتبة العلميّة الإسلاميّة- طهران.

* تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٧٤هـ)، قدّم له: الدّكتور يوسف عبد الرّحمن المرعشليّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

* تفسير القرآن العظيم، عبد الرّحمن بن محمّد الرّازيّ (ابن أبي حاتم) (٣٢٧هـ)، تحقيق: أسعد محمّد الطّيّب، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢٤هـ ٢٠٠٣م.

* تفسير القرآن الكريم، صدر المتألّهين صدر الدّين الشّيرازيّ، انتشارات بيدار، قم، الطّبعة الثّانية.

* تفسير القمّيّ، عليّ بن إبراهيم القمّيّ، تحقيق ونشر: مؤسّسة الإمام المهديّ عجّل الله تعالى فرجه الشّريف، قم المقدّسة، الطّبعة الأولى، ١٤٣٥هـ

* التّفسير الكاشف، الشّيخ محمّد جواد مغنية، دار الأنوار، بيروت،

الطّبعة الرّابعة.

* التّفسير الكبير، الفخر الرّازيّ، الطّبعة الثّالثة، بلا ناشر.

* تفسير المراغيّ، أحمد مصطفى المراغيّ، دار الفكر، د.ت.

* تفسير المنار، محمّد رشيد رضا، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

* تفسير من وحي القرآن، العلامة المرجع السّيّد محمّد حسين فضل الله، دار الملاك، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٩هـ ٢٠١٨م.

* تفصيل النّشأتين وتحصيل السّعادتين، الرّاغب الأصفهانيّ (٥٠٢هـ)، مؤسّسة دار الهجرة، قم، إيران، الطّبعة الأولى.

* تفصيل وسائل الشّيعة إلى تحصيل مسائل الشّريعة، الشّيخ محمّد بن الحسن الحرّ العامليّ (١١٠٤هـ)، تحقيق: مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التّراث، قم المشرّفة، الطَّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ

* تقييد العلم، أبو بكر الخطيب البغداديّ (٤٦٣هـ)، تحقيق: يوسف العشّ، دار إحياء السّنّة النّبويّة، الطّبعة الثّانية، ١٩٧٤م.

* تنبيه الغافلين عن فضائل الطّالبيّين، المحسن بن كرامة (٤٩٤هـ)، تحقيق: السّيّد تحسين آل شبيب الموسويّ، مركز الغدير للدّراسات الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ٢٠٠٠م.

* تهذيب اللّغة، أبو منصور محمّد بن أحمد الأزهريّ (٣٧٠هـ)، الدّار المصريّة للتّأليف والتّرجمة، حقّقه وقدّم له: عبد السّلام محمّد هارون.

* التّوحيد، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: السّيّد هاشم الحسينيّ الطّهرانيّ، مؤسسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم

المشرّفة، ١٣٩٨هـ

* ثواب الأعمال وعقاب الأعمال، الشَّيخ الصَّدوق (٣٨١هـ)، منشورات الشّريف الرّضيّ، قم، الطّبعة الثّانية، ١٣٦٨ هـ ش.

* الجامع لأحكام القرآن، محمّد بن أحمد القرطبيّ، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

* جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمّد بن جرير الطّبريّ (٣١٠هـ)، ضبط وتوثيق وتخريج: صدقي جميل العطّار، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت- لبنان، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

* الحدائق النّاضرة في أحكام العترة الطّاهرة، المحقّق الشّيخ يوسف البحرانيّ، حقّقه وعلّق عليه: محمّد تقي الإيروانيّ، دار الأضواء، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

* الحرب النّفسيّة في الوطن العربيّ، د.حامد ربيع، دار واسط للدّراسات والنّشر والتّوزيع، بغداد، ١٩٨٩م.

* حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهانيّ (٤٣٠هـ)، دار أمّ القرى للطّباعة والنّشر، القاهرة.

* خصائص الوحي المبين، ابن البطريق (٦٠٠هـ)، تحقيق: الشّيخ مالك المحموديّ، دار القرآن الكريم، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ

* الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور، جلال الدّين السّيوطيّ (٩١١هـ)، دار المعرفة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان.

* الدّعوات (سلوة الحزين)، قطب الدّين الرّاونديّ (٥٧٣هـ)، تحقيق ونشر: مدرسة الإمام المهديّ عليه السلام، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ

* ديوان دعبل الخزاعيّ، شرح وضبط: ضياء حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٧هـ ١٩٩٧م.

* رسائل ابن حزم الأندلسيّ (٤٥٦هـ)، تحقيق: الدّكتور إحسان عبّاس، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، بيروت، الطّبعة الثّانية.

* رسائل الشَّهيد الثّاني (٩٦٥هـ)، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

* الرّسائل والمسائل، الشّريف المرتضى (٤٣٦هـ)، تحقيق: عدة من المحقّقين، مؤسّسة الطّبع والنّشر التّابعة للآستانة الرّضويّة المقدّسة، مشهد، الطّبعة الأولى، ١٤٤٢هـ

* روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسَّبع المثاني، العلامة أبو الفضل شهاب الدّين السّيّد محمود الآلوسي البغداديّ (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت.

* الرّوض الأنف في شرح السّيرة النّبويّة، عبد الرّحمن السّهيليّ (٥٨١هـ)، تحقيق: عبد الرّحمن الوكيل، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.

* روضة المتّقين في شرح من لا يحضره الفقيه، الشّيخ محمّد تقي المجلسيّ (١٠٧٠هـ)، بنياد فرهنگ إسلامي، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ

* روضة الواعظين، محمّد بن الفتّال النّيشابوريّ (٥٠٨هـ)، تحقيق: غلامحسين المجيديّ، مجتبى الفرجيّ، انتشارات دليل ما، قم، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ

* روض الجنان وروح الجنان في تفسير القرآن، أبو الفتوح الرّازيّ، بنياد پژوهشهاى اسلامى آستان قدس رضوى، ١٣٧١هـ ش.

* زاد المسير في علم التّفسير، عبد الرّحمن بن عليّ بن محمّد الجوزيّ (٥٩٧هـ)، حقّقه وكتب هوامشه: محمّد بن عبد الرّحمن، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

* زاد المعاد في هدي خير العباد، ابن القيّم الجوزيّة (٧٥١هـ)، تحقيق: مجموعة من المحقّقين، دار عطاءات العلم، الرّياض، دار ابن حزم، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٤٠هـ ٢٠١٩م.

* الزّاهر في معاني كلمات النّاس، أبو بكر محمّد بن القاسم بن الأنباريّ (٣٢٧هـ)، حقّقه: الشّربيني شريدة، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

* الزّهد، أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، وضع حواشيه: محمّد عبد السّلام شاهين، منشورات: محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ ١٩٩٩م.

* الزّهد، الحسين بن سعيد الكوفيّ، تحقيق ميرزا غلامرضا عرفانيان، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٢هـ

* سنن ابن ماجة، محمّد بن يزيد القزويني (٢٧٥هـ)، تحقيق وترقيم وتعليق: محمّد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع.

* سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السّجستانيّ (٢٧٥هـ)، تحقيق: سعيد محمّد اللّحّام، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

* سنن التّرمذيّ (الجامع الصّحيح)، محمّد بن عيسى التّرمذيّ (٢٧٩هـ)، تحقيق: أحمد محمّد شاكر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي

الحلبيّ وأولاده.

* السّنن الكبرى، أبو عبد الرّحمن أحمد بن شعيب النّسائيّ (٣٠٣هـ)، تحقيق: الدّكتور عبد الغفار سليمان البنداريّ وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

* سير أعلام النّبلاء، شمس الدّين محمّد الذّهبيّ (٧٤٨هـ)، أشرف على تحقيقه: شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، دمشق، الطّبعة التّاسعة، ١٤١٣هـ ١٩٩٣م.

* السّيرة الحلبيّة، الحلبيّ (١٠٤٤هـ)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ

* السّيرة النّبويّة، ابن كثير (٧٧٤هـ)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار الرّائد العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

* السّيرة النّبويّة، ابن هشام الحميريّ (٢١٨هـ)، تحقيق: محمّد محيي الدّين عبد الحميد، مكتبة محمّد علي صبيح وأولاده بمصر، ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م.

* شرح أصول الكافي، المولى محمّد صالح المازندرانيّ (١٠٨٩هـ)، مع تعاليق الميرزا أبو الحسن الشّعرانيّ، المكتبة الإسلاميّة، طهران.

* شرح مائة كلمة لأمير المؤمنين عليه السلام، ابن ميثم البحرانيّ (٦٧٩هـ)، تصحيح وتعليق: مير جلال الدّين الحسينيّ الأرمويّ المحدّث، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة.

* شرح نهج البلاغة، ابن أبي الحديد، تحقيق: محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

* شرح نهج البلاغة، ابن ميثم البحرانيّ (٦٧٩هـ)، مركز التّبليغات الإسلاميّة، قم، ١٣٦٢هـ

* شعب الإيمان، أبو بكر البيهقيّ (٤٥٨هـ)، تحقيق: أبو هاجر محمّد السّعيد بن بسيوني زغلول، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

* الصّحاح، تاج اللُّغة وصحاح العربيّة، إسماعيل بن حمّاد الجوهريّ (٣٩٣هـ)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطّار، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

* صحيح ابن حبّان، علاء الدين علي بن بلبان الفارسيّ (٧٣٩هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ ١٩٩٣م.

* صحيح البخاريّ، أبو عبد الله محمّد بن إسماعيل البخاريّ (٢٥٦هـ)، دار الفكر للطّباعة والنّشر والتّوزيع، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

* صحيح مسلم، مسلم النّيسابوريّ (٢٦١هـ)، دار الفكر، بيروت، لبنان.

* صحيفة الإمام، تراث الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ، مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخمينيّ قُدِّسَ سِرُّهُ، الشّؤون الدّوليّة، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ ٢٠٠٩م.

* الصّحيفة السّجاديّة الكاملة، من إنشاء الإمام عليّ بن الحسين زين العابدين عليه السلام، بتحقيق وتنسيق: علي أنصاريّان، سفارة الجمهوريّة الإسلاميّة الإيرانيّة، دمشق، ١٤١٩هـ ١٩٩٩.

* طبقات الحنابلة، محمّد بن أبي يعلي (٥٢١هـ)، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

* الطّفل بين الوراثة والتّربية، محمّد تقي فلسفي، تعريب: فاضل الحسينيّ الميلانيّ، دار التّعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

* ظاهرة النّفاق وخبائث المنافقين في التّأريخ، عبد الرّحمن حسن

حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، الطّبعة الثانية، ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م.

* عقيدة المسيح الدّجّال في الأديان، سعيد أيّوب، دار الهادي، بيروت، لبنان، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

* عدّة الدّاعي ونجاح السّاعي، أحمد بن فهد الحلّيّ (٨٤١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: أحمد الموحّديّ القمّيّ، مكتبة وجداني، قم.

* علل الشّرائع، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، منشورات المكتبة الحيدريّة ومطبعتها في النّجف الأشرف، ١٣٨٥هـ ١٩٦٦م.

* علوم القرآن (التّعرّف على القرآن)، دار الإرشاد، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٣٨هـ ٢٠١٧م.

* عوالي اللآلي العزيزيّة في الأحاديث الدّينيّة، ابن أبي جمهور الإحسائيّ، تحقيق: مجتبى العراقيّ، مطبعة سيّد الشّهداء، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.

* عيون أخبار الرّضا عليه السلام، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، تصحيح وتعليق: الشّيخ حسين الأعلميّ، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ١٤٠٤هـ ١٩٨٤م.

* الفائق في غريب الحديث، جار الله محمود بن عمر الزّمخشريّ (٥٣٨هـ)، وضع حواشيه: إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م.

* الفتوحات المكّيّة، ابن عربي (٦٣٨هـ)، دار صادر، بيروت، لبنان.

* فرائد السّمطين في فضائل المرتضى والبتول والسّبطين والأئمّة من ذرّيّتهم عليهم السلام، إبراهيم بن سعد الدّين الشّافعيّ (٧٣٠هـ)، تحقيق: الشّيخ محمّد

باقر المحموديّ، مؤسّسة المحمود، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٩٨هـ ١٩٧٨م.

* الفروق اللّغويّة، أبو هلال العسكريّ (٣٩٥هـ)، تحقيق: د. مصطفى عبد العليم، سعد محمّد حمودة، انتشارات طليعة نور، قم، ١٤٣٧هـ

* الفصل في الملل والأهواء والنّحل، ابن حزم (٤٥٦هـ)، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣١٧هـ

* الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة، الشّيخ نعمة الله بن محمود النّخجوانيّ (٩٢٠هـ)، دار ركابي للنّشر، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٩٩٩م.

* في ظلال القرآن، سيّد قطب، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة السّابعة، ١٣٩١هـ ١٩٧١م.

* في ظلال نهج البلاغة، محمّد جواد مُغنيّة، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٧٩م.

* القاموس المحيط، مجد الدّين محمّد بن يعقوب الفيروزآباديّ (٨١٧هـ)، قدّم له وكتب حواشيه: الشّيخ أبو الوفا نصر الهوريني (١٢٩١هـ)، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٧م.

* قراءة تحليليّة ناقدة في التّصوّرات القرآنيّة عند سروش في مدوّنه (بسط التّجربة النّبويّة)، الأستاذ الدّكتور سيروان عبد الزّهرة الجنابيّ، دار حدود للنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٤٢هـ ٢٠٢١م.

* الكافي، ثقة الإسلام محمّد بن يعقوب الكليني (٣٢٩هـ)، تحقيق ونشر: قسم إحياء التّراث، مركز بحوث دار الحديث، قم، الطّبعة الثّالثة، ١٤٣٤هـ

* الكامل في التّأريخ، عزّ الدّين أبو الحسن عليّ بن أبي الكرم

المعروف بابن الأثير، دار صادر، دار بيروت، بيروت، ١٣٨٥هـ ١٩٦٥م.

* كتاب الخصال، الشّيخ الصّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاريّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، قم المقدّسة، ١٤٠٣هـ

* كتاب السّنّة، أبو عبد الرّحمن أحمد بن حنبل (٢٩٠هـ)، تحقيق ودراسة: الدّكتور محمّد سعيد بن سالم القحطانيّ، دار ابن القيّم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

* كتاب المبسوط، شمس الدّين السّرخسيّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

* كتاب المحاسن، أبو جعفر أحمد بن محمّد البرقيّ، تصحيح وتعليق: السّيّد جلال الدّين الحسينيّ، دار الكتب الإسلاميّة، طهران، ١٣٧٠هـ

* كتاب المغازي، محمّد بن عمر بن واقد الواقديّ، تحقيق: الدّكتور مارسدن جونس، نشر دانش إسلاميّ، ١٤٠٥هـ

* كتاب من لا يحضره الفقيه، الشّيخ أبو جعفر الصَّدوق (٣٨١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفاريّ، منشورات جماعة المدرّسين في الحوزة العلميّة، في قم المقدّسة.

* كتاب الوافي، الفيض الكاشانيّ، التّحقيق والتّعليق والتّصحيح والمقابلة مع الأصل: ضياء الدّين الحسينيّ، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام، أصفهان، إيران، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ

* الكشّاف عن حقائق غوامض التّنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التّأويل، محمود بن عمر الزّمخشري (٥٢٨هـ)، رتّبه وضبطه وصحّحه: مصطفى

حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

* الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الثّعلبيّ (٤٢٧هـ)، تحقيق: الإمام أبو محمّد بن عاشور، دار إحياء التّراث العربيّ، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠٢م.

* كنز العرفان في فقه القرآن، المقداد السّيوريّ (٨٢٦هـ)، تحقيق وتعليق: الشّيخ محمّد باقر شريف زاده، والشّيخ محمد باقر البهبوديّ، المكتبة الرّضويّة، طهران، ١٣٨٤هـ

* كنز العمّال في سنين الأقوال والأفعال، المتّقي الهنديّ (٩٧٥هـ)، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.

* لسان العرب، ابن منظور (٧١١هـ)، نشر أدب الحوزة، قم، إيران، ١٤٠٥هـ

* لغة المنافقين في القرآن، الدّكتور عبد الفتّاح لاشين، دار الرّائد العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ ١٩٨٥م.

* المتظاهرون بالإسلام، طلائع الاختراق الغربيّ ١٥٠٣-١٩٦٠م، حسن السَّعيد، دار الهادي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٨هـ ٢٠٠٧م.

* المجازات النّبويّة، الشّريف الرّضيّ (٤٠٦هـ)، تحقيق: طه محمّد الزّينيّ، منشورات مكتبة بصيرتي، قم.

* مجمع الأمثال، أبو الفضل أحمد بن محمّد النّيسابوريّ الميدانيّ (٥١٨هـ)، المعاونيّة الثّقافيّة للآستانة الرّضويّة المقدّسة، ١٣٦٦هـ ش.

* مجمع البحرين، الشّيخ فخر الدّين الطّريحيّ (١٠٦٥هـ)، تحقيق: السّيّد أحمد الحسينيّ، المكتبة المرتضويّة، طهران، ١٣٦٢هـ ش.

* مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطّبرسيّ، تحقيق: لجنة من العلماء، منشورات مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

* مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، الحافظ عليّ بن أبي بكر الهيثميّ (٨٠٧هـ)، دار الكتاب العربيّ، بيروت، لبنان، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٢هـ ١٩٨٢م.

* المحجّة البيضاء في تهذيب الإحياء، الفيض الكاشانيّ (١٠٩١هـ)، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر الغفّاريّ، مؤسّسة النّشر الإسلاميّ التّابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرّفة، الطّبعة الثّانية.

* المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد ابن عطيّة الأندلسيّ (٥٤٦هـ)، تحقيق: عبد السّلام عبد الشّافي محمّد، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

* المحكم والمحيط الأعظم، أبو الحسن عليّ بن إسماعيل بن سيده (٤٥٨هـ)، تحقيق: الدّكتور عبد الحميد هنداوي، منشورات محمّد علي بيضون، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

* المحلّى، أبو محمّد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم (٤٥٦هـ)، دار الفكر، بيروت.

* المدوّنة الكبرى، الإمام مالك بن أنس (١٧٩هـ)، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، لبنان.

* مرآة العقول في شرح أخبار آل الرّسول، العلامة محمّد باقر المجلسيّ (١١١١هـ)، مقابلة وتصحيح: هاشم الرّسولي المحلاتيّ، دار الكتب

الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ

* مسالك الأفهام إلى آيات الأحكام، الجواد الكاظميّ، علّق عليه وأخرج أحاديثه: الشَّيخ محمد باقر شريف زاده، المكتبة المرتضويّة لإحياء الآثار الجعفريّة.

* المستدرك على الصّحيحين، الحاكم النّيسابوريّ، بإشراف: الدّكتور يوسف عبد الرّحمن المرعشليّ، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

* مسند أبي يعلي، الحافظ أحمد بن عليّ بن المثنى التّميميّ الموصليّ (٣٠٧هـ)، تحقيق: حسين سليم أسد، دار المأمون للتّراث، دمشق.

* مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، تحقيق: جمع من المحقّقين بإشراف: الشّيخ شعيب الأرنؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت.

* مصباح المتهجّد، الشّيخ الطّوسي، مؤسّسة فقه الشّيعة، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ ١٩٩١م.

* المصباح المنير، المُقْري الفيّوميّ (٧٧٠هـ)، منشورات دار الهجرة، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ

* مصنّف ابن أبي شيبة في الأحاديث والآثار، الحافظ عبد الله بن محمّد بن أبي شيبة الكوفيّ العبسيّ (٢٣٥هـ)، ضبطه وعلّق عليه: الأستاذ سعيد اللّحّام، دار الفكر.

* المصنّف، الحافظ أبو بكر عبد الرّزّاق بن همام الصّنعانيّ (٢١١هـ)، عُنِيَ بتحقيق نصوصه وتخريج أحاديثه: حبيب الرّحمن الأعظميّ.

* معارج نهج البلاغة، أبو الحسن عليّ بن زيد البيهقيّ، حقّقه وقدّم له: محمّد تقي دانش پژوه، مكتبة آية الله العظمى المرعشيّ النَّجفيّ - قم

المقدّسة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ

* معاني القرآن وإعرابه، أبو إسحاق إبراهيم بن السّري الزّجّاج (٣١١هـ)، شرح وتحقيق: الدّكتور عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م.

* المعجم الأوسط، الحافظ الطّبرانيّ (٣٦٠هـ)، تحقيق: طارق بن عوض الله، عبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين للطّباعة والنّشر والتّوزيع، القاهرة، ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

* المعجم في فقه لغة القرآن وسرّ بلاغته، تأليف وتحقيق: قسم القرآن بمجمّع البحوث الإسلاميّة، بإشراف: الأستاذ محمّد واعظ زاده الخراسانيّ، مجمّع البحوث الإسلاميّة، مشهد، الطّبعة الثّانية.

* المعجم الكبير، الحافظ أبو القاسم سليمان بن أحمد الطّبرانيّ (٣٦٠هـ)، حقّقه وخرج أحاديثه: حمدي عبد المجيد السّلفي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت.

* معجم مقاييس اللّغة، أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريّا (٣٩٥هـ)، بتحقيق وضبط: عبد السّلام محمّد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م.

* المعجم الوسيط، قام بإخراجه: إبراهيم مصطفى، أحمد حسن الزّيّات، حامد عبد القادر، محمّد عليّ النّجّار، دار الدّعوة، استانبول، تركية، ١٩٨٩م.

* معدن الجواهر ورياضة الخواطر، أبو الفتح الكراجكيّ (٤٤٩هـ)، تحقيق: السّيّد أحمد الحسينيّ، مطبعة: مهر استوار، قم، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٤هـ

* مفردات ألفاظ القرآن، الرّاغب الأصفهانيّ (٥٠٢هـ)، الأميرة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

* مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام وما نزل من القرآن في عليّ عليه السلام، الإمام أبو بكر أحمد بن موسى ابن مَردويه الإصفهانيّ (٤١٠هـ)، جَمَعه ورتّبه وقدّم له: عبد الرّزّاق محمّد حسين حرز الدّين، دار الحديث، قم، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٢هـ

* منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة، الميرزا حبيب الله الخوئيّ، المكتبة الإسلاميّة، طهران، الطّبعة الرّابعة.

* منهاج السّنّة النّبويّة، أبو العبّاس تقيّ الدّين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: الدّكتور محمّد رشاد سالم، جامعة الإمام محمّد بن سعود الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ ١٩٨٦م.

* مواهب الرَّحمن في تفسير القرآن، السّيّد عبد الأعلى الموسويّ السَّبزواريّ، مؤسّسة أهل البيت عليهم السلام، بيروت - لبنان، الطَّبعة الثّانية، ١٤٠٩هـ ١٩٨٨م.

* موسوعة ابن إدريس الحليّ، إعداد: مكتبة الرّوضة الحيدريّة، منشورات دليل ما، قم، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ

* موسوعة الإمام محمَّد الحسين آل كاشف الغطاء، الآثار الفقهيّة، المعهد العالي للعلوم والثّقافة الإسلاميّة، مركز إحياء التّراث الإسلاميّ، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤٤١هـ ٢٠١٩م.

* موسوعة الفقه الإسلاميّ طبقاً لمذهب أهل البيت عليهم السلام، تأليف ونشر: مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلاميّ، قم، الطّبعة الأولى.

* موسوعة نضرة النَّعيم في مكارم أخلاق الرّسول ﷺ، إعداد مجموعة من المختصّين بإشراف: صالح بن عبد الله بن حُمَيد، وعبد الرّحمن بن محمّد، دار الوسيلة، جدّة.

* ميزان الحكمة، محمد الرَّيشهريّ، دار الحديث، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، الطَّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ ٢٠٠١م.

* الميزان في تفسير القرآن، العلامة السّيّد محمّد حسين الطّباطبائيّ، مؤسّسة مطبوعاتي إسماعيليّان، الطّبعة الثّالثة، ١٣٩٣هـ ١٩٧٣م.

* النَّدوة، سلسلة ندوات الحوار الأسبوعيّة بدمشق، السّيّد محمّد حسين فضل الله، إعداد: عادل القاضي، دار الملاك.

* نزهة النّظر في غريب النّهج والأثر، عادل عبد الرَّحمن البدريّ، مؤسّسة المعارف الإسلاميّة، قم، الطّبعة الأولى ١٤٢١هـ

* النّفاق الاجتماعي وأثره على العلاقات الإنسانيّة (دراسة ميدانيّة)، أ.د. يوسف عناد زامل، مجلة واسط، العدد ١٤، سنة ٢٠١٨.

* النّفاق المفهوم التّأريخ وأثره في سياسة اليهود، فاضل محمّد السّودانيّ، منشورات المحبّين، الطّبعة الأولى ١٤٣٣هـ ٢٠١٢م.

* النّفاق والانتهازيّة، محمَّد خالد الصبيحيّ، مقال على الشّبكة العنكبوتيّة.

* النّفاق والمنافقون في عهد رسول الله ﷺ، إبراهيم علي سالم، مطبعة حسني، د.ت.

* نهاية الأرب في فنون الأدب، شهاب الدّين أحمد بن عبد الوهّاب النّويريّ (٧٣٣هـ)، وزارة الثّقافة والإرشاد القوميّ، المؤسّسة المصريّة العامّة

للتّأليف والتّرجمة والطّباعة والنّشر.

* النّهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير (٦٠٦هـ)، تحقيق: طاهر أحمد الزّاويّ، محمود محمّد الطناحيّ، مؤسّسة إسماعيليّان، قم، الطَّبعة الرّابعة.

* نهج البلاغة، المختار من كلام أمير المؤمنين عليه السلام، لجامعه: الشّريف الرّضيّ (٤٠٦هـ)، تحقيق: السّيّد هاشم الميلانيّ، العتبة العبّاسيّة المقدّسة، كربلاء المقدسة، ١٤٣٢هـ ٢٠١١م.

* نهج السّعادة في مستدرك نهج البلاغة، الشّيخ محمّد باقر المحموديّ (١٤٢٧هـ)، تصحيح: عزيز آل طالب، وزارة الثّقافة والإرشاد الإسلاميّ، طهران، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ

الفهرست:

مقدّمة... ٧

تمهيد في مخاطر النّفاق.. ١١

الفصل الأول: معنى النّفاق وأسبابه.. ٢١

معنى النّفاق.. ٢١

أسباب النّفاق وعلله... ٢٤

الفصل الثّاني: دعائم النّفاق... ٣١

الدّعامة الأولى: الهوى.. ٣٤

الدّعامة الثّانية: الهوينا... ٤١

الدّعامة الثّالثة: الحفيظة... ٤٥

الدّعامة الرّابعة: الطّمع... ٥٠

الفصل الثّالث: من صفات المنافقين.................................... ٥٩

الصّفة الأولى: موالاة أعداء الله.. ٦١

الصّفة الثّانية: المصلحيّة والنّفعيّة.. ٧١

الصّفة الثّالثة: المخادعة.. ٧٧

لماذا يخادع المنافقون؟...٨٥
الصّفة الرّابعة: الطمع في الحصول على الغنائم..........................٨٨
الصّفة الخامسة: انعدام التّوجّه الصّادق إلى الله تعالى في العبادات.......٩٠
الصّفة السّادسة: الحيرة والتّردّد والاضطراب والتّذبذب.....................٩٣
الصّفة السّابعة: المنافقون شرٌّ مطلقٌ...٩٦
الصّفة الثّامنة: الادّعاءات الجوفاء الفارغة..................................١٠٥
الصّفة التّاسعة: مرضى القلوب..١١١
الصّفة العاشرة: التّفنّن في أساليب الكيد والمكر والتحايل...............١٢٥
الصّفة الحادية عشرة: السَّعي المتواصل لنشر الفساد......................١٣١
الصّفة الثّانية عشرة: التّستّر بالإيمان واتّخاذه جنّة لإخفاء قبائحهم......١٤٢
الصّفة الثالثة عشرة: المنافق حلاف مهين.....................................١٤٥
كراهة الحلف...١٤٦
الصّفة الرّابعة عشرة: الجشع والشّره..١٥٨
الصّفة الخامسة عشرة: عدم الوفاء بعهد ولا ميثاق..........................١٦١
الصّفة السّادسة عشرة: المنافق همّاز لمّاز عيّاب طعّان....................١٧١

الفصل الرّابع: من قبائح المنافقين...١٧٥
قل أذن خير لكم..١٧٥
المنافقون يقبحون سراً ويعتذرون علناً..١٨١

المنافقون نسيج واحد متعدّد الألوان..١٨٥

الفصل الخامس: جهاد المنافقين..٢٠١

المواقف العمليّة من حركة المنافقين...٢٠٧

الفصل السّادس: طبيعة نفوس المنافقين..................................٢١٧

نفوس المنافقين غير قابلة للتّطهير..٢١٧

المنافقون عبيد الأهواء والشّهوات..٢٢٢

أخبث مسالك المنافقين...٢٢٨

الفصل السّابع: المنافقون في بيان أمير البلاغة والبيان عليّ عليه السلام٢٤٧

صفات المنافقين في تنفيذ مخطّطاتهم...٢٤٨

الصفات الباطنيّة للمنافقين في كلام علي عليه السلام.....................................٢٥٦

الفصل الثّامن: حركة النّفاق في عصر النّبوّة (أحداث ووقائع)...٢٧١

الختام: عقاب المنافقين وعذاباتهم..٢٩٧

المصادر والمراجع...٣١٣

الفهرست...٣٣٥